الدعوة إلى الله ﷻ

في سورة العنكبوت

إعداد

عبيد بن عبد العزيز بن عبيد السلمي

دار الزهراء - الرياض

٤٦٥٥٧٨٩
٤٦٤١١٤٤

ح دار الزهراء للنشر والتوزيع ، ١٤١٩ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
السلمي ، عبيد بن عبد العزيز بن عبيد
الدعوة الى الله في سورة العنكبوت - الرياض
٤٠٨ ص ، ١٧ × ٢٤ سم
ردمك ٤-٠٧-٦٦٤-٩٩٦٠
١- الدعوة الاسلامية ٢- القرآن - التفسير الحديث
٣- القرآن - سورة العنكبوت - تفسير أ - العنوان
ديوي ٢١٣ ١٧/١٩١٠

رقم الايداع : ١٧/١٩١٠
ردمك : ٤-٠٧-٦٤٤-٩٩٦٠

الطبعة الاولى ـ ١٩٩٨ م .

دار الزهراء
للنشر والتوزيع

طريق مكة المكرمة ـ بين شارعي الضباب والعليا
هاتف : ٤٦٤١١٤٤ ـ ٤٦٥٥٧٨٩
فاكس : ٤٦٥٩٥٣٧
ص . ب ٤٩٨٨ ـ الرياض ١١٤١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧١][١].

أما بعد.

فإن الدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ من أصول الإسلام الواجبة على المسلم بقدر استطاعته، فهي من أفضل الأعمال وأبرها عند الله جلّ وعلا. وكل البشر محتاجون إليها، ففيها عزهم وحياتهم الحقيقية.

والدعوة الصادقة لا بد أن تكون نابعة من عقيدة سليمة. وكتاب الله ـ عز وجل

---

(١) من بداية الكلام إلى قوله: ... (عظيماً) هذه خطبة الحاجة التي كان يعلمها الرسول ـ ﷺ ـ أصحابه. كما في سنن أبي داود ٢/ ٥٩١. كتاب «النكاح» باب «في خطبة النكاح» ٣٣. واللفظ له. والترمذي ٣/ ٤٠٤. وابن ماجه ١/ ٦٠٩ والنسائي ٦/ ٨٩. ومصنف ابن أبي شيبة ٤/ ٢٨١.

ـ وسنة رسوله ـ ﷺ ـ هما المصدران الأصليان للدعوة الصادقة والعقيدة السليمة .

وهذا البحث من المصدر الأول، لأكشف عن بعض الجوانب المهمة فيه بالنسبة للدعوة إلى الله .

وقد دعمت بحثي بالأصل الثاني، لأنه المفسّر والموضّح لما أجمل في القرآن .

وبما أن البحث في جزء من المصدر الأول يحتاج إلى عمر طويل، وجهد مضني، لا يسعني القيام به . فكيف به كله!؟ .

لذا اخترت إحدى سوره، وهي سورة [العنكبوت]، ولما تشتمل عليه من أهمية بالغة في هذا الموضوع .

وتتضح أهميتها بما تشتمل عليه من عدّة نقاط أهمها :

إن سورة العنكبوت جاءت بعد [القصص] التي فيها أخبار عن فرعون، أنه علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً .

ثم افتتح الله ـ سبحانه ـ سورة [العنكبوت] بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار، وعذبوهم على الإيمان بعذاب دون ما عذب به قوم فرعون بني إسرائيل، تسلية لهم بما وقع لمن قبلهم، وحثا لهم على الصبر[1] .

قال تعالى ـ مجملاً ما فصله في سورة [القصص] وغيرها ـ : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٣ ﴾ [العنكبوت : ٣] .

وافتتاح السورة بالحروف المقطعة يؤذن بأن من أغراضها، تحدى المشركين بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، على أحد أقوال أهل العلم في الحروف المقطعة .

وفي السورة الحث على الاجتهاد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعاء إلى الله وحده، من غير اعتماد على غيره سبحانه أصلاً، لئلا يكون المعتمد على غيره مثل العنكبوت، فإن ذلك مثل كل من أعرض عنه سبحانه وتعوض عوضاً منه[2] .

---

(١) انظر: من أسرار ترتيب القرآن للسيوطي. تحقيق عبد القادر عطا الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ. نشر دار الاعتصام، طبعة دار النصر القاهرة. ص: ١٢٣ .

(٢) انظر: مصاعد النضر للإشراف على مقاصد السور. لإبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي. تحقيق: عبد السميع محمدأحمد حسنين. مكتبة الرياض الحديثة ٢/ ٣٤٥.

والموضوع الأساسي للسورة، هو الحديث عن الإيمان والفتنة، وحقيقة الإيمان، وما يكشف عن معادن النفوس من الابتلاء والفتنة، وأنه ليس كلمة تقال باللسان مع موالاة أعداء الله، ويظهر ذلك جليّاً في سبب نزول أول السورة (كما سيأتي)[1].

وقد بيّن الله ـ سبحانه ـ مصير المؤمنين والكافرين، وإن كل إنسان مسؤول عما يعمل فلا يحمل أحد عن أحد شيئاً يوم القيامة: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

ومن تصور ـ أو ظن ـ أن إعلان الإيمان يكفي في قبول إيمانه عند الله وعند الناس، فظنه مردود عليه، لأنه سيمتحن، فإن صدق وصبر على المكاره والتكاليف في طريق هذه الكلمة، وإلا فهو من الخاسرين الهالكين، وقوله بلسانه لا يفيده شيئاً.

١ ـ وقد بيّن الله ـ سبحانه ـ في هذه السورة نماذج ممن ابتلوا وفتنوا من الذين من قبلنا، ومنهم خيرة خلقه الذين صبروا وبلغوا عن الله، وهم أنبياءه: نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب عليهم السلام، ثم أشار إلى قوم عاد وثمود.

وهذا عرض يصور ما وجد من عقبات وفتن في طرق كل دعوة، والتهوين من شأنها أمام قوة الإيمان والاعتماد على قدرة الله ـ سبحانه وتعالى ـ والمضي في تبليغ رسالته، وتحمل تبعات هذه الرسالة إحقاقاً للحق وإزهاقاً للباطل.

وانظر إلى نوح. كيف صبر على قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً؟ لم يكل، ولم يملّ، حتى أيس منهم، فجاءه نصر الله، بإهلاك المعاندين بالطوفان، ونجيّ ومن آمن معه في الفلك.

وإبراهيم عليه السلام أمر قومه بالعبادة والتقوى لله، ونهاهم عن معتقداتهم الفاسدة، مما جعلهم ينتقمون منه بالنار، ولكن الله أنجاه منها عبرة وعظة.

وكان ممن آمن بإبراهيم: لوط عليهما السلام. فبعثه الله إلى قوم قد فسدت فطرتهم، وانحرفت عن الطريق الصحيح، حتى طمعوا بضيوف نبي الله، ولكن الله رد كيدهم، وطمس أعينهم.

---

(١) سيأتي من ص ١٦٥ إلى ص ٢٣٠. أما سبب نزول أول السورة فهو في ص ١٧٤.

وشعيبا عليه السلام كان يدعو قومه إلى الله، ويخوفهم باليوم الآخر، وينهاهم عن الفساد، وأنهم محاسبون على فسادهم.

٢ ـ ثم بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ عاقبة قوم عصوا رسله، واتبعوا أهواءهم، وشهواتهم، واغتروا بقوتهم، فبطروا نعمة الله عليهم كعاد وثمود.

ومنهم من أطغاه المال واستبداد الحكم، والتمرد على أمر الله ومشاركته في الألوهية. كفرعون وقارون وهامان. ولكن الظالم يلقي جزاءه مهما طال به الأمد.

وقد تكرر هذا المعنى في أكثر سور القرآن، ليستقر في الأذهان.

وبين الله ـ سبحانه ـ تفاهة معتقدات هؤلاء القوم ومن حذى حذوهم، بمثل يضربه من واقع حياة الناس، ومشاهداتهم.

قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًاۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

وينتهي هذا القصص بهوان الشرك وعزة الإيمان، وبيان قدرة الله الذي يضرب الأمثال، ليتعظ بها العقلاء، ويفهمها العلماء: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

٣ ـ وقد وجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ الرسول ﷺ والمؤمنين إلى توجيهات سامية كريمة، تكون مخرجاً لهم من الفتنة، وعوناً لهم على الصبر في سبيل الدعوة، وذلك بإقامة شرع الله، والتعبد له. ومن ذلك:

أ ـ الأمر بتلاوة القرآن، ففيه أخبار من فتنوا قبلنا، ليكونوا أسوة لنا وسلوه، كما أنه هو الوسيلة للدعوة، والآية الربانية المصاحبة لها.

ب ـ الأمر بإقامة الصلاة، فهي تقرب العبد من الله، وتجعل الإنسان المحق فيها، يستحي من الله أن يقترف كبائر الذنوب وفواحشها، فهي تطهر من دنس الفحشاء والمنكر.

٤ ـ وتناولت السورة الطريق الأمثل في دعوة أهل الكتاب، وجدالهم بالحسنى، لأن من كان هدفه الحق ـ إذا تبين له ـ فإنه سيتبعه لأن كتبهم السابقة،

قد بشرت بالرسول ـ ﷺ ـ وهم على علم بذلك، أما من كان ظالماً، فله معاملة أخرى، لأن له هدف غير الحق.

ويتضح من خلال الآيات التي فيها مجادلة أهل الكتاب، وحدة الدين والعقيدة والإيمان، واتحاد ذلك في جميع الرسالات التي جاءت من عند الله.

فالمؤمنون في كل زمان ومكان، يؤمنون بجميع الكتب المنزلة من عند الله، فالجميع مسلمون.

فقد بين الله ـ سبحانه وتعالى ـ علاقة القرآن بالكتب السابقة التي لم تحرف، وما بينها من ترابط وتماسك، ففي الآيات بيان لحكمة مجيء الرسالة الجديدة، والكشف عما بينهاوبين الرسالات قبلها من صلة، مما جعل بعض أهل الكتب السابقة يؤمنون بالقرآن، لأنه مصدق لما معهم، وقد عميت عنه بعض البصائر، مع ما بيّنه الله لهم عن رسوله ـ ﷺ ـ.

فهم يعرفون أميته، وأنه لم يقرأ كتباً قبله، ولم يخط. فكيف يأتي به من عند نفسه؟. كما أنه لا علاقة له بالسحرة والكهنة فكيف يأتي به من ساحراً وكاهن، كما يزعمون؟.

فالله رد عليهم شبههم، وبين أن الرسول ـ ﷺ ـ بشر، وليس من حقه أن يقترح على الله إنزال الآيات، فلو تأملوا لعلموا أن آياته خير من آيات العذاب التي يقترحونها. فلذلك يحذرهم الله من استعجالهم العذاب، ويهددهم بمجيئه بغتة وهم لا يشعرون، ويصور لهم قربه منهم، وءحاطة جهنم بهم، ويصف حالهم يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

ثم يعود إلى المؤمنين ويخاطبهم بأنه لا بد لهم من الثبات أمام الفتنة والأذى الذي أتاهم، ولا سبيل إلى ذلك، إلاّ بالهجرة إلى أرض الله الواسعة، حتى يتمكنوا من أداء شعائرهم، وإعلان دينهم ويهون عليهم الدنيا وتفاهتها، وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة فإن كان الذي يمنعهم من الهجرة هو خوف الجوع، وترك الأموال بمكة، فإن ذلك يهون في سبيل الله.

فانظروا إلى تلك الحيوانات والدواب التي لا تملك رزقاً ولا تدخره كيف يهيء الله لها الرزق. كما قال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغد وأخماصاً وتروح بطاناً»[1].

٥ ـ ثم عقب أهل الفتنة من الكفار، بأنه لا يمكنهم أن ينكروا ربوبيته، وأنه خالق السموات والأرض، وسخر الشمس والقمر فلا يمكنهم أن يفلتوا من عقابه، فلا يغتروا ببسط الله لهم في الرزق، لأن ذلك ليس إلا ابتلاء واختبار، وإلا فهو منزل المطر ومحيي الأرض، ولو شاء لمنع ذلك عنهم.

غير أن الدنيا لا تساوي عند الله شيئاً بالنسبة للآخرة، فبسط منها ما شاء للكافر والمؤمن، ودلل على ذلك بما يوجد في أنفسهم وذلك بلجوئهم إلى الله ونسيانهم الدنيا حين يركبون الفلك.

وقد عدد الله عليهم عدة نعم. منها: نجاتهم في الفلك وإسكانهم الحرم، والبسط لهم في الرزق، فأنكر عليهم أن يؤمنوا بما هم فيه من الباطل والغرور، ويكفروا بنعمة الله عليهم، وتوعدهم على ذلك.

ووعد المؤمنين المجاهدين وعداً أكيداً، وتثبيتاً لهم، وبشرى وطمأنينة. فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وبعد هذا الإجمال لما اشتملت عليه السورة، فقد رأيت مناسبة تامة أن يشمل بحثي جميع جوانب الدعوة من حيث الدعوة ذاتها، والمدعو إليه، وأساليب الدعوة والدعاة، والمدعوون، من خلال السورة الكريمة.

وذلك أنه لا بد من معرفة الدعوة وأهميتها.

ولا بد من معرفة ما يدعى إليه، وهو ما يجب اعتقاده، وندين لله به، فلا دعوة صادقة إلاّ إلى عقيدة، فبينهما ارتباط وثيق. والداعية إذا كان صادقاً في

---

(١) مسند أحمد ١/ ٣٠، ٥٢ واللفظ له. سنن الترمذي ٤/ ٥٧٣. كتاب «الزهد» باب ٣٣ حديث رقم ٢٣٤٤ وقال: «هذا حديث حسن صحيح، لا نعرفه إلاّ من هذا الوجه».

سنن ابن ماجه ٢/ ١٣٩٤ كتاب «الزهد» باب ١٤ حديث رقم ٤١٦٤ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

مستدرك الحاكم ٤/ ٣١٨ وقال: «هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه. انظر: تخريج أحياء علوم الدين ٢/ ١٠٢٣ رقم ١٤٦٦.

دعوته، لا يدعو إلى شيء إلاّ وهو يعتقده. وكذلك لا بد من معرفة الطريق الصحيح لتوصيل هذا المعتقد إلى الناس بالأساليب والوسائل المناسبة. وكذلك لا بد من معرفة أهم صفات الداعي الذي يريد أن تؤثر دعوته في الناس، وخير مثال لذلك هم الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ومن تبعهم وسار على طريقهم. كذلك لا بد من معرفة أصناف المدعوين، وميولهم، واتجاهاتهم للتمكن من جلبهم، والتأثير عليهم. وعلى ضوء هذا. فقد قسمت البحث إلى: مقدمة، وتمهيد، وأربعة أبواب. فالمقدمة تشتمل على: أهمية الموضوع وسبب اختياره، وتقسيمه. والتمهيد يشتمل على: تعريف الدعوة وحاجة الناس إليها. ثم الأبواب الأربعة وهي كالآتي:

**** الباب الأول**: المدعو إليه وحقه (كما ورد في السورة):

وينقسم إلى مقدمة وخمسة فصول: ـ **المقدمة**: وفيها مراتب الدين إجمالاً.

* **الفصل الأول**: الإسلام.
* **الفصل الثاني**: الإيمان. وينقسم إلى أربعة مباحث:
  * **المبحث الأول**: تعريفه وما يشتمل عليه من أنواع التوحيد.
  * **المبحث الثاني**: ما ورد من أسماء الله وصفاته في السورة الدالة على ربوبيته.
  * **المبحث الثالث**: توحيد الألوهية في السورة.
  * **المبحث الرابع**: العبادات الواردة في السورة.
* **الفصل الثالث**: بقية أركان الإيمان في السورة. وينقسم إلى خمسة مباحث:
  * **المبحث الأول**: الإيمان بالملائكة.
  * **المبحث الثاني**: الإيمان بالكتب.
  * **المبحث الثالث**: الإيمان بالرسل.
  * **المبحث الرابع**: الإيمان بالقدر خيره وشره.
* **الفصل الرابع**: المرتبة الثالثة (الإحسان).
* **الفصل الخامس**: الفتنة والابتلاء لمن تحقق إيمانه. وينقسم إلى أربعة مباحث:
  * **المبحث الأول**: كونها سنة من سنن الله في هذا الكون.
  * **المبحث الثاني**: الحكمة من الفتنة والابتلاء.
  * **المبحث الثالث**: هل للمسلم أن يستدعي البلاء على نفسه؟.
  * **المبحث الرابع**: أنواع الفتن الواردة في السورة.

**** الباب الثاني**: أساليب الدعوة: وينقسم إلى أربعة فصول:

* **الفصل الأول**: الحكمة.
* **الفصل الثاني**: الموعظة الحسنة. وينقسم إلى أربعة مباحث:
  * **المبحث الأول**: الترغيب.
  * **المبحث الثاني**: الترهيب.
  * **المبحث الثالث**: أسلوب لفت الأنظار.
  * **المبحث الرابع**: الجمع بين الحكمة والموعظة الحسنة ـ وينقسم إلى قسمين:
* **الفصل الأول**: الأمثال.
* **الفصل الثاني**: القصص.
* **الفصل الثالث**: الجدال.
* **الفصل الرابع**: موانع قبول الدعوة.

** **الباب الثالث**: الدعاة في السورة:

وينقسم إلى مقدمة وستة فصول:

* المقدمة ـ في أهم صفات الدعاة:
* **الفصل الأول**: نوح (عليه السلام).
* **الفصل الثاني**: إبراهيم (عليه السلام).
* **الفصل الثالث**: لوط (عليه السلام).
* **الفصل الرابع**: شعيب (عليه السلام).
* **الفصل الخامس**: محمد (ﷺ).
* **الفصل السادس**: ما أجمل ذكره من الأنبياء في السورة.

** **الباب الرابع**: المدعوون في السورة:

وينقسم إلى أربعة فصول:

* **الفصل الأول**: المؤمنون.
* **الفصل الثاني**: المنافقون.
* **الفصل الثالث**: الكفار.
* **الفصل الرابع**: أهل الكتاب.

وكان غالب اعتمادي في هذا البحث على كتب التفسير، وخاصة المتقدم منها، إلا أني وجدت بعض الصعوبة، لأنها لم تتطرق لمثل هذا التفصيل وهذا الأسلوب، بل غالبها مجمل.

ولكن الله ـ عز وجل ـ أعانني، فأكثرت من المراجع، ومن القراءة، فخرجت بهذا البحث الذي أرجو أن يكون باباً للعلم والعمل.

وقد عزوت الأحاديث إلى مصادرها الأصلية، فما كان موجوداً في الصحيحين خرجته منهما، وأشرت إلى من أخرجه غيرهما، وإن لم يكن فيهما بينته من كتب الحديث الأخرى.

كما أنني قمت بتعريف التراجم التي لم تكن مشهورة، وغالب اعتمادي في ذلك على: سير أعلام النبلاء، إذا وجدت فيه الترجمة، وذلك لأن المحققين ذكروا عند كل ترجمة مراجعها في كتب الرجال.

وقد وضعت فهارس تفصيلية بآخر البحث للآيات والأحاديث، والرجال والأشعار، والمواضيع.

* * *

التمهيـد
الدعوة وحاجة الناس إليها

الدعوة في اللغة:

(ادعو): الدال والعين والحرف المعتفل أصل واحد، وهو أن تميل الشيء إليك، بصوت وكلام يكون منك، تقول: «دعوت، أدعو دعاة. والدعوة إلى الطعام ـ بالفتح ـ، والدِعوة في النسب ـ بالكسر . . .

وداعية اللين: ما يترك في الضرع ليدعو ما بعده، وهذا تمثيل وتشبيه. وفي الحديث: «دع داعية اللين . . .»[1].

وتداعت الحيطان، وذلك إذا سقط واحد وآخر بعده، فكأن الأول دعا الثاني . . .، ودواعي الدهر: صروفه، كأنها تميل الحوادث[2].

و «دعوت فلاناً وبفلان: ناديته وصحت به، وما بالدار داع ولا مجيب.

والنادبة تدعو الميت: تندبه. تقول: وازيداه. ودعاه إلى الوليمة ودعاه إلى القتال، ودعا الله له، وعليه، ودعا الله بالعافية والمغفرة والنبي داعي الله، وهم دعاة الحق، ودعاة الباطل والضلالة»[3].

«ودعوت فلاناً، أي: صحت به واسدعيته، ودعوت الله له، وعليه دعاء، والدعوة: المرة الواحدة»[4].

وقوله تعالى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٧٦/٣١١، ٣٢٢، ٣٣٩ بألفاظ متقاربة. ونظر الفائق ١/٤٢٦.

(٢) معجم مقاييس اللغة لأبي فارس جـ ٢ ص: ٢٧٩.

(٣) أسس البلاغة للزمخشري ص: ١٣١.

(٤) الصحاح للجوهري ٦/٢٣٣٧ مادة «دعا».

كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤].

قال الزجاج[1]: «جاء في التفسير أنها شهادة أن لا إله إلاّ الله، وجائز أن تكون ـ والله أعلم ـ دعوة الحق من دعا الله موحداً، أستجيب له دعاؤه...».

وقوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٦].

معناه: داعياً إلى توحيد الله وما يقرب منه.

والنبي ـ ﷺ ـ داعي الله ـ عز وجل ـ، وكذلك المؤذن»[2].

«والدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلالة، وأحدهم داع، ورجل داعية، إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين، إذا دخلت الهاء فيه للمبالغة...

قال الله ـ عز وجل ـ مخبراً عن الجن الذين استمعوا القرآن ـ: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٣١].

ويقال لكل من مات: دعي فأجاب. ويقال: دعاني إلى الإحسان إليك إحسانك إليّ...»[3].

وقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

دار السلام هي: الجنة، والسلام هو: الله. ويجوز أن تكون الجنة: دار السلام، أي: دار السلامة والبقاء، ودعا الله خلقه إليها كما يدعو الرجل الناس إلى

---

(١) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السري، لزم المبرد، وأدب القاسم ابن عبيد الله الوزير، وكان سبب غناه، أخذ عنه العربية أبو علي الفارسي جماعة، وأبو القاسم عبد الرحمن الزجاجي من كتبه: «معاني القرآن»، و«الإنساني وأعضائه»، و«الفرس ـ العروض ـ الاشتقاق ـ والنوادر وغيرها. (ت: ٣١١ هـ). وقيل: ٣١٠، ٣١٦). سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٦٠ رقم ٢٠٩. وفيات الأعيان ١/ ٤٩. النجوم الزاهرة ٣/ ٢٠٨.

(٢) المحكم والمحيط الأعظم في اللغة. لعلي بن إسماعيل بن سيدة. (ت: ٤٥٨ هـ). تحقيق: عبد الستار أحمد خزج. الطبعة الأولى ١٣٧٧ هـ. نشر مكتبة مصطفى الحلبي مصر. جـ: ٢ ص: ٢٣٤ كلمة: «د ع و».

(٣) لسان العرب لابن منظور جـ ١٤، ص: ٢٥٩.

مدعاة. أي: إلى مأدبة يتخذها وطعام يدعو الناس إليه»[1].

ومما تقدم تبين أن كل المعاني التي مرت متقاربة، وإنما تختلف معنى الكلمة تبعاً للسياق، وضعها في الكلام، وعلى هذا لا خلاف بين أهل اللغة سوى أن بعضهم اقتصر على بعض المعاني.

فالمعنى الأصلي لهذه الكلمة: «الدعاء، والانتساب، والصياح والتجمع، والنداء، والزعم، والسؤال، والاستغاثة، والحث والطلب[2].

فهي تستعمل للخير والشر، ولكن المقصود هنا الدعوة إلى الله عز وجل.

التعريب الاصطلاحي للدعوة:

مما تقدم تبين أن للدعوة عدة معاني، بحسب إضافتها، فالمقصود هنا: إضافتها إلى الإسلام، وقد عرفها العلماء بعدة تعريفات. منها:

«الدعوة إلى الله: هي الدعوة إلى الإيمان به، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به، وطاعتهم فيما أمروا، وذلك يتضمن الدعوة إلى الشهادتين، وأقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والدعوة إلى الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر خيره وشره، والدعوة إلى أن يعيد العبد ربه كأنه يراه»[3].

وعرفت بأنها: «جمع الناس على الخير، ودلالتهم على الرشد، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر»[4].

ومن تعريفات الدعوة: أنها حث الناس على الخير والهدى، والأمر بالمعروفة، والنهي عن المنكر، ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل»[5].

---

(١) المصدر السابق جـ ١٤، ص: ٢٦٠.

(٢) انظر: مرشد الدعاة لمحمد بنمر الخطيب ص: ٢٢.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية. جمع وترتيب: محمد بن قاسم النجدي. طبعة المساحة العسكرية ـ القاهرة ١٤٠٤ هـ. جـ ١٥ ص: ١٥٧.

(٤) أسس الدعوة. محمد السيد الوكيل. مطابع أخبار اليوم. نشر دار الطباعة والنشر الإسلامية. القاهرة. ص: ٩.

(٥) هداية المرشدين للشيخ علي محفوظ ص: ١٧. الطبعة التاسعة ١٣٩٩ هـ دار الاعتصام ـ دار النصر ـ القاهرة.

وقيل: هي: «النصيحة التي أجمل فيها الرسول ـ ﷺ ـ الدين»[1].

وقيل: هي: «دين الله الذي بعث به الأنبياء جميعاً، تجدد على يد محمد ـ ﷺ ـ خاتم النبيين، كاملاً وافياً لصلاح الدنيا والآخرة»[2].

وقد ذكرت عدة تعريفات، ومن خلال نظري إلى هذه التعريفات تبيّن لي أن هناك فرق بين:

«الدعوة الإسلامية». و «الدعوة إلى الإسلام» ومحتوياته من: العقيدة، والشريعة، والعبادات، والمعاملات، النظم.

فيقصد بالأولى: «الدين الإسلامي».

أما الثانية: فقد اخترت لها التعريف الآتي:

«الدعوة إلى الإسلام» هي: «قيام من له أهلية بدعوة الناس جميعاً إلى الدين الإسلامي في كل زمان ومكان، بوسائل وأساليب مشروعه، تتناسب مع حال المدعوين على مختلف أصنافهم وعصورهم، حسب الاستطاعة».

وقد اخترت هذا التعريف لأنه جامع مانع، حيث ذكرت فيه الداعي والمدعو إليه، والمدعو، والدعوة ذاتها.

فالدعوة إلى الإسلام هي: تبليغ دعوة الإسلام، فالذي يدعو إلى الإسلام، يتعرض تلقائياً لبيان الإسلام وشرحه، وإذاً فبينهما تشابك وارتباط وثيق.

وفي السورة بيان للأركان الأربعة، وهي: المدعو إليه وحقه على عباده، من الإيمان والتوحيد.

والداعي، وهم الأنبياء عليهم السلام. وقد ذكر بعضهم.

والمدعو، وهم أصناف الناس من مؤمنين ومنافقين وكفار وأهل الكتاب.

ونستنتج من ذلك بعض أساليب الدعوة، وهذا ما سيأتي تفصيله (إن شاء الله).

---

(١) محاضرات الجامعة الإسلامية ص: ٢٥٢. من محاضرة ألقاها: معوض عوض إبراهيم عام ١٣٩٧م.

(٢) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية. لمحمد الراوي ص: ٢٩. طبعة دار العربية. لبنان. «الثانية».

حاجة الناس إلى الدعوة:

إن الناظر في بدائع الكائنات وافتقارها للخالق العظيم، وإحكامه وإنظامه سبحانه لها، يعلم أن مقتضى ألوهيته وحكمته، أن لا يترك عباده حيارى، وهو خلقهم للابتلاء والامتحان. كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: ٢].

لذلك شرع لهم ما يكفل سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، ويعلموا ما يراد منهم، لأن من عدلِه سبحانه، أن يكافىء المحسن ويعاقب المسيىء، ولا يعذب أحداً حتى يبيّن له سبيل الرشاد[1].

كمال قال سبحانه: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

وكان الشرع الذي ارتضاه لهم هو الدين الذي بعث به رسله فبلغوه من أوّلهم: نوح[2] (عليه السلام)... إلى آخرهم: محمد (ﷺ).

وإذا استعرضنا تاريخهم، وجدناهم يبعثون في قوم يتخبطون في ظلمات الجهل والخرافة.

فنوح ـ عليه السلام ـ أرسل حينما نسي الناس دينهم، ولبس عليهم الشيطان عبادة ربهم، كما يتضح ذلك من قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾ نوح: ١].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣].

وقد أخرج البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب، بعد، أما «ود» كانت لكلب بدومة الجندل، وأما «سواع» كانت لهذيل، وأما «يغوث» فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجوف

---

(١) انظر: دعوة الحق (٢٨) وحي الله. د. حسن ضياء الدين عنتر ص: ٤٧. طبعة رابطة العالم الإسلامي. مكة.

(٢) أول الرسل: نوح ـ عليه السلام ـ كما في حديث الشفاعة.

عند سبأ، وأما «يعوق» فكانت لهمدان، وأما «نسر» فكانت لحمير لآل ذي الكلاع، أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا، أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسموها بأسمائهم، فلعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وننسخ العلم عبدت»[1].

«والمقصود. أن الفساد لما انتشر في الأرض، وعمّ البلاد، بعبادة الأصنام فيها، بعث الله عبده ورسوله نوحاً ـ عليه السلام ـ يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه»[2].

وكذلك إذا نظرنا إلى نبي الله ـ إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ فإنه ما بعث إلاّ بعد أن ضلّ قومه. كما قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

وكذلك موسى ـ عليه السلام ـ فإنه أرسل إلى فرعون حينما ظغى، وتجبر، وتكبر، وادعى الربوبية من دون الله. كما قال سبحانه: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾﴾ [النازعات: ١٧].

وقوله سبحانه: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤].

وكذلك بقية الرسل ـ عليهم السلام ـ إلى خاتمهم: نبينا محمد ـ ﷺ ـ، فإنه ما بعث إلاّ والناس في جاهلية جهلاء وضلالة عمياء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

---

(١) صحيح البخاري جـ ٦/ ٧٣. طبعة المكتبة الإسلامية. تركيا. وانظر: قصص الأنبياء. لابن كثير ١/ ١١٤.

(٢) قصص الأنبياء للإمام أبي الفداء إسماعيل ابن كثير (ت: ٧٧٤ هـ) تحقيق عبد القادر أحمد عطا. الطبعة الثانية ١٤٠٢ هـ. (١٩٨٢ م. نشر المكتبة الإسلامية. لبنان. دار إحياء التراث العربي ١/ ١١٦. وانظر: البداية والنهاية ١/ ١٠١.

أخرج ابن جرير الطبري عن قتادة[1]. قال: «هذا قبل أن يبعث الله نبيه محمداً ـ ﷺ ـ امتلأت ضلالة وظلماً، فلما بعث الله نبيه، رجع راجعون من الناس»[2].

فالرسول ﷺ، بعث في هؤلاء القوم، مجدداً للدين الذي جاء به من قبله من الرسل، وداعياً إلى صراط المستقيم، مؤيداً بالقرآن العظيم، الذي كله دعوة إلى التوحيد، فهو:

«إما خبر عن الله ـ عز وجل ـ، وما يجب أن يوصف به، وما يجب أن ينزه عنه، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته. فهذا من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل التوحيد، وإما خبر عن أهل الشرك وإهانتهم»[3].

لذلك الذين أطاعوا الرسول، وعملوا بما أنزل معه من سلف هذه الأمة، جمع الله شملهم بعد الشتات، ووحد كلمتهم بعد الفرقة، فسادوا في الأرض، ونشروا العدل، وأقام الله بهم هذا الدين.

من هذا الاستعراض السريع، نستنتج أن العقول البشرية مهما وصلت من التقدم والاختراع والإبداع، فإن لها قدرتها المحدودة التي لا تستطيع تجاوزها، وخاصة في معرفة أسماء الله وصفاته، وكيف يُعْبَد، ومعرفة حدوده من حلال وحرام.

وقد زعم بعض الفلاسفة أنه يمكنهم الاستغناء عن دعوة الرسل بالعقول التي وهبها الله لهم، فسنوا لأجل ذلك القوانين، وحللوا وحرموا وخططوا واعتمادهم في ذلك على تحسين العقل وتقبيحه.

وقد ادعي ذلك أناس قبلهم كالبراهمة: وهم: «طائفة من المجوس زعموا أن إرسال الرسل عبث لا يليق بالحكيم، لإغناء العقل عن الرسل، لأن ما جاءت به الرسل، إن كان موافقاً للعقل حسناً عنده فهو يفعله، وإن لم يأت به، وإن كان

---

(١) تأتي ترجمته ص: ٢٧١.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن. لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. (ت: ٣١٠ هـ). الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ (١٩٦٨ م). شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي. مصر ٢١/ ٤٩.

(٣) معارج القبول ١/ ٥٤.

مخالفاً قبيحاً، فإن احتاج إليه يفعله وإلاّ تركه»[1].

ولكن هذا القول باطل ومردود، لأنه معروف أن الله سبحانه وتعالى خلق العقول وجعلها تميز بين الحسن والقبيح، والنافع والضار، وهذا من حيث الجملة، وإلاّ فهناك أمور تفصيلية لم يعرفها العقل، وإنما جاءت عن طريق الشرع. «فما كان حسناً في وقت قبيحاً في وقت، ولم يهتد العقل لوقت حسنه من وقت قبحه، أتت الشرائع بالأمر به في وقت حسّنه، وبالنهي عنه في وقت قبّحه. . .»[1].

فالحاجة إلى الرسل ضرورية، بل هي فوق كل حاجة، فليس العالم إلى شيء أحوج منهم، إلى المرسلين ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ.

ولهذا يذكر سبحانه عباده نعمه عليهم برسوله، ويعد ذلك عليهم من أعظم المنن منه، لشدة حاجتهم إليه، ولتوقف مصالحهم الجزئية والكلية والدينية والدنيوية عليه، وأنه لا سعادة لهم، ولا فلاح، ولا قيام إلاّ بالرسل.

فإذا كان العقل قد أدرك حسن بعض الأفعال وقبحها، فمن أين له معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، والأدلة التي تعرف بها الله إلى عباده على ألسنة رسله؟. ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده؟. ومن أين له تفاصيل مواقع محبته ورضاه، وسخطه وكراهته؟ ومن أين له معرفة تفاصيل ثوابه وعقابه، وما أعد لأوليائه، وما أعد لأعدائه ومقادير الثواب والعقاب وكيفيتهما ودرجتهما؟. . . إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل، وبلغته عن الله، وليس في العقل طريق إلى معرفته. فكيف يكون معرفة حسن بعض الأفعال وقبحها بالعقل، مغنياً عما جاءت به الرسل!؟.

فظهر أن ما ذكروه مجرد تهويل مشحون بالأباطيل والحمد لله»[2].

يقول ابن تيمية ـ مبيناً حاجة الناس إلى الرسل ـ: «الرسالة ضرورية للعباد، لا بد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء والرسالة روح العالم، ونوره وحياته، فأي صلاح للعام إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة

---

(١) لوامع الأنوار البهية للسناريني ٢/٢٥٦. طبعة قطر.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور دار العلم والولاية. الطبعة لدار الفكر ٢/١١٧.

ملعونة إلاّ ما طلعت عليه شمس الرسالة.

وكذلك العبد، ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة، وينال من حياتها وروحها، فهو في ظلمة، وهو من الأموات.

قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فهذا وصف المؤمن، كان ميتاً في ظلمة الجهل، فأحياه الله بروح الرسالة، ونور الإيمان، وجعل له يمشي به في الناس، وأما الكافر فميت القلب في الظلمات»[1] ا. هـ.

فما دام أن هذه حاجة الناس إلى الرسل، فحاجتهم إلى من يبين يدين الرسل ليست بأقل من حاجتهم إلى الرسل.

لذلك جعل الله ـ سبحانه ـ آخر الرسالات صالحة لكل زمان ومكان وتكفل بحفظها، لاستيفائها بحاجات البشر إلى يوم القيامة. فقام بحملها علماء أجّلاء، هم ورثة الأنبياء»[2].

وقد روى عنه ﷺ أنه قال: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[3].

والناس محتاجون إلى الدين، وإلى تعلم شرع الله القويم، وإذا أعرضوا عن ذلك، فإنه هلاكهم وزوالهم، كما قال ﷺ: «إن من أشراط الساعة أن يقل العلم،

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٩/ ٩٣.

(٢) جزء من حديث رواه الترمذي في كتاب «العلم» باب ١٩ جزء ٥/ ٤٩. والدارمي في سننه ١/ ٨٣. وابن ماجه ١/ ٨١. وذكره البخاري تعليقاً في باب «العلم» قبل القول والعمل. كتاب «العلم» ١/ ٢٥ وسنن أبي داود كتاب «العلم» باب «الحث على طلب العلم» ٤/ ٥٨.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه ٤/ ٤٨٠ عن أبي هريرة. كتاب «الملاحم» باب «ما يذكر في قرن المائة» (١) رقم الحديث: ٤٢٩١.

والحاكم في المستدرك ٤/ ٥٢٢. والخطيب في تاريخ بغداد ٢/ ٦١. قال العراقي: «صحيح». انظر: تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ١ج٢٨. ورمز له البيهقي بالصحة. انظر: فيض القدير ٢/ ٢٨٢. انظر: مشكاة المصابيح ٢/ ٨٢. انظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ١٥٠ رقم ٥٩٩. وصحيح الجامع ١/ ١٤٣ رقم ١٨٧٠. وقال الألباني: «والسند صحيح ورجاله ثقات رجال مسلم».

ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء، ويقل الرجال، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد»[1].

وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله. الله»[2].

وهذا منذر خطر عظيم، فإنك ترى غالب الناس في هذا الزمان قد أعرضوا عن دين الله وشريعته، وحكّموا القوانين الوضعية بين عباده.

فالناظر إلى حال الناس في هذا القرن، يجد أن الناس قد استحوذ عليهم الشيطان، وسيرتهم الأهواء، وانتشر بينهم الجهل، فهم منقسمون إلى الأقسام الآتية:

١ ـ الملحد الذي لا يعرف رباً ولا ديناً، والوثني الذي يعبد الشجر والحجر.

٢ ـ الكتابي الذي يدعي أنه على دين موسى، وعيسى، وهما منه براء.

٣ ـ المسلم بالبطاقة والهوية لا بالاعتقاد والعمل.

٤ ـ المسلم الذي جهل معظم أمور دينه. فاستخف بحرمات الله، وشاعت فيه المنكرات، وغزى في عقر داره بجحافل المضللين والمشككين.

فهذه الأقسام، تجب دعوتها وردها إلى دين الله، والتحاكم إلى شريعته.

ولكن من يقوم بهذا الواجب؟ يقوم به:

٥ ـ المسلم الذي عرف يما أنيط به ـ وهو قليل ـ، فهو الذي يتحمل المسؤولية لدعوة تلك الأصناف المتقدمة، التي نفخ الشيطان في عقولهم، فأصبحوا دعاة للتمرد على الله وشريعته، وتعاليم رسله بحجة أن في الدين حجراً على العقل، وعائقاً عن ركب الحضارة والرقي، فصارت الدول ترفض تعاليم الإسلام، وبعضها تضع الألحاد مبدءاً دستورياً، باسم شعارات هدّامة، كالعلمانية، والماركسية والشيوعية، وغيرها.

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٨ كتاب «العلم» باب «رفع العلم». واللفظ له. وفي مواضع أخرى بألفاظ متقاربة. صحيح مسلم ٤/ ٥٦. كتاب «العلم» باب «رفع العلم» وأخرجه أحمد، والترمذي، وابن ماجه.

(٢) صحيح مسلم ١/ ١٣١ كتاب «الإيمان» باب «ذهاب الإيمان آخر الزمان».

ومسند أحمد ٣/ ١٠٧، ٢٠١، ٢٥٩، وسنن الترمذي ٤/ ٤٩٢، كتاب «الفتن» باب ٣٥ «كلها عن أنس».

حتى أن معظم الدول التي فيها مسلمون، تنهج هذا النهج وترضى عوام المسلمين بإعلانها أن دين الدولة الإسلام، ثم تهدمه.

فما أحوج هذا العالم الذي هذا وضعه، إلى دعوة تنير له السبيل وتهديه إلى طريق النجاة والفلاح.

فعلى دعاة الإسلام أن يهتموا بهذا الوضع، ويقوموا بهذا الواجب فيدعون الوثنيين إلى الدخول في الإسلام، ويبينون لهم حقائق الجمادات وأنها لا تنفع ولا تضر و. . . الخ».

ويدعون أهل الكتاب للاهتداء بالقرآن الذي فيه بيان حقيقة كتبهم كما أن كتبهم أمرتهم باتباع الرسول والإيمان به.

ويدعون الشيوعيين الملحدين إلى التخلي عما هم عليه من الألحاد.

ويدعون المسلمين المنحرفين إلى الرجوع إلى دينهم، والإنابة والتوبة مما سلف،

كما يدعون إخوانهم المسلمين بالتواصي بالحق والصبر عليه، حتى يأتي نصر الله،

فعلى دعاة الإسلام أن لا ييأسوا من دعوة الجميع، ولا يسأموا، فإنهم مأجورون منتصرون في الدنيا والآخرة.

ولعل لقائل أن يقول: ما علاقة تعريف الدعوة والحاجة إليها بهذا البحث؟.

فأقول: إن القرآن كله شامل لدعوة الإسلام، ومبيّن كيفية تبليغها وسورة العنكبوت جزء من هذا القرآن، ففيها بيان لبعض دعوة الإسلام وكيفية تبليغها، والدعاة والمدعوين (كما سيأتي بيانه إن شاء الله).

* * *

الباب الأول

المدعو إليه وحقه كما ورد في السورة

وينقسم إلى مقدمة وخمسة فصول:

- المقدمة: مراتب الدين إجمالاً.
- الفصل الأول: الإسلام.
- الفصل الثاني: الإيمان.
- الفصل الثالث: بقية أركان الإيمان.
- الفصل الرابع: الإحسان.
- الفصل الخامس: الفتنة والابتلاء لمن تحقق إيمانه.

الباب الأول

مقدمة
مراتب الدين إجمالاً: الإسلام والإيمان والإحسان

إن مراتب الدين ثلاثة هي: الإيمان، والإسلام، والإحسان.

يدل على ذلك ما ورد في حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما نحن عند رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى نبي الله ـ ﷺ ـ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه. وقال: يا محمد: أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، إن استطعت إليه سبيلا». قال: «صدقت قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم بها من السائل». قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: «إن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان». قال: ثم انطلق، فلبثت ملياً. ثم قال لي: «يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»[1].

---

(١) صحيح مسلم ١/٣٦ الإيمان باب «بيان الإيمان والإسلام والإحسان» واللفظ له. صحيح البخاري: ١/١٨، الإيمان باب سؤال جبريل عن الإيمان. مسند الإمام أحمد ١/٥٢ واللفظ له. وسنن ابن ماجة مقدمة١/ ٢٤ باب ٩. =

وهذه المراتب الثلاث قد ورد ما يبينها في السورة.

فالإيمان والإسلام يجتمع فيهما الدين كله، ولا بد للآيتان بجميع الدين من الإحسان، كما سيأتي بيانه، إلاّ أن الإيمان والإسلام بينهما خصوص وعموم، وهما من الأسماء المشتركة، يجتمعان تارة، ويفترقان أخرى.

فاجتمعا في مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقوله سبحانه: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤].

ومن السنة حديث جبريل المتقدم.

ويفترقان. فيذكر الإيمان وحده أو الإسلام، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٢ ـ ٣].

وكما في حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمد رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج وصوم رمضان»[(١)].

وكما في حديث وفد عبد القيس، حينما قدموا على رسول الله ـ ﷺ ـ

= وانظر: المسند بتحقيق أحمد شاكر ١/ ٢٣٣ رقم ١٨٤، وص: ٣١١ رقم ٣٦٧. وص: ٣١٥ رقم ٣٧٤.

قال أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(١) صحيح البخاري ١/ ٨ كتاب «الإيمان» باب ٢.

صحيح مسلم ١/ ٤٥ كتاب «الإيمان» باب «بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام ٥».

فقالوا: «يا رسول الله أنا هذا الحي من ربيعة وقد حالت بيننا وبينك كفار مضر، فلا نخلص إليك إلاّ في شهر الحرام، فمرنا بأمر نعمل به، وندعوا إليه من وراءنا».
قال: «أمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله ـ ثم فسرها لهم. فقال: «شهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم، وأنهاكم عن: الدباء[1]، والحنتم[2]، والنقير[3]، والمقير[4][5].

فدل ذلك على أن الإيمان والإسلام، إذا ذكرا جميعاً، افترق معناهما، وإذا افترقا صارا معناهما واحد، وقد اجتمعا في حديث[6] عمر.

وبين الرسول ﷺ ـما المراد بكل منهما، «فجعل الإسلام هو الأعمال

---

(١) الدباء: وهو القرع اليابس في الوعاء منه. النووي على مسلم ١/ ١٨٥. وهو اليقطين، وهو القرع، وهي من الأشجار التي لا تقوم على ساق. غريب الحديث للحربي ٣/ ١٠٢٣. وثمرها كان أهل الطائف يخرطون فيها عناقيد العنب، ثم يدفنونها حتى تدمر ثم تموت غريب الحديث للهروي ١/ ٣٠٥.

(٢) الحنتم: عن أنس: «كانت الحناتم قلالها يجاء بها من مصر مغيرات الأجواف. وقيل: هي «جرار حمر مزفته يؤتى بها من مصر، وليست بالجرار الخضر.
وقيل: هي جرار حمر مغيرة يؤتى بها من الشام، والحنتمة: الجرة الخضراء. غريب الحديث لإبراهيم الحربي ١/ ٦٦٦.
والمزفت: يعين على شدة ما نبذ فيه، فيقرب من المسكروان لم يبلغه.
وقيل: جرار كانت تحمل فيها الخمر، فنهى أن ينبذ فيها مخافة أن لم ينعم غسلها فيكون فيها طعم الخمر وريحها.
وقيل: إنها جرار تعمل من طين، عجن بالدم والشعر، فنهى عنها ليصتنع منع يعملها». المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث لمحمد المديني الأصفهاني ت: ٥٨١ هـ): ١/ ٥٠٨.

(٣) أصل خشبة ينقر. الفائق ١/ ٤٠٧. وهو أصل شجرة ينقر وينبذ فيه».
معجم مقاييس اللغة ٥/ ٤٦٩. وكان أهل اليمامة ينقرون أصل النخلة ثم يسترخون فيه الرطب والبسر، ثم يدعونه حتى يهدر ثم يموت.
غريب الحديث للهروي ١/ ٣٠٥.

(٤) المقير: هو المزنت وهو المطلي بالقار وهو الزفت. وقيل: الزفت نوع من القار والصحيح الأول.
وخصت هذه بالنهي لأنه يسرع إلى ما يوضع فيها من تمر وزبيب الإسكار النووي على مسلم ١/ ١٨٥.

(٥) صحيح مسلم كتاب «الإيمان» باب «الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ» / ٤٦. واللفظ له. صحيح البخاري كتاب «الإيمان» باب «أداء الخمس من الإيمان» ١/ ١٩. وكتاب «العلم» ١/ ٣٠.

(٦) المتقدم في ص: ٢٨.

الظاهرة: الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج، وجعل الإيمان ما في القلب من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر»[1].

والإحسان شامل لجميع مراتب الدين، فكل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم محسن وليس كل مؤمن محسن كما سيأتي في بيان الإحسان.

والسورة ورد فيها ذكر بعض أركان الإسلام وأركان الإيمان والإحسان.

* * *

---

(١) الإيمان لابن تيمية ص: ١٠.

الفصل الأول

المرتبة الأولى من مراتب الدين

الإسلام

وبينه وبين الإيمان تداخل كما تقدم، ولم يرد في السورة نص عليه إلا أنه يشمل الأعمال الظاهرة من الدين، إذا اجتمع هو والإيمان، لذلك سأذكر ما ورد منها في هذه السورة بعد تعريفه.

فالإسلام يطلق على الدين الذي لا يقبل الله ديناً غيره، لا من الأولين ولا من الآخرين، فإن جميع الأنبياء على دين الإسلام[1].

كما يطلق على الدين الذي بعث به محمد ﷺ فقط، وهو يشمل جميع مراتب الدين من الإسلام والإيمان والإحسان.

وقد عرف أنه الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله[2]. وهذا يشمل جميع الدين كما تقدم، إلا أنه إذا جمع مع الإيمان فإنه يطلق على الأعمال الظاهرة كما في حديث عمر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره، والإسلام أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمد رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت الحرام إن استطعت إليه سبيلاً)[3]. الحديث.

وقد فسر الإسلام بأخص من ذلك كما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/ ٩٠.

(٢) ثلاثة الأصول لمحمد بن عبد الوهاب: ٤٨.

(٣) الحديث بتمامه في ص ٢٤ من هذا البحث.

رسول الله ﷺ قال: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)[1].

وهذا خاص من عام من أمور الدين.

أما أركان الإسلام الواردة في حديث عمر رضي الله عنه فلم يرد لها في السورة ذكر غير الشهادتين والصلاة.

أما بقية أركان الإسلام فلم يرد لها ذكر إلا دخولها بالعموم مثل قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فمن تلاوة الكتاب المعنوية إيتاء الزكاة والصوم والحج.

فالركن الأول: الشهادتين:

وأول ركن من أركان الإسلام الشهادتين، فشهادة أن لا إله إلاّ الله هي التي بعث بها جميع الرسل، وهي مشتملة لجميع أنواع التوحيد، والإيمان، وسيأتي تفصيل ذلك عند الإيمان، وبيان أنواع التوحيد كما أنه لا يقبل الإسلام من أحد حتى ينطق بها مع شهادة أن محمد رسول الله.

أما شهادة أن محمد رسول الله «فتقضي الإيمان به وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه، وزجر، وأن يعظم أمره ونهيه، ولا يقدم عليه قول أحد كائناً من كان»[2].

والله عز وجل بعثه بشيراً ونذيراً، ومن لم يؤمن به لم يصح إيمانه، ففرض الصلاة عليه في كل صلاة، ولا تتم الصلاة إلا بذلك[3].

كما أوجب ذكره في اليوم خمس عشرة مرة، وذلك عند النداء والإقامة للصلوات الخمس.

وقد ورد في القرآن الأمر بطاعته ﷺ في نيف وثلاثين موضعاً، وقرنها بطاعته

---

(١) الحديث بتمامه في ص ١٣٢ من هذا البحث.

(٢) فتح المجيد: ٤٥.

(٣) انظر الشريعة للآجري ص: ٤١٥.

سبحانه، ثم حذر خلقه مخالفته»[1].

قال الآجري[2]: ثم اعلموا يا أمة محمد يا مؤمنين أن الله أوجب على جميع الخلق أن يعظموا قدر نبيه عليه السلام بالتوقير له والتعظيم وأن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوته كل ذلك إجلالاً له، وأعلمهم أن من خالف ما أمر الله به من ذلك التعظيم لرسوله أنه يحبط عمله وهو لا يشعر»[3]. وقد قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[4]، وهو أول مأمور بعبادة ربه، فقال الله له: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء: ١].

وقد جمع الله له بين العبودية والرسالة، فالعبودية الخاصة وصفه فأعلى مراتب العبد العبودية الخاصة، والرسالة، وقد اجتمعت للرسول ﷺ، فهو أكمل الخلق في ذلك، والله عز وجل جمع له بين هاتين الصفتين دفعاً للإفراط والتفريط، فإن كثيراً ممن يدعي أنه من أمته أفرط بالغلو قولاً وفعلاً، وفرط في ترك متابعته»[5].

ورسالته عامة لجميع الثقلين ولجميع أهل الأرض، كما أن أهل الأديان السابقة مطالبون بالإيمان به وأتباعه ﷺ كما قال عز وجل عنه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ

---

(١) الشريعة للآجري: ٤٠٩.

(٢) هو: أبو بكر محمد بن الحسين بن عبدالله البغدادي، من مؤلفاته: الشريعة، والرؤية، والغرباء، والأربعين، والثمانين، والتهجد، وغيرها، سمع أبا مسلم الكجي، ومحمد المروزي، وأبا شعيب الحراني، والفريابي، وأحمد ابن زنجوية القطان، وغيرهم. كان صدوقاً خيراً عابداً، دينا ثقة، صاحب سنة وأتباع. توفي سنة ٣٦٠ هـ. سير أعلام النبلاء: ١٦/ ١٣٣، وفيات الأعيان: ٤/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(٣) الشريعة: ٤١١.

(٤) صحيح البخاري: ١/ ٩، كتاب الإيمان باب ٨، صحيح مسلم: ١/ ٦٧، كتاب الإيمان باب ١٦.

(٥) فتح المجيد: ٤٥.

﴿إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وقد أثبت الله عز وجل رسالته ﷺ في هذه السورة، ورد على من أنكرها، وكفر به ﷺ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٧، ٤٨].

وثانيها: الصلاة:

وهي ثاني أركان الإسلام وأحد مبانيه العظام، فلا عمل بعد توحيد الله أفضل من الصلاة لله لأنه افتتحها بالتوحيد، والتعظيم لله بالتكبير، ثم الثناء على الله، وحمده وتمجيده، ودعاؤه، وهذا ما اشتملت عليه الفاتحة التي هي ركن من أركان الصلاة، لقوله ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»(١).

فإقامة الصلاة فيها تلاوة للقرآن الكريم لفظاً ومعنى، فاللفظ بقراءة الفاتحة وما معها لقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل: ٢٠]

والمعنى أن القرآن فيه أمر بإقامة الصلاة في آيات كثيرة، وإقامتها وآداؤها في

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ١٨٤، كتاب الأذان باب ٩٥. وصحيح مسلم: ١/ ٢٩٥، كتاب الصلاة باب ١١، ومواضع أخرى قريبة من هذا اللفظ، وأخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وأحمد، ومالك، وقريباً منه في سنن أبي داود.

وقتها بقراءتها وركوعها وسجودها وقعودها وتشهدها وجميع شرائطها[1].

والمقيم للصلاة معترف بوحدانية الله، حيث أنه يقرأ فيها الفاتحة، وهي مشتملة على جميع أنواع التوحيد.

كما أنه يسبح لله في الركوع والسجود، ويكبر عند كل خفض ورفع، يختتمها بالشهادة لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، يؤدي ذلك وهو منتصباً لله قائماً وراكعاً وساجداً، وهذا كله توحيد لله، واعترافاً له بالعبودية[2].

والأمر بإقامة الصلاة يشمل الصلوات المفروضة، وغيرها من النوافل، وليس خالصاً بالصلوات الخمس إلا أن لها مزية على غيرها في الفضل كما قال ﷺ: «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً ما تقول ذلك يبقي من درنه، قالوا: لا يبقى من درنه شيئاً، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا»[3].

فإذا اجتمعت معها النوافل كانت أعظم قدراً، وأكثر أجراً، وهذا عام في جميع العبادات لعموم قوله ﷺ: «إن الله قال: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن يكره الموت، وأنا أكره إساءته)»[4].

والصلاة من أحب الأعمال إلى الله، لذلك ألزم قلب حبيبه ﷺ حبها، وجعلها قرة عينه دون غيرها، قال ﷺ: «حبب إليّ من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة»[5].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣٤٧.

(٢) انظر تعظيم قدر الصلاة للمروزي: ١/ ٢٦٨.

(٣) صحيح البخاري: ١/ ١٣٤، كتاب المواقيت باب ٦ واللفظ له. صحيح مسلم: ١/ ٤٦٢، كتاب المساجد باب: ٥١. وأخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، ومالك وأحمد.

(٤) صحيح البخاري: ٧/ ١٩٠، كتاب الرقاق باب التواضع: ٣٨، واللفظ له، ومسند أحمد: ٦/ ٢٥٦.

(٥) مسند الإمام أحمد: ٣/ ١٢٨، واللفظ له عن أنس، وقريباً من في: ٣/ ١٩٩، ٢٨٥، السنن الكبرى =

وكان يفزع إليها عند الشدائد، والملمات، كالكسوف، وفي الحرب، فعن أبي بكرة قال: كنا عند رسول الله ﷺ فانكسفت الشمس، فقام النبي ﷺ يجر رداءه حتى دخل المسجد، فدخلنا فصلى بنا ركعتين حتى انجلت الشمس، فقال النبي ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد، فإذا رأيتموهما فصلوا وادعوا حتى ينكشف ما بكم»[1].

وفي رواية لمسلم عن أسماء قالت: (كسفت الشمس على عهد النبي ﷺ ففزع فأخطأ بدرع حتى أدرك بردائه، بعد ذلك قالت: فقضيت حاجتي ثم جئت ودخلت المسجد، فرأيت رسول الله ﷺ قائماً فقمت معه، فأطال القيام حتى رأيتني أريد أن أجلس ثم التفت إلى المرأة الضعيفة فأقول هذه أضعف مني فأقوم، فركع فأطال الركوع، ثم رفع رأسه فأطال القيام، حتى لو أن رجلاً جاء خيل إليه أنه لم يركع)[2].

وعن علي رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو حتى أصبح[3].

وقال حذيفة رضي الله عنه: (رجعت إلى رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شمله يصلي، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى)[4].

وكانت آخر وصية للرسول ﷺ، فعن علي رضي الله عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: (الصلاة واتقوا الله فيما ملكت أيمانكم)[5].

= للبيهقي: ٧/ ٧٨، وسنن النسائي: ٧/ ٦١، كتاب عشرة النساء، مستدرك الحاكم: ٢/ ١٦٠، وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٣/ ٨٧ رقم ٣١١٩.

(١) صحيح البخاري: ٢/ ٣٣ كتاب الكسوف باب ١، وباب ١٧ بلفظ قريباً من هذا، وفي ٧/ ٣٣ كتاب اللباس باب ٢، وسنن ابن ماجه: ١/ ٤٠١، كتاب إقامة الصلاة باب ١٥٢ عن النعمان بن بشير.

(٢) صحيح مسلم: ٢/ ٦٢٥ كتاب الكسوف باب ٣ بهذا اللفظ، وفي ٢/ ٥٢٦ قريباً منه، مسند أحمد: ٥/ ٣٤٩، ٦/ ٣٥١، وقريباً من هذا اللفظ في سنن أبي داود: ١/ ٧٠١ كتاب الكسوف باب من قال بأربع كلمات عن قبيصة الهلالي، ومسند أحمد: ٥/ ٣٧ عن أبي بكرة.

(٣) تعظيم قدر الصلاة للمروزي: ١/ ٢٣١، وأخرجه النسائي في السنن الكبرى، كما ذكر في تحفة الأشراف: ٧/ ٣٥٨، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة: ٣/ ٤٩، و ٣/ ٣٩.

(٤) أخرجه في مسند الإمام أحمد: ٥/ ٣٨٨ وهو عند المروزي في تعظيم قدر الصلاة: ١/ ٢٣١، والطبري: ١/ ٢٠٥.

(٥) سنن أبي داود: ٥/ ٣٥٩، كتاب الأدب، باب في حق السلوك: ١٣٣ وأخرجه ابن ماجه: ٣/ ٩٠١ =

وسيأتي بيان لفوائدها ص١١٧ ضمن العبادات الواردة في السورة.

أما بقية الأركان فكما ذكرت في صفحة ٢٩ عند حديث عمر رضي الله عنه ولم يرد لها ذكر في السورة، إلا أنه ورد ذكر الصبر، وهو يطلق على الصوم في بعض الأحيان، كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥]

فقد قال مجاهد[1]: إن الصبر هنا (الصوم)، ومنه سميّ شهر رمضان شهر الصبر[2].

إلا أن هذا خاص من عام، فالمراد بالصبر، الصبر على أداء الفرائض.

وقال ابن جرير[3]: «الصوم بعض معاني الصبر عندنا»[4].

وكذلك في بيان وصف المؤمنين بالصبر في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [العنكبوت: ٥٩].

أمـا الحـج:

فقد ورد في السورة ذكر البيت الذي يحج إليه الناس، بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وهذا امتنان من الله على كفار قريش بهذه النعمة العظيمة ودعوتهم إلى شكرها.

= كتاب الوصايا باب: ١، عن أنس وعلي بدون (اتقوا الله).

والمروزي في تعظيم قدر الصلاة: ١/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

وأخرجه بلفظ آخر أحمد في المسند: ٦/ ٢٩٠ ـ ٣١١ ـ ٣١٥ ـ ٣٢١ عن أم سلمة، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٣/ ٢٦٧، حديث: ٣٧٦٧.

(١) تأتي ترجمته في ص: ٢٠٣.

(٢) معالم التنزيل: ١/ ٦٨، وتفسير القرآن العظيم: ١/ ١٣٢.

(٣) تأتي ترجمته في ص: ٤٩.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١/ ٢٥٩.

ووجود هذا البيت علامة على بقاء هذا الدين، واستمرار الحج إليه، وزواله من علامات الساعة كما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة»[١].

قال ابن حجر في الفتح: «قيل هذا الحديث يخالف قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ولأن الله حبس عن مكة الفيل، ولم يمكن أصحابه من تخريب الكعبة ولم تكن إذ ذاك قبلة، فكيف يسلط عليها الحبشة بعد أن صارت قبلة للمسلمين».

وأجيب بأن ذلك محمول على أنه يقع في آخر الزمان قرب قيام الساعة حيث لا يبقى في الأرض أحد يقول الله الله، كما ثبت في صحيح مسلم: (لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله)[٢].

ولهذا وقع في رواية سعيد بن سمعان[٣] (لا يعمر بعده أبداً)[٤].

وقد وقع قبل ذلك فيه من القتال، وغزو أهل الشام له في زمن يزيد بن معاوية، ثم من بعده في وقائع كثيرة من أعظمها وقعة القرامطة بعد الثلاثمائة، فقتلوا من المسلمين في المطاف ما لا يحصى كثرة، وخلعوا الحجر الأسود فحولوه إلى بلادهم، ثم أعيد بعد مدة طويلة ثم غزى مراراً بعد ذلك، وكل ذلك لا يعارض قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ١٥٩، كتاب الحج باب: ٤٩.
صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٣٢، كتاب الفتن باب: ١٨.
مسند أحمد: ٢/ ٢٢٠ بنحوه.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ١٣١، كتاب الإيمان باب: ٦٦.
سنن الترمذي: ٤/ ٤٩٢، كتاب الفتن باب: ٣٥.
مسند أحمد: ٣/ ١٠٧ ـ ٢٠١، ٢٥٩.

(٣) هو سعيد بن سمعان مولى الزرقيين، أنصاري، مدني، روى عن أبي هريرة، روى عنه ابن أبي ذئب، التاريخ الكبير: ٣/ ٤٧٩، الجرح والتعديل: ٤/ ٣٠.

(٤) جزء من حديث في مسند أحمد: ٢/ ٢٩١ ـ ٣١٢ ـ ٣٢٨ ـ ٣٥١.

لأن ذلك إنما وقع غالبه بأيدي المسلمين، فهو مطابق لقوله ﷺ: «ولن يستحل هذا البيت إلا أهله»[1]، فوقع ما أخبر به النبي ﷺ، وهو من علامات النبوة، وليس في الآية ما يدل على استمرار الأمن المذكور فيها»[2] أهـ.

وأقول: إلا أن الله حرمها، وتوعد على من أخلّ بأمنها في أي وقت.

---

(١) جزء من حديث انظر ص ٣٥ هامش ٤.

(٢) انظر فتح الباري: ٣/ ٤٦١.

الفصـــل الثانـــي
الإيمـــان

وينقسم إلى أربعة مباحث:

المبحث الأول: أ ـ تعريفه وما يشتمل عليه.
ب ـ توحيد الربوبية.
المبحث الثاني: توحيد الأسماء والصفات.
المبحث الثالث: توحيد الألوهية في السورة.
المبحث الرابع: العبادات الواردة في السورة.

* * *

المبحـــث الأول

الإيمـــان

ورد الإيمان مقروناً بالعمل الصالح في ثلاث آيات في السورة (كما سيأتي ذكرها).

فالعمل الصالح يشمل: الإيمان، والإسلام. وكل عمل صالح أمر الله ـ عز وجل ـ به، وندب إليه، وأفضلها الإيمان بالله.

كما ثبت أنه قيل للرسول ﷺ: «أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله، وجهاد في سبيله»[1].

فهذا دليل على أن الأعمال من الإيمان، وهو مذهب أهل السنة والجماعة. حيث يقولون: «الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان»[2].

قال البخاري رحمه الله تعالى: «وهو قول وفعل ويزيد وينقص»[3].

---

(١) صحيح البخاري: ١١٧/٣ كتاب «العتق» باب «أي الرقاب أفضل» وهو جزء من حديث، والسائل فيه أبا ذر.

سنن النسائي كتاب «الجهاد» ١٩/٦، وسنن الدارمي كتاب «الصلاة» باب «أي الصلاة أفضل» ١٣٥. وكتاب «الجهاد» باب «أي الأعمال أفضل» ١٢١/٢. والرقائق باب «٢٨» ٢١٦/٢، مسند الإمام أحمد ٢٠٩/٢ ـ ٢٦٤ عن أبي هريرة.

(٢) انظر: الإيمان لابن تيمية ص: ١٦٢ ـ ٢١١.

والإيمان لابن منده ٣٤١/٢، قال فيه ذكر خبر يدل على أن الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالأركان يزيد وينقص.

وانظر: الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص: ٥٣، وانظر: فتح الباري ٤٦/١، وانظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/ ٨٣٠.

(٣) صحيح البخاري ٧/١ كتاب «الإيمان» باب «قول النبي ﷺ: بني الإسلام على خمس».

وقد ورد في السورة ما يدل على أن الأعمال من الإيمان. بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ۝١٠﴾ [العنكبوت: ١٠].

قال أبو عبيد[1] ـ بعد أن ذكر الآيتين، وقوله سبحانه: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ۝١٤١﴾ [آل عمران: ١٤١].

قال: «أفلست تراه تبارك وتعالى قد امتحنهم بتصديق القول بالفعل، ولم يرض منهم بالإقرار دون العمل، حتى جعل أحدهما من الآخر»[2] ا. هـ.

وهذا رد على المرجئة الذين يقولون: «أن الإيمان قول بلا عمل» والجهمية الذين يقولون: «الإيمان المعرفة»[3].

وقد ذكر الله الإيمان وعطف عليه الأعمال الصالحة في كثير من الآيات في كتابه الكريم، وهذا يدل على أن الأعمال من الإيمان، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٧﴾ [العنكبوت: ٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۝٩﴾ [العنكبوت: ٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن

---

(١) هو: القاسم بن سلام، ولد سنة ١٥٧ هـ بهراة، وولي قضاء طرطوس وسكن مكة، ومات فيها سنة ٢٢٤ هـ وعمره (٦٧ سنة)، له مؤلفات عدة منها: «غريب الحديث والأمثال، والأموال، والإيمان» تاريخ بغداد ١٢/ ٤٠٣، رقم ٦٨٦٨، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٩٠ رقم ١٦٤.

(٢) الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٦٦.

(٣) الإيمان لمحمد بن يحيى بن أبي عمر العدني ١٨٧.
انظر: الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٣٩.
وقد ردّ العلماء على المرجئة والجهمية وغيرهم من الفرق بما يطول ذكره هنا.
انظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري ١/ ٢١٣، ٣٣٨.

﴿تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨﴾ [العنكبوت: ٥٨].

فهذه الآيات تدل على أن الأعمال داخلة في الإيمان، وملازمة له.

قال القرطبي[١]: قوله تعالى: ﴿وعملوا الصالحات﴾ ردّ على من يقول: أن الإيمان بمجرده يقتضي الطاعات، لأنه لو كان ذلك، ما أعدها فالجنة تُنال بالإيمان والعمل الصالح»[٢].

والآيات فيها ذكر المؤمنين الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحات.

ومن أخرج الأعمال عن الإيمان استدل بمثل هذه الآيات لقولهم أن العطف يقتضي المغايرة، وإلا لزم التكرار هنا»[٣].

والعطف لا يقتضي المغايرة في كل حال، فإنه هنا من باب عطف الخاص على العام، وهو كثير في القرآن. كقوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٩٨﴾ [البقرة: ٩٨].

فإن جبريل وميكائيل من الملائكة[٤].

ومن الآيات الدالة على أن الأعمال من الإيمان في السورة قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال ابن منده[٥]: «ذكر ما يدل على أن الجهاد في سبيل الله ـ عز وجل ـ من الإيمان»[٦]، ثم ساق هذه الآية.

قال البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ: «باب الجهاد من الإيمان».

وأورد قوله ﷺ: «انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمان بي،

---

(١) تأتي ترجمته ص: ٢٧٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٢٣٨. وانظر: فتح القدير للشوكاني ١/ ٥٤.

(٣) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي. حيث قال بذلك: ٢/ ١٢٧.

(٤) انظر تفصيل ذلك في كتاب «الإيمان» لشيخ الإسلام ابن تيمية ص: ١٦٣.

(٥) هو أبو عبدالله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى «ابن مندة»، ولاؤه لعبد قيس، كان واسع الرحلة، كثير الحديث، حافظ، ثقة، من مؤلفاته «الإيمان» و«التوحيد والصفات» و«التاريخ» و«معرفة الصحابة» و«الكنى» وغيرها. توفي سنة ٣٩٥ هـ. سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٨.

(٦) الإيمان لابن منده ٢/ ٣٩٤.

وتصديق برسلي، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية، ولو وددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل»[1].

هذا ما يدل على تعريف الإيمان عند السلف باختصار.

وما دلت عليه السورة بدخول الأعمال في الإيمان، وهو مذهبهم.

وبما أن للإيمان أركان، كما تقدم في حديث عمر[2]، فسيكون هذا الفصل في الحديث عنها، كما وردت في السورة إن شاء الله.

*　　*　　*

الركـــن الأول
الإيمـان باللّـه جـلّ وعـلا

وهو أن تؤمن بأن الله ـ سبحانه ـ هو الخالق الرازق، المدبر، المحيي المميت، أي أنه رب كل شيء ومليكه، كما تؤمن بأنه سبحانه متصّف بصفات الكمال، متّزه عن صفات النقص، وأن تؤمن بأسمائه الحسنى، كما أخبر عن نفسه، من غير زيادة أو نقصان، أو تحريف أو تأويل.

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى: ١١].

كما تؤمن بأنه هو المستحق للعبادة وحده دون سواه.

فالإيمان بالله شامل لنوعي التوحيد، وهما:

التوحيد العلمي، الخبري، الاعتقادي:

وهو توحيد المعرفة والإثبات. ويشمل: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٤ كتاب «الإيمان».

(٢) تقدم حديثه في صفحة ٢٤ من هذا البحث.

توحيد القصد والطلب:

وهو توحيد الألوهية والعبادة[1].

قال ابن القيم[2]: «التوحيد نوعان: نوع في العلم والاعتقاد ونوع في الإرادة والقصد، ويسمى الأول: التوحيد العلمي، والثاني: التوحيد القصدي الإرادي. لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة، والثاني: بالقصد والإرادة.

وهذا الثاني ـ أيضاً ـ نوعان: توحيد في الربوبية، وتوحيد في الألوهية، فهذه ثلاثة أنواع»[3]

فالإيمان شامل لهذه الأنواع جميعاً، لا ينفك أحد منها عن الآخر فمن أنكر واحداً منها، فقد حبط عمله، وهو في الآخرة من الخاسرين.

فالأول التوحيد «العلمي الخبري الاعتقادي». وينقسم إلى قسمين:

الأول: الربوبية. الثاني: الأسماء والصفات.

أولاً: الربوبية:

وهو توحيد الله بأفعاله من خلق ورزق وإحياء وإماتة، وقد اعترف بذلك المؤمنون والكفار، ولم ينكره إلاّ قليلاً من الناس، وهم الملحدون، أو الدهريون: «المنكرون للصانع»[4].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم

---

(١) انظر شرح الطحاوية ص ٨٨.

(٢) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب الزراعي، ولد سنة ٦٩١ هـ، ولازم ابن تيمية من سنة ٧١٢، وسجن معه، أبطل بدعة الوقيد في جامع دمشق التي دامت أكثر من مائتي سنة، خاصة في ليلة النصف من شعبان، سمع الحديث واشتغل بالعلم، برع في علوم كثيرة، كان حسن القراءة والخلق، كثير العبادة، مولعاً بجمع الكتب، له مؤلفات عدة منها: «الصواعق المرسلة» و«الداء والدواء»، و«أحكام أهل الذمة» و«الروح» و«حادي الأرواح» و«أعلام الموقعين» و«طريق الهجرتين» و«جلاء الأفهام».

توفي يوم الخميس ثالث عشر من رجب سنة ٧٥١ هـ رحمه الله.

البداية والنهاية ١٤/ ٢٣٤. النجوم الزاهرة ١٠/ ٢٤٠، الدر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ٤/ ٢١، الأعلام ٦/ ٥٦.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٣٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٢٣٠.

بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع: فرعون، وقد كان متيقناً به في الباطن. كما قال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وإلاّ فالقلوب مفطورة على الإقرار به، أعظم من غيره من مخلوقاته[1]. كما قالت الرسل لهم. قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم: ١٠].

لذلك ورد في القرآن على سبيل الإخبار، لا على سبيل الطلب والأمر، لأنه لا يكفي وحده، بل لا بد من لازمة، وهو توحيد العبادة.

والآيات التي ذكرت في هذه السورة عن هذا التوحيد تقرره وتؤكده في النفوس، للوصول إلى غيره، وهو توحيد الألوهية.

كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كقولهم في التلبية: «لبيك لا شريك إلاّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك».

فعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان المشركون يقولون: «لبيك لا شريك لك. قال: فيقول رسول الله ﷺ: «ويلكم قد قد»[2] فيقولون: «إلاّ شريكاً هو لك تملكه وما ملك. يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت»[3].

وقد قرر الله هذا التوحيد بما تدل عليه بعض صفاته، كالقدرة، كما سيأتي بيانه.

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية، طبعة المكتب الإسلامي ص ٧٧.

(٢) «قد قد» معناه: كفاكم هذا الكلام فاقتصروا عليه ولا تزيدوا. صحيح مسلم بشرح النووي ٨/ ٩٠.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٨٤٣ كتاب «الحج» باب «التلبية». وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/ ٦٧٠.

المبحث الثاني
توحيد الأسماء والصفات

توحيد الأسماء والصفات يدل على توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية لازم له، فالله عز وجل أخبرنا بأسمائه الحسنى لندعوه بها، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠]. ودعاؤه بها يتضمن دعاء العبادة ودعاء المسألة.

وقد قال ﷺ: «إن لله عز وجل تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر».

وفي رواية (من حفظها)[1].

ومعنى إحصاؤها حفظها والتعبد لله بها وتصديق معانيها والعمل بمقتضاها[2].

«ولا يمكن لأحد أن يعبد الله على الوجه الأكمل حتى يكون على علم بأسماء الله تعالى وصفاته ليعبده على بصيرة»[3].

وقد أمرنا الله عز وجل أن ندعوه بأسمائه كما في الآية المتقدمة، والدعاء يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة.

---

(١) صحيح البخاري ٧/١٦٩، كتاب الدعوات باب ٦٨، وكتاب التوحيد ٨/١٦٩، باب ١٢، صحيح مسلم ٤/٢٠٦٢، ٢٠٦٣، كتاب الذكر والدعاء، باب ٢، أخرجه ابن ماجة والترمذي، والإمام أحمد.

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي: ١٧/٥. وفتح الباري ١١/٢٢٥.

(٣) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ص: ٥.

فدعاء العبادة أن نتعبد لله بمقتضى هذه الأسماء فنتوب إليه لأنه التواب، ونستغفره لأنه الغفور ونهلل ونكبر بألسنتنا لأنه السميع يسمعنا ونتعبد له بالجوارح لأنه البصير يرانا، ونخشاه في السر لأنه اللطيف الخبير . . .

ودعاء المسألة أن نقدم بين يدي مطلوبنا من أسماء الله تعالى ما يناسب دعاءنا فنقول: يا غفور اغفر لي، ويا رحيم ارحمني، ويا حفيظ احفظني.

وسيأتي في إسم الجلالة «الله» أنه مشتق من الألوهية وهي العبودية وسيأتي في صفة العلم أن الله عالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم ما في النفس وما تخفي الصدور، متفرد بذلك، فمن آمن بذلك واعتقده فلا بد أن تكون حاله متجهة إليه وحده بالخشية والإنابة لئلا يعلم الله منه خلاف ما يريد فيسخط عليه.

كذلك من آمن بسمع الله وبصره فلا يتكلم إلا بما يرضي الله، ولا يعمل إلا ما يرضي الله، ومن آمن بقدرة الله تعالى فإنه يخاف الله عز وجل فإنه قادر على إهلاكه، ومن آمن أن الله هو الرزاق فلا يطلب الرزق من غيره، ومن آمن بعزة الله فلا يطلب العزة من غيره، ومن آمن بغنى الله عن خلقه فلا يمن على الله بعمله، بل أن يعترف أن المنة لله.

وهذا التوحيد يدل على توحيد الربوبية فما دام أن من صفاته الخالق، والرزاق، والسميع، والعليم، والبصير، فهو بلا شك من كانت هذه صفاته فهو الرب، كما أنه يدل على توحيد الألوهية.

فإذا كان من صفاته الرازق ـ المعطي ـ المانع ـ الغفور ـ الرحيم، فإننا نطلب ذلك منه سبحانه.

قال ابن القيم[1]: «أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء، وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى، إذ لو كانت ألفاظاً لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان وبالعكس، فيقال: اللهم أني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم، واللهم أعطني، فأنك

---

(١) تقدمت ترجمته ص ٤٢.

أنت الضار المانع ونحو ذلك»[١].

وفي الدعاء المأثور: (اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت)[٢].

وتقول: اللهم اغفر لي إنك أنت الغفور الرحيم.

ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، كما قال سبحانه: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

(ما ورد من أسماء الله عز وجل وصفاته في هذه السورة)
أولاً الله

ورد لفظ الجلالة «الله» في هذه السورة أربع عشرة مرة أولها قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣].

ومعنى هذا الاسم كما قال ابن عباس: «أنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين»[٣]، وقيل معناه الذي استحق أن يعبد، وقيل معناه «واجب الوجود الذي لم يزل ولا يزال والمعنى واحد»[٤].

وقال ابن تيمية رحمه الله[٥]: «هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالاً

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٣٦.

(٢) جزء من حديث يقال بعد الصلاة، أخرجه البخاري ١/ ٢٠٥، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، ومسلم في الصحيح ١/ ٣٤٣، كتاب الصلاة، باب اعتدال أركان الصلاة، من الدعاء بين الركوع والسجود.

(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن ١/ ٥٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٠٢.

(٥) ترجم له بكتب خاصة كالأعلام العلية للبزار، والعقود الدرية في مناقب ابن تيمية لابن قدامة، والكواكب الدرية لمرعي الحنبلي ـ لابن فضل الله العمري ـ وترجم له في فوات الوفيات ١/ ٣٥ ـ ٤٥، والدرر الكامنة ١/ ١٤٤، والبداية والنهاية ١٤/ ١٣٥، والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٧١، والأعلام ١/ ١٤٤

وإكراماً»[1].

«وهذا الإسم أحق بالعبادة وهو الإله المعبود، ولهذا يقال: الله أكبر، الحمد لله، سبحان الله، لا إله إلا الله. . . وهذا الإسم يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه وما خلق له، وما فيه صلاحه وكماله وهو عبادة الله»[2].

قال ابن القيم رحمه الله: «واسم (الله) دال على كونه مألوهاً معبوداً تألهه الخلائق محبة وتعظيماً وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلـهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه مستلزم لجميع صفات كماله إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي ولا سميع ولا بصير ولا قادر ولا متكلم ولا فعال لما يريد ولا حكيم في أفعاله، وصفات الجلال والجمال أخص باسم الله»[3].

وقد عده بعض العلماء[4]: هو الإسم الأعظم من أسماء الله سبحانه وتعالى «ولم يتسم به غيره، ولذلك لم يثن ولم يجمع، وهو أحد تأويلي قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥].

أي من تسمّى بإسمه الذي هو الله.

فالله إسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلـهية المنعوت بنعوت الربوبية

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١/ ٢٢.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٤/ ١٢ ـ ١٣.

(٣) مدارج السالكين ١/ ٤١.

(٤) اختلف العلماء في ما هو الإسم الأعظم، فقال بعضهم: أن كل أسمائه عظمى، منهم أبي جعفر الطبري، وأبو الحسن الأشعري، وأبي حاتم، وابن حبان، والباقلاني، وقال بعضهم كل اسم دعي به العين مستغرقاً ليس في فكره غير الله، لأن من تأتى له ذلك استجيب له، وهذا قول جعفر الصادق، والجنيد، وقيل: استأثر الله بعمله.

والذين قالوا به وأثبتوه اختلفوا إلى أربعة عشر قولاً، منها (الله) ومنها (الله الرحمن الرحيم) ومنها (الحي القيوم) و (الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام الحي القيوم)، ومنها (رب رب).

انظر فتح الباري ١١/ ٢٢٤، وبذل المجهود في حل أبي داود ٧/ ٣٤٦، رسالة السيوطي عارضة الأحوذي ١٣/ ٣٤.

المنفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه»[1].

قال الخطابي[2]: «وهذا الإسم هو أشهر أسماء الرب تعالى وأعلاها محلاً في الذكر والدعاء، وكذلك جعل أمام سائر الأسماء وخصت به كلمة الإخلاص ووقعت به الشهادة فصار شعار الإيمان وهو إسم ممنوع لم يتسم به أحد قد قبض الله عنه الألسن فلم يُدْعَ به شيء سواه»[3].

وقال ابن منده[4]: «ذكر معرفة إسم الله الأكبر الذي تسمى به وشرفه على الأذكار كلها، فقال عز وجل: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقال لنبيه ﷺ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد: ١٩].

وقال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/١٠٢.

(٢) هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، ولد سنة ٣١٩ هـ، من شيوخه: ابن الأعرابي، وابن داسة، وأبو علي الصفار، وغلام ثعلب، والفضال الشاشي، ومن تلامذته: أبو حامد الاسفرئيني، وأبو أحمد الحاكم، وأبو ذر الهروي المالكي، وهو محدث فقيه شاعر أديب لغوي، من مؤلفاته معالم السنن، وغريب الحديث، والعزلة، والجهاد، والشجاج، وتوفي سنة ٣٨٨ هـ.

سير أعلام النبلاء ١٧/٢٣، والبداية والنهاية ١١/٢٣٦ ـ ٣٢٤، النجوم الزاهرة ٤/١١٩.

(٣) شأن الدعاء للخطابي ت الدقاق ص ٣٠.

وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/٣١ قريباً من هذا.

(٤) هو: محمد بن إسحاق بن محمد ين يحيى بن منده، ولد بأصبهان سنة ٣١٠ أو ٣١١، سمع من أبيه وعم أبيه عبدالرحمن، وسعيد الأعرابي وطبقته بمكة، وجعفر بن محمد العلوي بالمدينة، وأحمد المقدسي وغيره ببيت المقدس، ومحمد القطان وغيره بنيسابور، كثير الرحلة حتى بلغ الشيخوخة أكثر من ألف شيخ، وحدث عنه الحاكم وأبو نعيم، والنقاش، والعسال، والقطان وغيرهم. من مؤلفاته: «الإيمام» و «التوحيد» و «الصفات» و «التاريخ» وغيرها، ت ٣٩٥ هـ.

سير أعلام النبلاء ١٧/٢٨، البداية والنهاية ١١/٣٣٦، الأعلام ٦/٢٥٣.

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾ [الأحزاب: ٤١].

فإسمه الله معرفة ذاته منع الله عز وجل خلقه أن يتسمَّى به أحد من خلقه، أو يدعى باسمه إله من دونه جعله الإيمان، وعمود الإسلام، وكلمة الحق، والإخلاص، ومخالفة الأضداد والإشراك فيه يحتجز القائل من القتل وبه يفتتح الفرائض وتنعقد الأيمان ويستعاذ من الشيطان وباسمه يفتتح ويختم الأشياء تبارك اسمه ولا إله غيره»[١] اهـ.

قال ابن القيم[٢]: «إسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث[٣]، فإنه دال على إلـهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلـهية له مع نفي أضدادها عنه.

وصفات الإلهية هي صفات الكمال المنزهة عن التشبيه والمثال وعن النقائض، ولهذا يضيف الله تعالى إلى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الإسم العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ويقال: «الرحمن الرحيم والقدوس والسلام والعزيز والحكيم» من أسماء الله. ولا يقال «الله» من أسماء «الرحمن» ولا من أسماء «العزيز»، ونحو ذلك فعلم أن اسمه «الله» مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها بالإجمال، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم «الله»»[٤].

وقد اختلف العلماء في هذا الاسم هل هو مشتق أم لا؟.

فذهب ابن جرير[٥] إلى أنه مشتق، ورد على من قال بجموده، ثم قال: «ولا

---

(١) التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته على الاتفاق والتفرد لابن منده ٢/ ٢١.

(٢) تقدمت ترجمته في ص ٤٢.

(٣) هذا مبنى على كلام سابق له عن دلالة أسماء الله عز وجل على صفاته بالتضمن واللزوم والمطابقة. مدارج ١/ ٣٩.

(٤) مدارج السالكين ١/ ٤١.

(٥) هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبري، ولد سنة ٢٢٥ هـ سمع من محمد بن أبي الشوارب، وإسحاق بن إسرائيل، وأحمد البغوي ومحمد الرازي وغيرهم. وحدث عنه: أحمد القاضي، ومحمد بن عبدالله الشافعي ومخلد بن جعفر وغيرهم. له مؤلفات منها: تاريخ=

شك أن الإلاهة على ما فسره ابن عباس ومجاهد[1] في قوله تعالى: ﴿ويذرك وآلهتك﴾ أي عبادتك.

مصدر من قول القائل أله الله فلان آلاهة، كما يقال عبدالله فلان عبادة، وعبر الرؤيا عبارة»[2].

كما ذهب إلى ذلك الكسائي[3]، والفراء[4]، وروى عن الخليل[5] وسيبوية[6].

وذهب بعض العلماء إلى أنه جامد، منهم: الشافعي، وأبو المعالي[7]،

= الأمم والملوك، والتفسير وتهذيب الآثار، ت ٣١٠ هـ، تاريخ بغداد ٢/ ١٦٢، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧.

(١) هو: مجاهد بن جبر شيخ القراء والمفسرين، أبو الحجاج المكي الأسور مولى السائب المخزومي، روى عن ابن عباس وأخذ عنه القرآن والتفسير والفقه، وعن أبي هريرة، وعائشة، وسعد بن أبي وقاص وغيرهم. حدث عنه عكرمة، وطاوس، وعطاء، والأعمش، وغيرهم. وهو ثقة، ت سنة ١٠٤ هـ أو ١٠٧ أو ١٠٨ هـ، يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقفه عند كل آية أسأله فيم نزلت وكيف كانت. طبقات ابن سعد ٥/ ٤٦٦، الجرح والتعديل، القسم الأول من المجلد الرابع ٣١٩، سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٤٩.

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن ١/ ٥٤.

(٣) هو علي بن حمزة أبو الحسن الأسدي من أهل الكوفة واستوطن بغداد وعلم الرشدين ثم الأمين، قرأ على حمزة الزيات، وسمع من سليمان بن أرقم وأبي بكر ابن عياش، وسفيان بن عيينة وغيرهم، وروى عنه أبو توبة، والفراء، وأبي عبيد القاسم بن سلام، والدوري، وغيرهم. من مؤلفاته: معاني القرآن والآثار في القراءات، ت ١٨٩ هـ، تاريخ بغداد ١١/ ٤٠٣، سير أعلام النبلاء ٩/ ١٣١.

(٤) هو يحيى بن زياد بن عبدالله ابن منظور الأسدي مولاهم الكوفي النحوي صاحب الكسائي يروى عن قيس بن الربيع، ومندل بن علي، وأبي الأحوص، وأبي بكر بن عياش وروى عنه سلمة بن عاصم، ومحمد بن الجهم السمري وغيرهم وكان ثقة. له معاني القرآن، و (البهي) في اللغة، ت ٢٠٧ هـ بطريق الحج (تاريخ بغداد، ١٤/ ١٤٦)، (وفيات الأعيان: ٦/ ١٧٦، سير أعلام النبلاء: ١٠/ ١١٨).

(٥) هو أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، صاحب العربية منشىء علم العروض حدث عن أيوب السختياني، وعاصم الأحول، والعوام بن حوشب، وغالب القطان وأخذ عنه سيبوية، والنضر بن شميل، وهارون بن موسى، والأصمعي وغيرهم، ثقة، ذكياً، ولد سنة ١٠٠ هـ، ت ١٧٠ هـ، له من المؤلفات: العين، والعروض والشواهد، والنقط والشكل، والنغم، انظر وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٤، والسير ٧/ ٢٤٩ وغيرها.

(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ١٠٢.

(٧) هو شيخ الشافعية إمام الحرمين عبد الملك بن عبدالله بن يوسف بن محمد بن حيوية الحويني، ولد=

والخطابي[1]، والغزالي[2]، والمفصل[3]، وغيرهم... وروى عن الخليل وسيبويه فقالوا: إن الألف واللام لازمة له لا يجوز حذفهما منه.

قال الخطابي: «والدليل على أن الألف واللام من بنية هذا الاسم ولم يدخلا للتعريف، ألا ترى أنك لا تقول: يا الرحمن ولا يا الرحيم كما نقول يا الله، فدل على أنهما من بنية الاسم والله أعلم»[4].

والراجح عندي أنه مشتق لما تقدم من بيان معناه وأنه مأخوذ من إله أي تعبد، ولما تدل عليه أسماء الله عز وجل من الصفات المشتقة منها بالمطابقة أو التضمن واللزوم[5].

قال ابن القيم: «زعم السهيلي[6] وشيخه أبو بكر بن العربي[7] أن اسم الله

= سنة ٤١٩ هـ وسمع من أبيه وأبي سعد النصروبي، وأبي حسان محمد بن أحمد المزكي، ومنصور بن رامش وغيرهم، وروى عنه الفراوي، وزاهر الشحامي، وأحمد المسجدي وغيرهم. كان مهتماً بعلم الكلام ثم رجع عنه، قليل المعرفة في الحديث، من كتبه نهاية المطلب في المذهب، والإرشاد في أصول الدين، الشامل في أصول الدين وغيرها، توفي سنة ٤٧٨ هـ، انظر وفيات الأعيان: ٣/١٦٧، البداية والنهاية: ١٢/٢٨، سير أعلام النبلاء: ١٨/٤٦٨.

(١) تقدمت ترجمته في ص ٤٨.

(٢) هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي الغزالي، مهر في علم الكلام والجدل، والتصوف، من مؤلفاته الإحياء، وإلجام العوام، والرد على الباطنية، والمعتقد، وجواهر القرآن، فضائح الإباحية.

انظر وفيات الأعيان ٤/٢١٦، البداية والنهاية ١٢/١٧٣، السير ١٩/٣٢٢.

(٣) لعله أبو طالب المفضل بن سلمة، لأنه لغوي له تصانيف في معاني القرآن، أخذ عن ابن الأعرابي، ومحمد السمعي، ويعقوب بن إسحاق، وأخذ عنه الصولي.

له من الكتب: البارع، والناجز، وجلاء الشبه، والطيف، وغيره. توفى سنة ٢٩٠ هـ.

تاريخ بغداد ١٣/١٢٤، السير ١٤/٣٦٢، الفهرست ١٠٩، معجم الشعراء ٢٩٧، ومعجم الأدباء ١٩/١٦٣، أنباه الرواة ٣/٣٠٥ ـ ٣١١، بغية الوعاة ٢/٢٩٦ ـ ٢٩٧، طبقات المفسرين للدوذي ٢/٣٢٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/١٠٣، وانظر تفسير القرآن العظيم ١/٣٢.

(٥) انظر مدارج السالكين ١/٣٩، وانظر الإيمان لابن تيمية ص ١٧٢، وانظر القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى لابن عثيمين ص ١١.

(٦) هو: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن أحمد بن اصبغ بن حسين بن سعدون بن رضوان بن فتوح الخثعمي السهيلي، من تأليفه: الروض الآنف في السيرة، والتعريف والإعلام فيما أبهم في القرن من الأسماء والأعلام، ونتائج الفكر، ومسألة رؤية الله تعالى في المنام، ورؤية النبي ﷺ، والسر في أعور الدجال، ولد سنة ٥٠٨ هـ، وتوفى بمراكش سنة ٥٨١ هـ. وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/١٤٣.

(٧) هو: محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله، ابن العربي الأندلسي، الإشبيلي المالكي، ارتحل مع =

غير مشتق لأن الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له فيستحيل الاشتقاق، ولا ريب أنه إن أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألمّ بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى، وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب وهي قديمة والقديم لا مادة له.

وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه أصلاً وفرعاً ليس معناه أن أحدهما تولد من الآخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة[1].

ثانياً: الـرب

(من أسماء الله عز وجل الدالة على ربوبيته «الرب»)

وقد ورد في هذه السورة خمس مرات، فقد ورد في مقام النصر، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

كما جاء في الدعاء وطالب النصر منه سبحانه، قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

وورد في مقام الإيمان والهجرة حيث أن لوط عليه السلام آمن بإبراهيم وهاجر إلى ربه، قال تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وجاء في مقام اعتراف الكفار به مع عنادهم وتكبرهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟

= أبيه إلى بغداد ودمشق وبيت المقدس ومكة ومصر، وبعد أن توفى أبيه رجع إلى الأندلس، ومن مؤلفاته: عارضة الأحوذي، وأحكام القرآن، وأمهات المسائل، وغيرها. ت سنة ٥٤٣ هـ، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٩٧.

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ١/ ٢٢.

لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠].

وجاء في مقام وصف المؤمنين باعتمادهم وتوكلهم عليه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [العنكبوت: ٥٩].

ففي هذه الآيات ما يدل على أنه الناصر حيث طلب منه لوط النصرة والتجأ إليه بالهجرة، وهذا يدل على أحقيته في العبادة حيث هاجر لعبادة ربه، كما أن المؤمنين يتوكلون عليه سبحانه، والتوكل من العبادة...

والرب في كلام العرب متصرف على معان، فالسيد المطاع فيها يدعى رباً... والرجل المصلح للشيء يدعى رباً... والمالك للشيء يدعى ربه، وقد يتصرف أيضاً معنى الرب في وجوده غير ذلك غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة، فربنا جل ثناؤه، السيد الذي لا شبه له، ولا مثل في سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر...

وعن ابن عباس قال: قال جبريل لمحمد يا محمد قل الحمد لله رب العالمين، قال ابن عباس: يقول قل الحمد لله الذي له الخلق كله والسموات كلهن ومن فيهن والأرض كلهن ومن فيهن وما بينهن، مما يعلم، ومما لا يعلم، يقول: اعلم يا محمد أن ربك هذا لا يشبهه شيء[1].

ومعنى الرب: «هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها»[2].

«والرب: إسم من أسماء الله عز وجل ولا يقال في غيره إلا بالإضافة، وقد قالوه في الجاهلية للملك»[3].

وقال بعض العلماء: إن هذا الإسم هو إسم الله الأعظم، لكثرة دعوة الداعين به... ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب، مع ما يتضمنه

---

(١) الطبري ١/ ٦٢، وانظر الدر المنثور ١/ ١٣.
(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١/ ٢٢.
(٣) الصحاح ١/ ١٣٠ باب (ربب).

من العطف والرحمة والافتقار[1] في كل حال.

ومتى أدخلت الألف واللام على «رب» اختص الله تعالى به، لأنها للعهد وإن حذفناها منه فإنها بحسب ما ينضاف إليها، فيقال: الله رب العباد، وزيد رب الدار، فالله سبحانه رب الأرباب يملك المالك والمملوك، وهو خالق ذلك ورازقه، وكل رب سواه غير خالق ولا رازق، وكل مملوك فملك بعد أن لم يكن، ومنتزع ذلك من يده، وإنما يملك شيئاً دون شيء ـ وصفة الله تعالى مخالفة لهذه المعاني[2].

«وإسم الرب له الجمع الجامع لجميع المخلوقات فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره فاجتمعوا بصفة الربوبية وافترقوا بصفة الإلهية، فألهه وحده السعداء»[3].

فالرب هو المربي جميع العالمين، وهم من سوى الله بخلقه إياهم وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة التي لو فقدوها لم يكن لهم البقاء فما بهم من نعمة فمنه تعالى.

وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة، وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: هي تربيته لأوليائه فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة من كل شر.

ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة»[4].

كما قال لوط عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٣٠﴾ [العنكبوت: ٣٠].

---

(١) وقد تقدم الكلام في اسم الله الأعظم في ص ٤٧.
(٢) تفسير القرطبي ١/ ١٣٨.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٤٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ١/ ٣٤.

والله سبحانه فطر الخلق على الاعتراف بربوبيته، كما قال سبحانه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ولقول الرسول ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[١].

فأمر الله بالاستمرار على الدين الذي شرعه من الحنيفية ملة إبراهيم التي فيها الهداية وغاية الكمال، وهي في الحقيقة ملازمة للفطرة السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه سبحانه فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره»[٢].

و «الرب» هو المربي الخالق الرازق الناصر الهادي، وهذا الإسم أحق بإسم الاستعانة والمسألة، ولهذا يقال: ﴿رب اغفر لي ولوالدي﴾، ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾، ﴿رب ظلمت نفسي فاغفر لي﴾[٣]...

وهو يتضمن خلق العبد ومبتداه، وهو أنه يربه ويتولاه.

ثالثاً العليـم

(من أسماء الله عز وجل الدالة على ربوبيته «العليم»)

ومعنى «عليم» أي عالم، وروي عن ابن أنه كان يقول: «هو الذي قد كمل في علمه[٤] الذي لم يخف عليه شيء مما خلق ومما لم يخلق علم نفسه وغيره من معدوم وموجود على العموم والشمول»[٥].

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢/٩٧، جنائز باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، وص ١٠٤ باب ما قيل في ولادة ابن مسلم ٤/٢٠٤٧، القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة كما أخرجه أبو داود والترمذي ومالك.

(٢) انظر ابن كثير ٣/٦٨٨.

(٣) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ١٤/١٣.

(٤) جامع البيان عن تأويل القرآن ١/١٩٥.

(٥) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي ١٣/٣٦.

وقـد ورد هذا الإسم في السـورة في ثلاثة مواضع هي: قوله سبحانه وتعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٥].

وقوله سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

وقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

وكما تقدم[١] أن أسماء الله تدل على صفاته جل وعلا، فإسم العليم يدل على صفة العلم لله جل وعلا، وإذا تدبر القارىء السورة وجدها تدل على علمه سبحانه بما فيها من أخبار الماضين وحال المؤمنين ونعيمهم ـ وبؤس الكافرين وشقائهم، مما يطول ذكره مما فصله في مواضعه.

وقد وردت هذه الصفة لربنا جل وعلا في سبع مواضع في السورة. الأولى: قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٣].

الثانية: قوله سبحانه: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ١١].

فهاتان الآيتان قد يتوهم أنهما تنفيان علم الله تعالى الله عن ذلك، فإذا عرف معناهما وبيان سلف الأمة لهما زال الإشكال بإذن الله عزّ وجلّ.

«فالله عزّ وجل عالم بذلك منهم قبل الاختبار، وفي حال الاختبار وبعد الاختبار، ولكن معنى ذلك: وليظهرن الله الصادق منهم في قوله آمنا بالله من كذب الكاذب منهم بابتلائه إياه بعدوه ليعلم صدقه من كذبه أولياؤه»[٢].

قال البخاري: «فليعلمن الله علم الله ذلك إنما هي بمنزلة فليميزن الله كقوله

(١) تقدم في ص: ٤٥.

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن ١٢٩/٢٠، والضمير في أولياءه يرجع إلى الله عز وجل، أو لمفتون فيبتعدون عنه إذا كان كاذباً، ويعينونه إذا كان صادقاً، والأول أرجح، انظر الطبري ١٣/٢.

ليميز الله الخبيث»[1].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة».

وبهذا يقول ابن عباس وغيره في مثل قوله: «إلا لنعلم» إلا لنرى[2]، والأول لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود والعلم أعم من الرؤية، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود[3].

وفي قوله «فليعلمن» قراءتان، الأولى: بفتح الياء واللام أي ليظهرن الله الصادق من الكاذب في قولهم، ويميز بينهم.

الثانية: ضم الياء وكسر اللام «ليعلمن» والمعنى أي يعلم الطائفتين في الآخرة بمنازلهم، أو يعلم الناس بصدق ويفضح الكاذبين بكذبهم، أو يضع لكل طائفة علامة تشتهر بها، وتتميز عن غيرها[4].

وقيل في معنى «لنعلم» أي العلم الذي يتعلق به الثواب والعقاب، فإنه لا يتعلق بما هو عالم به في الغيب، إنما يتعلق بما يوجد، معناه لنعلم العلم الذي يستحق العامل عليه الثواب والعقاب[5].

قال الشنقيطي[6] عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الغنكبوت ٦/ ١٩.

(٢) وضعف ابن جرير ذلك وقال أن العرب لم تقل به، ولم يوجد في كلامهما علمت بمعنى رأيت وإنما الموجود العكس. تفسير الطبري ٢/ ١٤.

ولذلك لم أقف على قول ابن عباس هذا الذي حكاه ابن كثير، وحكاه القرطبي في تفسيره عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكذلك ابن الجوزي في زاد المسير ١/ ١٥٥، القرطبي ٢/ ١٥٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٦٤٤.

(٤) انظر الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٣٢٦، وفتح القدير ٤/ ١٩٣، والقراء الثانية لعلي بن أبي طالب وجعفر بن محمد، زاد المسير ٦/ ٢٥٥، وانظر الدر المنثور ٥/ ١٤١.

(٥) تفسير البغوي معالم التنزيل ١/ ١٢٣، وانظر أضواء البيان ١/ ٨٨.

(٦) هو: العالم المعروف محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الجكني الشنقيطي، ولد سنة ١٣٢٥ هـ في موريتانيا، وتعلم فيها، وقدم للحج عام ١٣٦٧ هـ وأقام بالمدينة، ودرّس في المسجد النبوي، ثم في الرياض عام ١٣٧١ هـ، ورجع إلى المدينة عام ١٣٨١ هـ، ودرّس في الجامعة الإسلامية إلى أن توفي بمكة عام ١٣٩٣ هـ، له مؤلفات عدة منها: أضواء البيان، ومنهج دراسات =

لِتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣].

قال: «ظاهر هذه الآية قد يتوهم منه الجاهل أنه تعالى يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، بل هو تعالى عالم بكل ما سيكون قبل أن يكون، وقد بين أنه لا يستفيد بالاختبار علماً لم يكن يعلمه بقوله جل وعلا: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فقوله: ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ بعد قوله (ليبتلى) دليل قاطع على أنه لم يستفد بالاختبار شيئاً لم يكن عالماً به سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، لأن العليم بذات الصدور غني عن الاختبار، وفي هذه الآية بيان عظيم لجميع الآيات التي يذكر الله فيها اختباره لخلقه[1].

والآية الثالثة في إثبات صفة علم الله هي قوله سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: ٨].

فقوله سبحانه «أنبئكم» أي أخبركم، والخبر لا يكون إلا عن علم، فإذا علم حالكم فكما أخبر سبحانه فيجازيكم بما تستحقون»[2].

كما أن فيها إثبات علم الله بما هو كائن حيث أخبر أننا راجعون إليه سبحانه.

= لآيات الأسماء والصفات، ومنع جواز المجاز، رحلة خروجه من بلاده إلى المدينة، وغيره. انظر مشاهير علماء نجد ص ٥١٧، الأعلام للزركلي ٦/ ٤٥.

(١) أضواء البيان ١/ ٨٧.

(٢) انظر جامع البيان عن تأويل القرآن ٢٠/ ١٣١.

الآية الرابعة قوله.سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

وهذا تأكيد لعلمه سبحانه ورد على المنافقين الذين يظنون أنهم يخدعونه، إذ كيف يخادع من كان لا يخفى عليه خافية، ولا يستتر عنه سر ولا علانية[1]، فهو أعلم بما في صدورهم منهم بأنفسهم، حيث أخبر بهذا الفريق الذي حاله كما وصف لكم فتعرفون بذلك كمال علمه وسعة حكمته[2].

الآية الخامسة هي قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٢].

فهو سبحانه يعلم ما هم عليه من الأعمال ويعلم ما يشركون به من الأنداد وسيجزيهم وصفهم أنه حكيم عليم.

الآية السادسة قوله سبحانه: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

الآية السابعة قوله سبحانه: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

والآية وردت في سياق مجادلة الرسول للمشركين فكأنه يقول لهم: «فإن وقع في قلوبكم أن شهادته وأنتم لم تسمعوه ولم تروه لا تكفي دليلاً فإنه يعلم ما في السموات والأرض ومن جملة معلوماته حالي وحالكم ومقالي لكم فلو كنت منقولاً عليه مع علمه بذلك وقدرته على عقوبتي لكان قد حافى علمه وقدرته وحكمته»[3].

فهذه الآيات وغيرها في القرآن كثيرة دالة على إثبات صفة العلم لله عز

(١) انظر جامع البيان عن تأويل القرآن ٢٠/ ١٣٢.
(٢) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٦/ ٧١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٦/ ١٠٠.

وجل، وقد دلت سنة المصطفى ﷺ على إثبات هذه الصفة مما لا يدع مجالاً للشك فمن ذلك ما ورد عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»[1].

وأهل السنة والجماعة متفقون على إثبات العلم لله عز وجل.

قال ابن القيم[2]:

«قالوا عليم وهو ذو علم يعلم غاية الأسرار والإعلان».

وقال الدارمي[3] رحمه الله: «واعلموا أن الله عز وجل لم يزل عالماً بالخلق وأعمالهم قبل أن يخلقهم ولا يزال بهم عالماً لم يزدد في علمه بكينونة الخلق خردلة واحدة، ولا أقل منها ولا أكثر، ولكن خلق الخلق على ما كان في نفسه قبل أن يخلقهم ومن عنده بدأ العلم»[4]، وساق على ذلك الأدلة والآيات الكثيرة والأحاديث، وقصده رحمه الله الرد على القدرية الذين ينكرون علم الله حيث حذر منهم فقال: فاحذروا هؤلاء القوم على أنفسكم وأهليكم وأولادكم أن يفتنوكم أو يكفروا صدوركم بالمغاليط والأضاليل التي تشتبه على جهالكم... الخ»[5].

وقال ابن القيم في معرض إيراده الحجج على أهل التأويل قال: ومن ذلك احتجاجه سبحانه على إثبات علمه بالجزئيات كلها بأحسن دليل وأوضحه وأصحه

---

(١) صحيح البخاري ٨/ ١٦٥ كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحد﴾ واللفظ له، وفي لفظ آخر في كتاب التفسير باب «وعنده مفاتح الغيب» ٥/ ١٩٣، و ٢١٩. مسند الإمام أحمد: ٢/ ٢٤ ـ ٥٢ ـ ٥٨ ـ ٨٥، وكلها عن ابن عمر، وفي صحيح مسلم جزء من حديث جبريل المشهور ١/ ٣٩ ـ ٤٠ كتاب الإيمان.

(٢) تقدمت ترجمته في ص ٤٢ والبيت من نونيته.

(٣) هو: عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد، الحافظ الناقد، ولد قبل المئتين بيسير، سمع أبا اليمان، ويحيى الوحاظي، وسعيد بن أبي مريم، ونعيم بن حماد، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين وغيرهم، وحدث عنه أبو عمرو الحيري، ومحمد بن إبراهيم الصرام، ومؤمل بن الحسين، ومحمد بن يوسف الهروي وغيرهم، ت سنة ٢٨٠ هـ. الجرح والتعديل ٦/ ١٥٣، البداية والنهاية ١١/ ٦٩، سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣١٩.

(٤) الرد على الجهمية للدارمي ص ٦٩.

(٥) الرد على الجهمية ص ٧١.

حيث يقول: ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الملك: ١٣].

ثم قرر علمه بذلك بقوله: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك: ١٤]. وهذا من أبلغ التقرير، فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه والصانع يعلم مصنوعه، وإذا كنتم مقرين بأنه خالقكم وخالق صدوركم، وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه وهذا التقرير مما يصعب على القدرية فهمه فإنه لم يخلق عندهم ما في الصدور فلم يكن في الآية على أصولهم دليل على علمه بهذا، ولهذا طرد غلاة القوم ذلك ونفوا علمه فأكفرهم السلف قاطبة[1]، وخصموهم بالعلم كما قال عمر بن عبدالعزيز: «من أقرّ بالعلم فقد خصم»[2].

قال الدارمي[3]: «فيقال لمن رد ما ذكرنا من كتاب الله وهذه الأخبار ولم يقر لله بعلم سابق، أرأيت الله يعلم أن الساعة آتية، فإن قال لا، فقد فارق قوله وكفر بما أنزل على نبيه ﷺ وكذب بالبعث، وأخبرك أنه نفسه لا يؤمن بقيام الساة، وإن قال يعلم الله أن الساعة آتية، فقد أقرّ بكل العلم شاء أو أبى»[4].

والإيمان بهذه الصفة يجعل المؤمن حذراً فلا يعمل إلا ما يرضي ربه ولا يكن في صدره إلا الإخلاص لربه، ويكون ظاهره مثل باطنه لإيمانه بأن الله عالماً بهما جميعاً، فهم يعلم ما توسوس به الأنفس وأخفى، وأنه محاسبه على كل ما يعمل، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٨].

ودلالة العلم على الربوبية أن الله عز وجل ربانا بالنعم التي فيها مصالحنا الدينية والدنيوية، سواء في ذلك التربية العامة أو الخاصة، وهذا لا يكون إلا عن علمه سبحانه فعلمه المحيط بكل شيء والذي سبق تربيته لنا يوجب ربوبيته وحده لا شريك له في الخلق والرزق والإحياء والإماتة، وغيرها.

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ٢/ ٤٩١.

(٢) الرد على الجهمية ص ٧٥.

(٣) تقدمت ترجمته في ص ٦٠.

(٤) الرد على الجهمية ٨٢.

رابعاً: القدير

(من أسماء الله عز وجل الدالة على ربوبيته «القدير»)

وقد ورد مرة واحدة في السورة وهي قوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠ ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

ومعنى قدير: قادر[١]، ولكنه أبلغ في الوصف منه[٢]، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، «والقدير هو الفاعل لما يشاء على قدر ما تقتضي الحكمة لا زائداً عليه ولا ناقصاً عنه، ولذلك لا يصح أن يوصف به إلا الله تعالى»[٣].

فالقادر: هو من القدرة على الشيء، يقال: قدر يقدر قدرة فهو قادر، وقدير، كقوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢٧ ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

(ومنه) المقتدر، وهو تام القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء ولا يحتجز عنه بمنعة وقوة[٤]، ووزنه مفتعل من القدرة إلا أن الاقتدار أبلغ وأعم لأنه يقتضي الإطلاق».

قال تعالى: ﴿ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ۝٥٥ ﴾ [القمر: ٥٥].

خامساً: القدرة

والله سبحانه وصف نفسه بالقدرة «وهي صفة ذاتية قائمة بذاته»[٥] جل وعلا.

فهو قادر على كل شيء لا يعترضه عجز ولا فتور، ولا يفوته مطلوب.

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن ١/ ١٦٠.
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١/ ٢٢٤.
(٣) المفردات في غريب القرآن ٣٩٤.
(٤) انظر شأن الدعاء للخطابي ٨٥.
(٥) انظر الاعتقاد للبيهقي ١٨.

قال الراغب[1]: «القدرة إذا وصف بها الإنسان فإسم لهيئة له بها يتمكن من فعل شيء ما، وإذا وصف الله تعالى بها فهي نفي العجز عنه، ومحال أن يوصف غير الله بالقدرة المطلقة معنى، وإن أطلق عليه لفظاً بل حقه أن يقال قادر على كذا ومتى قيل هو قادر فعلى سبيل معنى التقييد، ولهذا لا أحد غير الله يوصف بالقدرة من وجه إلا ويصح أن يوصف بالعجز من وجه، والله تعالى هو الذي ينتفى عنه العجز من كل وجه[2]، والقرآن كله دال على قدرة الله جل وعلا، ومما ورد في سورة العنكبوت من ذلك قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤].

فهذا نفي لعجزه سبحانه ممن يتوهم ذلك فيكفر به ويظن أنه يعجز الله وهو من أضعف مخلوقاته.

«فهذا حكم جائزاً لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته»[3].

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢٢].

فالله سبحانه لا يعجزه أحد من أهل سمواته وأرضه بل هو القاهر فوق عباده، فكل شيء خائف منه فقير إليه وهو الغني عما سواه»[4].

كما أن من الآيات الدالة على قدرته سبحانه ما قصّه الله علينا من قصص الأولين وإنجائه المؤمنين وإهلاكه المعاندين، فمثلاً قوله سبحانه عن إبراهيم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت: ٢٤].

---

(١) هو أبو القاسم حسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصبهاني، من أذكياء المتكلمين، له مؤلفات كثيرة منها: الذريعة إلى مكارم الشريعة، والمفردات، وتفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، اختلف في وفاته، فقيل نيف وخمس مئة، وقيل ٥٠٢، وقيل ٤٠٣، وقيل ٤٥٢ هـ. انظر سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٢٠، كشف الظنون ١/ ٣٦، الأعلام ٢/ ٢٥٥.

(٢) المفردات في غريب القرآن ٤٩٤ ـ كتاب القاف ـ.

(٣) فتح القدير ٤/ ١٩٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٦٥١.

فإنجاءه من النار «فيها آيات بينات» أي دلالات واضحة وعلامات ظاهرة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه، حيث أضرموا تلك النار العظيمة وألقوه فيها ولم تحرقه ولا أثرت فيه «ففي ذلك دلالات متعددة على قدرته تعالى: منها تحويل النار إلى برد وسلام، ومنها عجز المشركين أن يلحقوا بإبراهيم ضرراً حينما حماه الله سبحانه، ومنها إصرارهم على الكفر مع وجود تلك المعجزات، لذلك خصّ الله المؤمنين بالانتفاع بتلك الآيات»[1].

كذلك من الأدلة على قدرته سبحانه وتعالى في السورة نجاة لوط وهلاك قومه قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت: ٣٢].

ومما دلل الله عز وجل به على قدرته سبحانه بيان ضعف مخلوقاته التي تعبد من دونه، وأنه لا حيل لها ولا قوة بدونه كما قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١].

فكل ما يعبد من دون الله لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فكيف يملك ذلك لغيره.

والإيمان بقدرة الله عز وجل هو أصل الإيمان بربوبية الله تعالى العامة التامة، فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء»[2].

ولذلك فإن مخلوقاته دالة على ربوبيته، كما أنها دالة على قدرته سبحانه، قال تعالى: ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤٤].

ففي خلقها دلالة عظيمة على قدرته سبحانه، كما دلل سبحانه على قدرته بالإعادة والحشر بعد الخلق لمن نظر وتأمل في مخلوقاته، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا

---

(١) انظر التفسير الوسيط ١١/ ٣٠.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ١٤٣.

﴿فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠].

وقد دلت الأحاديث الصحيحة على إثبات قدرة الله عز وجل: لا شك فيه ولا مراء، وهي كثيرة جداً، منها حديث الاستخارة[(١)]، وما ورد عن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه، أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»[(٢)] وغيرهما كثير.

قال ابن تيمية: «واتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير، كما نطق بذلك القرآن في مواضع كثيرة جداً»[(٣)].

وما تقدم من النصوص رد على نفاة القدرة من «المعتزلة[(٤)] والإمامية[(٥)]

---

(١) وفيه إثبات صفة العلم، وأشرت إليه لشهرته، ولمن أراد الوقوف عليه فليرجع إلى صحيح البخاري ٢/٥١، التهجد باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى ٢٥، وفي الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة ٧/١٦٢، وفي التوحيد باب قوله تعالى ﴿قل هو القادر﴾ ٨/١٦٨، وسنن الترمذي أبواب الوتر، باب صلاة الاستخارة، وسنن ابن ماجة ١/٤٤٠ إقامة الصلاة، صلاة الاستخارة ١٨٨، حديث (١٣٨٣) ومسند أحمد ٣/٣٤٤.

(٢) صحيح مسلم ٤/١٧٢٨، كتاب السلام، باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء ٢٤ حديث ٢٢٠٢ واللفظ له.

وانظر سنن أبي داود ٤/٢١٧، كتاب الطب باب كيف الرقي ١٩، ج ٣٨٩١.

وسنن الترمذي ٤/٤٠٨، كتاب الطب باب ٢٩، وقال: حديث حسن صحيح.

وسنن ابن ماجه ٢/١١٦٤، كتاب الطب، باب ٣٦.

وموطأ الإمام مالك ٢/٩٤٣، كتاب العين، باب ٤.

ومسند الإمام أحمد ٤/٢١٧، كل هذه بألفاظ متقاربة، غالبها عن عثمان بن أبي العاص إلا واحد، فعن ثابت البناني، عن أنس بن مالك الترمذي، الدعوات ٥/٥٧٤، ج ١٢٦٠.

وفي المسند الرواية الثانية عن كعب بن مالك عن أبيه ٦/٣٩٠.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨/٧.

(٤) المعتزلة ورأسهم، عمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء الغزال، سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصري رحمه الله سنة ١١٠، وكانوا يجلسون معتزلين ويسمون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية، لهم أصول خمسة هي: العدل ـ والتوحيد ـ وإنفاذ الوعيد ـ والمنزلة بين المنزلتين ـ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لبسوا فيها الحق بالباطل.

انظر شرح الطحاوية ص ٥٨٨، والملل والنحل للشهرستاني ١/٤٣.

(٥) الإمامية: هم القائلون بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي ﷺ نصاً ثم نسله من بعده، وتخطت ذلك =

والجهمية[1] والكلابية[2]، الذين قالوا: أنه قادر على كل المقدورات، يريدون بذلك أنه قادر على كل ما هو مقدور له، وأما نفس أفعال العباد من الملائكة والجن والأنس، فإن الله لا يقدر عليهما عند القدرية، وإنما تنازعوا هل يقدر على مثلها»[3].

وقد رد سلف الأمة على هؤلاء وبينوا سوء مذهبهم في كتبهم، من ذلك «خلق أفعال العباد للبخاري»، وابن تيمية في مؤلفاته، وكذلك ابن القيم وغيرهم.

والله عز وجل جعل للعبد قدرة خاصة به فإذا قدر على شيء فإنه لا يفعله إلا إذا كان مما يرضي الله عز وجل، وإلا فإن الذي قدره على فعل ذلك أقدر منه سبحانه وتعالى مصداق ذلك ما ورد عن أبي مسعود البدري قال: «كنت أضرب غلاماً لي، فسمعت من خلفي صوتاً أعلم أبا مسعود: لله أقدر عليك منك عليه، فالتفت فإذا هو رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله، فقال: أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمستك النار»[4].

= إلى الوقيعة في كبار الصحابة، واختلفوا في تعيين الأئمة بعد الحسن والحسين، وهم فرق متعددة منها: القطيعية، والكيسانية، والكرامية.

الملل والنحل للشهرستاني ١/ ١٦٢، مقالات الإسلاميين ١/ ٨٨.

(١) هم أصحاب الجهم بن صفوان، وهم من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله مسلم بن أحوز في آخر ملك بني أمية، وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية، وزاد عليهم بأشياء، الملل والنحل ١/ ٨٦.

أخذ مذهبه من الجعد بن درهم، جلس أربعين يوماً لا يصلي شاكاً في ربه، ويقول بفناء الجنة والنار، والإيمان هو المعرفة، والكفر هو الجهل. شرح الطحاوية ص ٥٩١.

(٢) الكلابية هم أتباع أبي محمد عبدالله بن سعيد بن محمد بن كلاب القطان البصري أحد المتكلمين أيام المأمون، ت ٢٤٠ هـ، الفهرست لابن النديم ٢٥٥، لسان الميزان ٣/ ٢٩٠، الفصل لابن حزم ٢/ ١٢٣، ٤/ ٢٠٨.

(٣) منهاج السنة النبوية ٢/ ٢٩١، وانظر جامع الرسائل المجموعة الثانية ٢٩.

(٤) صحيح مسلم ٣/ ١٢٨١، كتاب الأيمان، باب صحبة المماليك ٨، واللفظ له. مسند أحمد ٤/ ١٢٠، سنن أبي داود ٥/ ٣٦١، كتاب الأدب باب في حق المملوك، سنن الترمذي ٤/ ٣٣٥، كتاب البر والصلة، باب النهي عن ضرب الخدم.

سادساً: المشيئـــة

وقد أثبت الله عز وجل لنفسه المشيئة في القرآن الكريم، فقد قال سبحانه في هذه السورة: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٣٠].

فأخبر أنا لا نشاء شيئاً إلا أن يكون الله قد شاء[١].

وعن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان»[٢].

وقال الشافعي رضي الله عنه: المشيئة إرادة الله عز وجل، قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٣٠].

فأعلم الله خلقه أن المشيئة له دون خلقه وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء[٣].

وهو سبحانه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فما شاءه وجب كونه، وهو يجب بمشيئة الرب وقدرته، وما لم يشأه امتنع كونه مع قدرته عليه كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

فكون الشيء واجب الوقوع لكونه قد سبق به القضاء وعلم أنه لا بد من كونه لا يمتنع أن يكون واقعاً بمشيئته وقدرته وإرادته، وإن كانت من لوازم ذاته كحياته وعلمه، فإن إرادته للمستقبلات هي مسبوقة بإرادته للماضي: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ

---

(١) الاعتقاد ٦٨.

(٢) الحديث أورده البخاري ترجمة في الباب الثامن من كتاب الإيمان ٧/ ٢٢٣. وفي مسند الإمام أحمد ٥/ ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٨، كلها عن حذيفة رضي الله عنه وفي سنن أبي داود ٥/ ٢٥٩، كتاب الأدب باب ٨٤ حديث ٤٩٨٠ وفي سنن ابن ماجة ٢/ ٦٨٤ كتاب الكفارات باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت ١٣، حديث ٢١١٧.

وفي سنن الدارمي ٢/ ٢٠٥، كتاب الاستئذان باب ٦٣، حديث ٢٧٠٢.

(٣) الاعتقاد ٦٩.

﴿شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]. وهو إنما أراد هذا الثاني بعد أن أراد قبله ما يقتضي إرادته فكان حصول الإرادة اللاحقة بالإرادة السابقة[1].

وذكر ابن القيم أن المشيئة هي المرتبة الثالثة من مراتب القضاء والقدر، وقال: وهذه المرتبة دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم وجميع الكتب المنزلة من عند الله والفطرة التي فطر الله عليها خلقه وأدلة العقول والعيان، وليس في الوجود موجب ومقتضى إلا مشيئة الله وحده فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، هذا عموم التوحيد الذي لا يقوم إلا به، والمسلمون من أولهم إلى آخرهم مجمعون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وخالفهم في ذلك من ليس منهم في هذا الموضوع، وإن كان منهم في موضع آخر فجوزوا أن يكون في الوجود ما لا يشاء الله وأن يشاء ما لا يكون، وخالف الرسل كلهم وأتباعهم من نفى مشيئة الله بالكلية ولم يثبت له سبحانه مشيئة واختياراً أوجد بها الخلق كما يقوله طوائف من أعداء الرسل من الفلاسفة وأتباعهم والقرآن السنة مملوآن بتكذيب الطائفتين»[2]، ثم ساق آيات كثيرة من القرآن تدل على ذلك.

سابعاً: السميع
(من أسماء الله «السميع»)

وهذا الإسم من أسمائه سبحانه وتعالى، وهو يدل على كماله جل وعلا، لأن السميع لا بد له من سمع.

صفة السمع: قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾﴾ [العنكبوت: ٥]. والسميع بمعنى السامع إلا أنه أبلغ في الصفة وبناء فعيل بناء المبالغة كقولهم عليم من عالم وقدير من قادر، وهو الذي يسمع السر والنجوى سواء عنده الجهر، والخفوت والنطق والسكوت، وقد يكون السماع بمعنى القبول والإجابة، كقول النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع»[3]، أي من دعاء لا يستجاب، ومن هذا قول المصلي: (سمع الله لمن

---

(١) جامع الرسائل والمسائل لابن تيمية، المجموعة الثانية ٣٨.

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ٤٣.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥/٥١٩، وهو بتمامه: (اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ودعاء لا =

حمده)، معناه: قبل الله حمد من حمده»[1].

وقد ورد هذا الإسم في السورة مرتين، هما الآية المتقدمة، وقوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت: ٦٠].

فالسميع من له سمع يدرك به المسموعات، والسمع صفة قائمة بذاته[2]. ففي هاتين الآيتين قرن الله عز وجل السمع بالعلم، وقد نقد الكلام على صفة العلم، وأما السمع فهو ثابت في الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، فمن ذلك ما تقدم من الآيات، وقوله سبحانه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١].

«وأخبر أنه يسمع تحاورهما حين كانت تجادل وتشتكي إلى الله»[3].

وقد ثبت عن المصطفى ﷺ أنه قال: «إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا ولك الحمد يسمع الله لكم»[4].

«فجعل سمعه لنا جزءاً وجواباً للحمد فيكون ذلك بعد الحمد، والسمع يتضمن مع سمع القول قبوله وإجابته»[5] والعقل الصريح يدل على ذلك فإن المعدوم لا يرى ولا يسمع بصريح العقل واتفاق العقلاء... فإذا خلق العباد وعملوا وقالوا فأما أنه يرى أعمالهم ويسمع أقوالهم، وأما لا يرى ولا يسمع، فإن نفى ذلك تعطيل لهاتين الصفتين وتكذيب للقرآن، وهما صفتا كمال لا نقص فيه،

= يسمع ومن نفس لا تشبع، ومن علم لا ينفع، أعوذ بك من هؤلاء الأربع)، وقال: هذا حديث حسن صحيح. كتاب الدعوات، باب ٦٩، والنسائي في سننه ٨/٢٥٥ بلفظ آخر في كتاب الاستعاذة، وكذلك ابن ماجة في سننه ١/٩٢، مقدمة باب الانتفاع بالعلم والعمل، انظر تخريج إحياء علوم الدين ٢/٨٠٠، ٨٠٥، حديث رقم ١٠٢٥ ـ ١٠٣٤.

(١) شأن الدعاء ٥٩.

(٢) الاعتقاد للبيهقي ١٦.

(٣) جامع الرسائل لابن تيمية ٢/١٦.

(٤) الحديث أخرجه مسلم ١/٣٠٣، كتاب الصلاة باب التشهد، وهو جزء من حديث طويل فيه صفة الصلاة عن أبي موسى الأشعري، والنسائي، كتاب الإمامة، باب قوله ربنا ولك الحد (٢/١٩٦، ١٩٧)، وكتاب التطبيق، باب نوع آخر من التشهد ٢/٢٤١.

(٥) جامع الرسائل ٢/١٦، المجموعة الثانية ١٦ لابن تيمية.

فمن يسمع ويبصر أكمل ممن لا يسمع ولا يبصر.

والمخلوق يتصف بأنه يسمع ويبصر فيمتنع اتصاف المخلوق بصفات الكمال دون الخالق سبحانه وتعالى، وقد عاب الله تعالى من يعبد ممن لا يسمع ولا يبصر في غير موضع، ولأنه حي والحي إذا لم يتصف بالسمع والبصر اتصف بضد ذلك وهو العمى والصم، وذلك ممتنع[1].

وقد روى أبي موسى رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فكنا إذا علونا كبرنا، فقال: أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، تدعون سميعاً بصيراً قريباً، ثم أتى عليّ وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال لي يا عبد الله بن قيسي قل: لا حول ولا قوة إلا بالله، فأنها كنز من كنوز الجنة، أو قال ألا أدلك به»[2].

ومن ذلك حديث إطباق الأخشبين حيث قال ملك الجبال: «أن الله قد سمع قول قومك له» الحديث[3].

ومن أسمائه تعالى السميع ومعناه الذي لا يعزب عن سمعه مسموع وأن خفي فيسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء فأحاط سمعه بجميع المسموعات سرها وعلنها قريبها وبعيدها، فلا تختلط عليه الأصوات على اختلاف اللغات وعلى تفنن الحاجات وكأنها لديه صوت واحد[4].

والله عز وجل كما وصف نفسه أنه سميع فمن كان معبوده غير سميع فهو كافر بالله السميع البصير، ومن تدبر خطاب إبراهيم لأبيه وتوبيخه إياه لعبادته من لا يسمع ولا يبصر، علم أن الله عز وجل يسمع يوبصر، قال الله عز وجل: ﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ أليس من المحال أن يعيبه على عبادة من لا يسمع ولا يبصر ثم يدعوه إلى عبادة من لا يسمع ولا يبصر كالأصنام التي

---

(١) جامع الرسائل لابن تيمية ٢/ ١٧.

(٢) صحيح البخاري ٨/ ١٦٧ ـ ١٦٨، كتاب التوحيد، باب: وكان الله سميعاً بصيراً ٩، واللفظ له، وكتاب المغازي، ٥/ ٧٥ باب ٣٧، غزوات ذات قرد، والقدر: ٧/ ٢١٣، باب ٧، لا حول ولا قوة إلا بالله، وصحيح مسلم ٤/ ٢٠٧٦، كتاب الذكر باب: استحباب خفض الصوت بالذكر ١٣.

(٣) جزء من حديث ذكره البخاري في صحيحه كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ٤/ ٨٣، وسيأتي ذكره في ص. ٢٩٩.

(٤) الكواشف الحلية عن معاني الواسطية ١٥٢.

هي من الموتان لا من الحيوان أيضاً، فكيف يكون ربنا الخالق الباري السميع البصير كما يصفه هؤلاء الجهال المعطلة عز ربنا وجل عن أن يكون غير سميع ولا بصير، وقد أعلمنا أن من لا يسمع ولا يعقل فهو كالأنعام بل أضل سبيلاً[1]، فقال: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: ٤٤].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١] إلى آخر الآية[2].

وعندما سئل ابن عمر عن بيع الخمر قال: «لا وسمع الله عز وجل لا يحل بيعها ولا ابتياعها»[3].

فحلف بسمع الله عز وجل.

وقد بوّب البخاري في صحيحه باب «وكان الله سميعاً بصيراً» وساق حديث عائشة في المجادلة، وحديث أبي موسى (أربعوا على أنفسكم) وغيرهما فقال ابن بطال[4] غرض البخاري في هذا الباب الرد على من قال أن معنى «سميع بصير» عليم ـ قال: ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلم أن السماء خضراء ولا يرها، والأصم الذي يعلم أن في الناس أصواتاً ولا يسمعها، ولا شك أن من

---

(١) انظر التوحيد وصفات الرب لابن خزيمة ١/١٠٩.

(٢) ذكره البخاري تعليقاً ومختصراً ٨/١٦٧، كتاب التوحيد، باب وكان الله سميعاً بصيراً، مسند الإمام أحمد ٦/٤٦، واللفظ له.

سنن النسائي ٦/١٦٨، كتاب الطلاب باب الظهار.

وسنن ابن ماجة: ١/٦٧ ـ المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية ١٣، حديث رقم ٨٨.

(٣) الأسماء والصفات للبيهقي ص ٢٣٢.

(٤) هو: العلامة أبو الحسن علي بن خلف بن بطال البكري يعرف بابن اللجام، أخذ عن أبي عمر الطلمنكي وابن عفيف وابن المطرف القنازعي ويونس بن مغيث، قال ابن بشكوال: كان من أهل العلم والمعرفة، شرح صحيح البخاري، وله كتاب (الاعتصام) وكتاب في الزهد والرقائق، ت في صفر سنة ٤٤٩ هـ.

سير أعلام النبلاء ١٨/٤٧.

سمع وأبصر أدخل في صفة الكمال ممن انفرد بأحدهما دون الآخر فصح أن كونه سميعاً بصيراً يفيد قدراً زائداً على كونه عليماً، وكونه سميعاً بصيراً يتضمن أنه يسمع بسمع ويبصر ببصر، كما تضمن كونه عليماً أنه يعلم بعلم ولا فرق بين إثبات كونه سميعاً بصيراً يتضمن أنه ذا سمع وبصر، قال: وهذا قول أهل السنة قاطبة»[1].

ومن آمن بسمع الله عز وجل فإنه لا يتكلم إلا بما يرضي الله جل وعلا لأنه سامع له محاسبه على ما تلفظ به، كما أن المؤمن يلح على الله في الدعاء، إذا علم أنه يسمع فإن من يسمع يجيب، كما تقدم أن من معاني السمع الإجابة.

فإذا استشعر المؤمن ذلك فإنه مما يكون سبباً في سعادته في الدنيا والآخرة لأنه يراقب الله فيما يقول فإذا تخلى عن ذلك فإنه يكون سبب هلاكه لأن اللسان مزلة الإنسان، كما قال ﷺ لمعاذ: «ثكلتك أمك، وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم»[2] الحديث.

ثامناً: الرحمن الرحيم

ومما دلل به سبحانه على ربوبيته في هذه السورة إثبات رحمته، والرحمة مشتقة من الرحمن فمن أسمائه جل وعلا الرحمن الرحيم، وهما إسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، والرحمن يختص بالله سبحانه وتعالى ولا يجوز إطلاقه في غيره، وهو الذي رحم كافة خلقه بأن خلقهم وأوسع عليهم في رزقهم[3] و «الرحمن» يجمع كل معاني الرحمة من الرأفة والشفقة والحنان واللطف والعطف»[4].

والله هو الرحمن أي ذو الرحمة الواسعة التي وسعت الخلق في أرزاقهم

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٣٧٣.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٣٦، في مواضع آخر مطولاً كما في ٥/ ٢٣٠، ٢٣٧، سنن الترمذي ٥/ ١٢، كتاب الأيمان باب ما جاء في حرمة الصلاة ٨، حديث ٢٦١٦، وقال حديث حسن صحيح، سنن ابن ماجه ٢/ ١٣١٤، كتاب الفتن باب كف اللسان في الفتنة ١٢، حديث ٣٩٧٣.

(٣) شرح أسماء الله الحسنى للزجاج ص ٢٨.

(٤) كتاب التوحيد لابن منده ٢/ ٤٧، وانظر جامع البيان عن تأويل القرآن ١/ ٥٧.

وأسباب معاشهم ومصالحهم وعمت المؤمن والكافر والصالح والطالح[١].

وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ عز وجل: «أنا الرحمن خلقت الرحم، وشققت لها من إسمي فمن يصلها أصله، ومن يقطعها أقطعه فأبته، أو قال: من يبتها أبته»[٢].

قال ابن بطال[٣] عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

قال: الرحمة تنقسم إلى صفة ذات وصفة فعل، وهنا يحتمل أن تكون صفة ذات فيكون معناها إرادة ءثابة الطائعين، ويحتمل أن تكون صفة فعل فيكون معناها أن فضل الله بسوق السحاب وإنزال المطر قريب من المحسنين فكان ذلك رحمة لهم لكونه بقدرته وإرادته، ونحو تسمية الجنة رحمة لكونها فعلاً من أفعاله حادث بقدرته»[٤] أهـ.

وقد أثبت الله لنفسه الرحمة في عدة آيات في هذه السورة، فمنها ما صرح فيه بلفظ الرحمة كقوله سبحانه: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢١].

وقوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

ومنها ما دل على نفي الرحمة عن من ابتعد عن دين الله وكفر بآياته، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ

---

(١) شأن الدعاء للخطابي ٣٨، وانظر زاد المسير ٩/١.

(٢) مسند الإمام أحمد ١٩١/١ ـ ١٩٤، وعن أبي هريرة بلفظ قريب من هذا في المسند ٤٩٨/٢، سنن أبي داود ٣٢٢/٢ عن ابن عوف كتاب الزكاة باب في صلة الرحم ٤٥ حديث ١٦٩٤، وسنن الترمذي ٣١٥/٤، كتاب البر والصلة باب ما جاء في قطيعة الرحم ٩، حديث ١٩٠٧، وهو عن سليمان بن عيينة عن الزهي قال الترمذ: حديث سفيان عن الزهري حديث صحيح وصححه الألباني. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة ٣٦/٢، رقم ٥٢٠، صحيح الجامع ١١٥/٤، رقم ٤١٩٠.

(٣) تقدمت ترجمته في ص ٧١.

(٤) فتح الباري ٤٣٥/١٣.

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٣].

ومنها ما دل على الرحمة ضمناً كقوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ١٥] وهذا من رحمته بعباده المؤمنين.

وقوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت: ٦٠].

قال ابن القيم: «وأما الرحمة فهي التعلق والسبب الذي بين الله وبين عباده، فالتأليه منهم له، والربوبية منه لهم، والرحمة سبب وأصل بينه وبين عباده، بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم، وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سبب العبودية، وبينه وبينهم سبب الرحمة»[1]، أهـ. وهذا من تمام ربوبيته جل وعلا.

والإيمان برحمة الله عز وجل يديم التضرع والخضوع له والإشفاق من عذابه لأن الرحمة والعذاب بيده سبحانه كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت: ٢١].

والمؤمن حقيقة خائف من عذاب الله راجي لثوابه ورحمته محباً له سبحانه، كما أن من آثار الإيمان بها على المجتمع التراحم بينهم مما يبعث المحبة والألفة وعدم الظلم والتكبر.

تاسعاً: الرازق والرزاق
(من أسماء الله عز وجل «الرازق والرزاق»)

الرزاق: هو المتكفل بالرزق والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها»[2].

ومنه الرازق الذي يرزق عباده، قال تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [هـود: ٦].

فالله وسع الخلق كلهم رزقه، ورحمته، فلم يخص بذلك مؤمناً دون كافر،

---

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٤.

(٢) الاعتقاد للبيهقي ص ١٦.

ولا ولي دون عدو، يسوقه إلى الضعيف الذي لا حيل له، ولا مكتسب فيه، كما يسوقه إلى الجلد القوي ذي المرة السوي»[1].

والرزق فعل من أفعال الله سبحانه وتعالى، فهو من صفات فعله لأن رازقاً يقتضي مرزوقاً، والله سبحانه وتعالى كان لا مرزوق، وكل ما لم يكن ثم كان فهو محدث والله سبحانه موصوف بأنه الرزاق، وصف نفسه بذلك قبل خلق الخلق بمعنى سيرزق إذا خلق المرزوقين»[2].

وقد وردت آيات في السورة تثبت أن الرزق بيد الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وهذه الآية جاءت في معرض دعوة إبراهيم لقومه يبين أن طلب الرزق من الله لا من أحد سواه، فإن الاتكال على غير الله في طلب الرزق أو دفع ضر أو جلب نفع يعتبر شركاً بالله جل وعلا، لذلك قال: «فابتغوا عند الله الرزق»، وهذا أبلغ في الحصر كقوله سبحانه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾[3] [الفاتحة: ٥].

ومن الآيات الدالة على رزقه قوله سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

فالله عز وجل يثبت رزقه لعباده ويدلل عليه بما يشاهدون من مخلوقاته التي لا تملك ضراً ولا نفعاً، كيف الله مهيء لها رزقها، فأنتم من باب أولى فلا يكن طلب الرزق مانعاً لكم من القيام بحق الله عز وجل، وانتهاككم محارمه بطلب الرزق أو غيره.

وقد ذكر أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض خرجوا وهم بيض، فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهما أياماً حتى يسود الريش، فيظل الفرخ فاتحاً فاه يتفقد

---

(١) شأن الدعاء للخطابي ٥٤.

(٢) فتح الباري ١٣/ ٣٦٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٦٥٠.

أبويه، فيقيض الله تعالى طيراً صغاراً كالبرغش، فيغشاه فيتقوت به تلك الأيام حتى يسود ريشه، والأبوان يتفقدانه كل وقت، فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه، فإذا رأوه قد اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة والرزق، ولهذا قال الشاعر[1]:

يـا رازق النعـاب فـي عشـه وجابر العظم الكسير المهيض[2]

فالرزق من عند الله عز وجل قدره عنده سبحانه فمن الناس من يكون رزقه رغداً، ومنه من يكون ضيقاً حكمة من الله، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

فكل سيأتيه ما قدر له من الرزق، فقد ثبت عن المصطفى ﷺ أنه قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له اكتب عمله ورزقه وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح فإن الرجل منكم ليعمل حتى يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة»[3].

وكان ﷺ يقول في دبر كل صلاة مكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[4].

---

(١) قيل أن صدر هذا البيت من دعاء داود عليه السلام، انظر المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث ٣/٣١٧، وانظر لسان العرب ١/٧٦٤، باب نعب.

(٢) القصة أوردها ابن كثير في تفسير القرآن العظيم ٣/٦٦٩ - ٦٧٠.

(٣) صحيح البخاري ٤/٧٨، ١٠٣، كتاب بدء الخلق باب (٦)، وكتاب الأنبياء باب (١)، و ٨/١٨٨ كتاب التوحيد باب (٢٨).

صحيح مسلم ٤/٢٠٣٧ و ٢٠٤٥، كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي ١/٢٦٤٣، وباب ٤ حديث ٢٦٥٥، أبي داود وابن ماجه والإمام أحمد.

(٤) صحيح البخاري ١/٢٠٥، كتاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة ١٥٥، ومواضع أخرى واللفظ له، صحيح مسلم ١/٣٤٣، كتاب الصلاة باب اعتدال أركان الصلاة وتخفيفها ٣٨، وهو من الدعاء بعد الركوع وفي مواضع أخرى، وفي المسند، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، والدارمي، والموطأ.

عاشراً: الخالـق

(ومن أسماء الله الدالة على ربوبيته «الخالق»)

ومن أسماء الله عز وجل: الخالق «وهو المبدع للخلق والمخترع له على غير مثال سابق[1]، قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٣ ﴾ [فاطر: ٣] وهو من الخلق وأصله التقدير، المستقيم، ويطلق على الإبداع، وهو إيجاد الشيء على غير مثال»[2].

قال سبحانه: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٠ ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

والخلق من أكبر الأدلة على ربوبية الله عز وجل، لذلك اعترف به الكفار، فقال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٦١ ﴾[3] [العنكبوت: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٤ ﴾ [العنكبوت: ٤٤].

وإذا نظر الإنسان إلى عجائب المخلوقات ازداد إيماناً ويقيناً، فالنظر إلى بديع صنع الله في الأشياء وإلى أقرب شيء إليك، وهو نفسك كما قال سبحانه: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ ﴾ [الذاريات: ٢١].

وقد أمر الله بالنظر إلى مخلوقاته التي تدل على ربوبيته وألوهيته، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝١٩ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٠ ﴾ [العنكبوت: ١٩ ـ ٢٠].

---

(١) الاعتقاد للبيهقي ١٥.
(٢) فتح الباري ١٣/ ٣٩١.
(٣) انظر تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ٣٥.

والخلق إسم مشترك بين الله وعباده، قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فأصل الخلق في الكلام: التقدير يقال خلقت الشيء خلقاً إذا قدرته، ولكن الخلق في إسم الله تعالى، هو ابتداء تقدير الشيء، فالله تعالى خالقها ومنشئها وهو متممها ومدبرها: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

والخلق فعل من أفعال الله عز وجل قائم بذاته غير المخلوق، فإنه مفعوله، وقد خلق الخلق بمشيئته، ويمتنع قيامه بغيره، فدل على أن أفعاله قائمة بذاته مع كونها حاصلة بمشيئته وقدرته، وقد ثبت بالأدلة العقلية والسمعية أن كل ما سوى الله مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن»[١].

وهذا رد على الذين يقولون أن أفعال العباد غير مخلوقة من القدرية وغيرهم الذين ينكرون قدرة الله وعلمه.

وقد رد عليهم سلف الأمة منهم الإمام البخاري في كتابه «خلق أفعال العباد» وابن عبدالبر، والإمام أحمد في كتابه «الرد على الجهمية».

الحادي عشر: العزيز
(ومن أسماء الله عز وجل «العزيز»)

قال سبحانه: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

يقال عزه يعزه، والله تعالى هو الغالب كل شيء فهو العزيز الذي ذل لعزته

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦/٢٢٩ ـ ٢٩٨، ١٢/٤٣٦.

كل عزيز»[١]، وهو «الذي يقهر ولا يقهر»[٢].

العزيز: «القوي الذي لا يعجزه شيء أراده»[٣]، أو المنيع الذي لا ينال ولا يغالب، وقيل «العزيز» الذي لا مثل له بيانه «ليس كمثله شيء».

العزيز: هو الغالب الذي لا يغلب، والمنيع الذي لا يوصل إليه وقيل: هو القادر القوي، وقيل هو الذي لا مثل له، وهو من صفات الذات[٤].

قال ابن بطال[٥]: العزيز يتضمن العزة، والعزة يحتمل أن تكون صفة ذات بمعنى القدرة والعظمة، وأن تكون صفة فعل بمعنى القهر لمخلوقاته والغلبة لهم، ولذلك صحة إضافة اسمه إليها، قال: ويظهر الفرق بين الحالف بعزة الله التي هي صفة ذاته والحالف بعزة الله التي هي صفة فعله، فإنه يحنث في الأولى دون الثانية، بل هو منهى عن الحلف بها، كما نهى عن الحلف بحق السماء وحق زيد»[٦].

وقد تطلق العزة على المخلوق فإنها عزة على قدره فقط، فيقال فلان عزيز أي عزيز في نفسه، قال تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: ٥١].

ولكن عزة الله عز وجل عزة تليق بجلاله وعظمته، ومن عززه من خلقه بعزته دائمة باقية وهي العزة الحقيقية، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون: ٨].

وقد تضاف العزة إلى أعدائه كما قال تعالى: ﴿بل الذين كفروا في عزة

---

(١) تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ٣٤.
(٢) المفردات للراغب ص ٣٣٣.
(٣) الطبري ١/٥٥٨.
(٤) الاعتقاد للبيهقي ١٥.
(٥) تقدمت ترجمته ٧١.
(٦) فتح الباري ١٣/٣٦٩.

وشقاق﴾، فالعزة من التعزز، وهو في الحقيقة ذل[1].

الثاني عشر: الحكيم
(من أسماء الله عز وجل «الحكيم»)

قال سبحانه: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٢].

الحكيم: الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل[2]، فيضع الأشياء في محلها لعلمه وحكمته وعدله[3].

وعن ابن عباس: أن الحكيم الذي قد كمل في حكمه، وقد قيل أن الحكيم بمعنى الحاكم[4]، وهو المحكم لخلق الأشياء، وقد يكون بمعنى المصيب في أفعاله[5].

والحكيم: هو المحكم لخلق الأشياء... والمعنى ينصرف إلى اتقان التدبير فيها وحسن التقدير لها، إذ ليس كل الخليقة موصوفاً بوثاقة البنية وشدة الأسر كالبقة والنملة، وما أشبههما من ضعاف الخلق، إلا أن التدبير فيهما والدلالة بهما على الصانع وإثباته ليس بدون الدلالة عليه بخلق السموات والأرض والجبال وسائر معاظم الخليقة، وكذلك هذا في قوله عز وجل: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ [السجدة: ٧] ولم تقع الإشارة به إلى الحسن الرائق في النظر فإن هذا المعنى معدوم في القرد والخنزير والدب وأشكالها من الحيوان، وإنما ينصرف المعنى فيه إلى حسن التدبير في إنشاء كل شيء خلقه على ما ذهب أن ينشئه عليه وإبرازه على الهيئة التي أراد أن يهيئه عليها كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ

(١) انظر المفردات للراغب ٣٢٣ ـ بتصرف ـ.
(٢) الطبري ١/٥٥٨.
(٣) ابن كثير ١/٢٧٥.
(٤) جامع البيان عن تأويل القرآن ١/٢٢١.
(٥) الاعتقاد للبيهقي ١٧.

مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ [الفرقان: ٢].

وما خلق الله الخلق إلا لحكمة كما أخبر بذلك، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (1)[العنكبوت: ٤٤] فقوله «بالحق» يتضمن حكمته(2).

الثالث عشر: الغني
(ومن أسمائه تعالى «الغني»)

وقد أخبر الله عن غناه عن خلقه في هذه السورة بقوله تعالى:

والغني: هو الذي استغنى عن الخلق، وقيل: المتمكن من تنفيذ إرادته في مراداته، وهذه صفة يستحقها بذاته(3).

والله هو الغني المستغني عن الخلق بقدرته، وعز سلطانه، والخلق فقراء إلى تطوله(4)، وإحسانه(5)، كما قال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾ [محمد: ٣٨].

وهو الذي أغنى الخلق بأن جعل لهم أموالاً وبنين كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النجم: ٤٨].

وهو غني عنهم وعن نصرتهم وتأييدهم لملكه، فليست به حاجة إليهم وهم إليه فقراء محتاجون(6).

---

(١) شأن الدعاء للخطابي ٧٣.
(٢) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٧/ ٩٥.
(٣) الاعتقاد للبيهقي ١٩.
(٤) إلى تطوله: أي إلى فضله ومنه، والطول والطائل والطائلة: الفضل، والقدرة، والغنى والسعة والعلو. لسان العرب ١١/ ٤١٤، المفردات ٣١٢.
(٥) انظر تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ٦٣.
(٦) انظر شأن الدعاء: ٩٢.

الرابع عشر: الهــادي
(من أسماء الله عز وجل «الهادي»)

الهادي: هو الذي هدى خلقه إلى معرفته وربوبيته، وهو الذي هدى عباده المؤمنين إلى صراطه المستقيم[1].

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الفرقان: ٣١].

ومنه الهداية، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ولم يرد غيرها في السورة عن الهداية، فالله هو الهادي وقد تطلق على المخلوق كما قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢].

فعلى هذا فالهداية تنقسم إلى قسمين هما:

١ ـ هداية التوفيق والإلهام وهي خاصة بالله عز وجل، وهي الواردة في السورة، وهي منتفية عن المخلوق كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص: ٥٦].

٢ ـ هداية الدلالة والإرشاد، وهذه يشترك فيها المخلوق مع الخالق سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

والهدى ضده الإضلال وهما بيد الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [فاطر: ٨].

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن ١٣/١٠٦.

فالهدى والإضلال فعله سبحانه وتعالى وقدره، فأفضل ما يقدره الله لعبده وأجل ما يقسمه له الهدى، وأعظم ما يبتليه به ويقدره عليه هو الإضلال.

أما الاهتداء والضلال فهو فعل العبد وكسبه.

ومراتب الهدى أربعة هي:

١ ـ الهدى العام: وهو هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها.

٢ ـ الهدى بمعنى البيان والدلالة والتعليم والدعوة إلى مصالح العبد في معاده وهذا خاص بالمكلفين.

٣ ـ الهدى المستلزم للاهتداء، وهي هداية التوفيق والإلهام، وهي خاصة بالله عز وجل.

٤ ـ الهداية إلى يوم المعاد إلى طريق الجنة والنار(١).

وهذا أعم من التقسيم الأول وهو داخل تحته.

الخامس عشر: صفة المعية

المعية صفة من صفات الله عز وجل، تليق بجلاله وعظمته أثبتها سبحانه في كتابه، وسنة رسوله ﷺ.

فمما ورد في السورة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والله عز وجل مع خلقه حقيقة وهو فوق عرشه حقيقة، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤].

ومعية الله عز وجل بحسب ما تطلق عليه، فقد تكون بمعنى الاطلاع كما في الآية السابقة، وقد تكون بمعنى العلم والهيمنة والإحاطة كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ

---

(١) انظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل ص ٦٥.

ﭐللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧].

وتكون بمعنى النصرة والتأييد[١] كما في هذه السورة، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

إذاً فالمعية قسمان، معية عامة لجميع الخلق تكون بالعلم والإحاطة والاطلاع.

ومعية خاصة، وهذه خاصة بالمؤمنين بالنصرة والتأييد كما تبين في الحديث عن المؤمنين في السورة.

وقد ضلت فرق كثيرة في المعية فبعضهم نفاها وبعضهم قال: أنها تقتضي الحلول والاتحاد، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

وقد رد عليهم السلف بالنص الصحيح والعقل الصريح مما يطول ذكره هنا، ومن الذين ردوا عليهم الإمام أحمد في كتابه «الرد على الجهمية والزنادقة»، وشيخ الإسلام في «الفتاوى» وغيرهما.

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٥/ ١٠٣ ـ ٤٩٥ وغيرها.

المبحث الثالث

توحيد الألوهية

هذا التوحيد يدل عليه توحيد الربوبية الذي أقرّ به الكفار كما تقدم، والآيات التي في السورة التي تقرر توحيد الربوبية تطلب من العبد الإتيان بلازمه، وهو هذا التوحيد، فقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) ﴾ [العنكبوت: ١٩].

هذه الآية وردت في سياق دعوة إبراهيم لقومه تقرر لهم أن الذي بدء الخلق قادر على إعادته فهو أحق بالعبودية والإيمان به كما أمرهم بالسير والبحث في الأرض ليستدلوا بذلك على قدرة الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

كما أن إقرار الكفار واعترافهم بخلق السموات والأرض يوجب عليهم أنه المستحق للعبادة وحده، كما قال عز وجل: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) ﴾ [العنكبوت: ٦١].

أي فأنى يصرفون عمن صنع ذلك فيعدلون عن إخلاص العبادة له[1].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن ٢١/١١.

«فأكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعقلون ما لهم فيه النفع من أمر دينهم وما فيه الضر، فهم لتجاهلهم أصبحوا في غمرة يحسبون أنهم لعبادتهم الآلهة دون الله ينالون بها عند الله زلفة وقربة، ولا يعلمون أنهم بذلك هالكون مستوجبون الخلود في النار»[١].

كما أن الامتنان عليهم بالنعم تجعلهم يشكرون المنعم، ولا يشكرون غيره، ومن شكره صرف العبادة له وحده دون سواه فإفراده في العبادة أوجب وإلا فالعبادة حق واجب لله عز وجل سواء في حال السراء أو الضراء، وشرط في صحة الواجبات الأخرى، ومن النعم التي امتن الله عليهم بها نعمة الأمن كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

كذلك من النعم نعمة الإنجاء من المهالك كالغرق الذي إذا عاينوه تضرعوا إلى ربهم وحده، وإذا أنجاهم ومنّ عليهم بهذه النعمة كفروا، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

كما أن توحيد الأسماء والصفات يدل على هذا التوحيد كما تقدم في صفحة ، وجميع القرآن دعوة إلى توحيد الله عز وجل شاهد به متضمن له، لأن القرآن أما خبر عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وهذا هو التوحيد العملي الخبري الاعتقادي ويشمل توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

وأما دعاء إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه أو أمر بأنواع العبادات، ونهي عن المخالفات، فهذا هو توحيد القصد والطالب، وهو الألوهية وهو متضمن للنوع الأول فمن أتى بتوحيد الألوهية فقد أتى بالتوحيد كله.

لذلك ذكرت هذه القاعدة في هذا الباب هنا.

وتوحيد الألوهية يسمى بذلك لأنه مبني على إخلاص التأله وهو أشد المحبة لله وحده، مع الذل التام، والرجاء التام، وذلك يستلزم إخلاص العبادة وتوحيد

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن ٢١/ ١٢.

العبادة لذلك، وتوحيد الإرادة لأنه مبني على إرادة وجه الله بالأعمال دون سواه، وتوحيد القصد لأنه مبني على إخلاص القصد المستلزم لإخلاص العبادة لله وحده، وتوحيد العمل لأنه مبني على إخلاص العمل لله وحده، قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وفي صحيح البخاري عن شداد بن أبي أوس عن النبي ﷺ قال: «سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أبوء لك بنعمتك وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت أعوذ بك من شر ما صنعت، إذا قال حين يمسي فمات دخل الجنة، أو كان من أهل الجنة، وإذا قال حين يصبح فمات من يومه مثله»[(1)].

«فقوله لا إله إلا أنت، فيه إثبات انفراده بالألوهية، والإلهية تتضمن اتصافه بكمال علمه، وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد فإن (الإله) هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب المخضوع له غاية الخضوع، والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل»[(2)].

وهذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وباطنه، وظاهره، فكونه أول الدين لأن الله حينما أهبط آدم أمره بالعبادة، وهو أول واجب على المكلف، وليس أول واجب على المكلف هو، النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك في الله كما هي أقوال لمن لم يدر ما بعث الله به رسوله ﷺ من معاني الكتاب والحكمة[(3)].

ودعوة أول الرسل كانت بعد حدوث الشرك في الأرض حين أرسل الله نوحاً إلى قومه فقال تعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن

---

(1) صحيح البخاري ٧/١٥٠، كتاب الدعوات باب ما يقول إذا أصبح ١٦، واللفظ له، مسند الإمام أحمد ٤/١٢٢ ـ ١٢٥، عن شداد بن أوس ٥/٣٥٦ عن بريدة، وكذلك في سنن ابن ماجه ٢/١٢٧٤، كتاب الدعاء باب ١٤، ح ٣٨٧٢، سنن الترمذي ٥/٤٦٧ كتاب الدعوات باب ١٥، سنن النسائي ٨/٢٧٩ كتاب الإستعاذة.

(2) انظر مجموع الفتاوى ١٠/٢٤٩.

(3) تيسير العزيز الحميد ٣٧.

بِفَضْلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

وتتابع الرسل على ذلك، ففي سورة العنكبوت يقول تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٦].

كما حذرهم من مغبة ما يعبد من دون الله عز وجل، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٧ - ١٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال الله عن شعيب في نفس السورة: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وهذا التوحيد أول أمر في القرآن ورد به، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [البقرة: ٢١].

وذلك بعد الخبر به في قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة: ٥].

وكونه آخر الدين لقول الرسول ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله وجبت له الجنة»[1] الحديث.

---

(١) ذكره البخاري تعليقاً بلفظ باب في الجنائز ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله ٢/٦٩، وفي المسـ ٥/٢٤٧، واللفظ له عن معاذ. وقريباً منه في سنن أبي داود ٣/٤٨٦، كتاب الجنائز، باب فـ التلقين ح ٣١١٦.

وكونه ظاهر الدين وباطنه لأنه لا يقبل عمل من أعمال الدين ءلا به أي إلا أن يكون لله، في المظهر والمخبر، وإلا فإنه مردود على صاحبه كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [البقرة: ٨].

ولأجل هذا التوحيد خلق الله الخلق، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وجميع الناس مطالبون بهذا التوحيد، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فبين الله عز وجل أن الإله واحد سواء لأمة محمد أو لأهل الكتاب.

ويقول ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»[1].

فعم جميع الناس ولم يخص فئة دون غيرها، فالكل معبد لله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٢]، لكن خصّ الله به الذين آمنوا وناداهم به، فقال سبحانه: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

أما غيرهم فإنهم معبدون مذللون مقهورون يجري عليهم القدر كما قال سبحانه: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم: ٩٣].

وعبودية الكفار هو اعترافهم بالصانع وخضوعهم له، فهم محتاجون إليه عند الاضطرار[2]. كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

---

(١) صحيح البخاري ١/١١ كتاب الإيمان باب ١٧، واللفظ له، صحيح مسلم ١/٥٢، كتاب الإيمان باب ٨ ج ٣٤ ـ ٣٥، وأخرجه أبو داود ـ والترمذي، والنسائي والدارمي، والإمام أحمد.

(٢) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١/٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥.

وبهذا التوحيد افترق الناس إلى مؤمنين وكفار وسعداء أهل جنة، وأشقياء أهل نار.

قال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٧﴾ [العنكبوت: ٧].

وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٣﴾ [العنكبوت: ٢٣].

وهذا التوحيد يتضمن جميع أنواع العبادة منها مثلاً المحبة والإجلال والتعظيم، والخشية والإنابة ـ والتوكل. والتوبة ـ والخوف ـ والرجاء، كما أنها تشمل العبادات الظاهرة، كأركان الإسلام، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذبح والنذر، وغير ذلك.

فجميع العبادات لا بد أن تصرف لله ولا تصح إلا بشرطين هما ـ الإخلاص والمتابعة بدليل قوله سبحانه في السورة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٧﴾ [العنكبوت: ٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۝٩﴾ [العنكبوت: ٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٥٨﴾ [العنكبوت: ٥٨].

فوجه الدلالة من الآيات أن الله عز وجل ربط الإيمان بالعمل الصالح ـ والإيمان يستلزم الإخلاص لله وحده، والعمل الصالح يستلزم صلاحه أن يكون موافقاً لما شرعه الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ.

ومما يدل على ذلك أيضاً قوله سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [العنكبوت: ٨].

ووجه الدلالة من الآية أن الله نهى عن الشرك، وهذا يدل على وجوب

الإخلاص له وحده، وقوله: «ما ليس لك به علم» يدل على المتابعة - فلا بد على المسلم أن تكون عبادته عن علم، لأن الأصل في العبادات التوقف إلا ما ورد الشرع به «لأن مبناها على الشرع والاتباع لا على الهوى والابتداع»(١).

قال الفضيل بن عياض(٢): «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صوباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على سنة رسول الله، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾(٣) [الكهف: ١١].

والتوحيد حق خاص بالله عز وجل لذاته لأنه المألوه المعبود الذي تألهه القلوب، وترغب إليه وتفزع إليه عند الشدائد، وما سواه فهو مفتقر مقهور بالعبودية فكيف يصلح أن يكون آلهاً(٤)، فلا يجوز أن يشرك مع الله غيره لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، لذلك جعل الله الشرك هو الذنب الذي لا يغفر، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال ﷺ حينما سئل أي الذنب أعظم، فقال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»(٥).

ونهى الله عنه وبين عاقبة أهله، فمن نهيه عنه في هذه السورة قوله سبحانه:

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١/ ٨٠.

(٢) هو ابن مسعود بن بشير أبو علي التميمي اليربوعي الخراساني، إمام قدوة ثبت كتب عن الأعمش وليث وعطاء، ومجالد وغيرهم، وحدث عنه: ابن المبارك، ويحيى القطان، وابن عيينة، والشافعي، والحميدي، وغيرهم، أعطى حكمة وورعاً ت ١٨٧ هـ، بمكة. التاريخ الكبير ٧/ ١٢٣، سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٧٢.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٩٣، وانظر الفتاوى ١/ ٣٣٣.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١/ ٨٨.

(٥) جزء من حديث في صحيح البخاري ٥/ ١٤٨، كتاب التفسير، سورة البقرة، والفرقان ٦/ ١٤، وكتاب الأدب ٧/ ٧٥ باب ٢٠، وكتاب الديات ٨/ ٣٤ باب ١، والحدود ٨/ ٢١ باب ٢٠، وأخرجه النسائي وأبي داود، وأحمد وصحيح مسلم ١/ ٩٠، كتاب الإيمان باب ٣٧، ١٤١ - ١٤٢، وسنن الترمذي ٥/ ٣٣٦ كتاب التفسير سورة الفرقان باب ٢٦ ح ٣١٨٢.

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٨].

ومن بيان عاقبة فأهله قوله سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

وقد بين الله تفاهة المعبودات من دونه وأنها لا تنفع ولا تضر، وأن اجتماعهم عليها لتواد فيما بينهم في هذه الحياة الدنيا، فقال تعالى عن إبراهيم: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فلو أنهم عبدوا ما ينفعهم دنيا وآخرة لكن أولى بهم لأن هذه المعبودات التي يتألفون بسببها لا تغني عن الله شيئاً، ولا تجلب لهم نفعاً ولا ضراً، قال تعالى عن إبراهيم: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

كما بين الله عز وجل تفاهة المعبودات من دونه بمثل ضربه ليعقله من يعلم ويتدبر آيات الله، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤١ ـ ٤٢].

فهذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه، ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم، إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت، فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء[1].

وقد وضح الله في هذه السورة أن العبادة مطلوبة في كل وقت وحين في السراء والضراء، فالذي ينفع في الضراء وينجي منها قادر على إيقاعك فيها إذا كفرت به في السراء، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فهلا كان هذا الدعاء دائماً.

وقد ورد أن عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه ذهب فاراً من مكة لما فتحها رسول الله ﷺ، فلما ركب البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء فإنه لا ينجي ها هنا إلا هو، فقال عكرمة: والله لئن كان لا ينجى في البحر غيره، فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره، اللهم لك عليّ عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يدي محمد فلأجدنه رؤوفاً رحيماً فكان كذلك»[2].

وبما أن توحيد الألوهية يشمل جميع أنواع العبادة كما تقدم، فقد ورد في هذه السورة بعضاً منها أما حثاً عليها أو بيان لفضلها.

وسأذكرها حسب أهميتها من الدين ولزومها لما بعدها ـ فمثلاً الصلاة لا تصح إلا بعد تصحيح الدعاء لله ولا بد أن يسبق الجهاد دعوة إلى دين الإسلام ولا بد للدعوة من صبر وتوكل وهكذا.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٦٥٩.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٢٤١، أسد الغابة ٣/ ٥٦٨، الإصابة: ٤/ ٥٣٩، مصنف ابن أبي شيبة ٤/ ٤٩١، تفسير القرآن العظيم ٣/ ٦٧١.

المبحث الرابع

العبادات الواردة في السورة

الرجاء

من العبادات الوارد ذكرها في السورة «الرجاء»، وقد ورد في آيتين هما قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥].

وقوله سبحانه عن نبيه شعيب: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٣٦﴾ [العنكبوت: ٣٦].

والرجاء: حاد يحدوا القلوب إلى بلاء المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيب لها السير، وقيل هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى، والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه، وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى[1].

والرجاء من العبادات القلبية، وهو «من محركات القلوب إلى الله عز وجل التي هي المحبة والخوف والرجاء»[2].

فالأمور التي لا يقدر عليها إلا الله فأنها لا ترجى إلا منه سبحانه، طلباً لثوابه، وخوفاً من عقابه، وإذا تحقق ذلك من العبد فأن الله سيحقق رجاءه، ويوفيه عمله كاملاً موفوراً، لقوله ﷺ في الحديث القدسي، يقول الله تعالى: «أنا عند ظن

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٦.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١/ ٩٥.

عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ بشبر، تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً، تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[1].

والله سبحانه حثّ على الرجاء ومدح أهله بدليل الآيتين المتقدمتين وغيرهما كثير كقوله سبحانه وتعالى مادحاً للمؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

والرسول ﷺ مخلصاً في رجائه يرجو أعظم ما عند الله وهو رحمته ويحث على الرجاء في أشد الحالات وهو الكرب، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال في دعوات المكروب: «اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي من شأني كله»[2].

فالراجي يطمع فيما يحبه الله لا فيما يبغضه، فالمؤمن لا يعلق رجاؤه إلا بالله، ولا يخاف من الله أن يظلمه، فإن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون، بل يخاف أن يجزيه بذنوبه، وهذا معنى ما روى عن علي رضي الله عنه أنه قال: «لا يرجو عبد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه»[3]. وفي الحديث أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟ فقال: أرجو الله وأخاف ذنوبي، فقال: ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف»[4].

فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله، ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك، وإن كان الله قد جعل لها أسباباً فالسبب لا يستقل

---

(١) صحيح البخاري ٨/ ١٧١، كتاب التوحيد باب ١٥، وصحيح مسلم ٤/ ٢٠٦١ كتاب الذكر باب ١ حديث ٢٦٧٥، كما أخرجه الترمذي وابن ماجة والإمام أحمد.

(٢) مسند الإمام أحمد ٥/ ٤٢، عن أبي بكر، جزء من حديث، والبخاري في الأدب المفرد ص ١٥١ حديث ٧٢٢، سنن أبي داود ٥/ ٣٢٥، كتاب الأدب باب ١١٠ حديث ٥٠٩٠، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٣/ ٤٦ حديث ٣٣٨٢، وصحيح الكلم ص ٥٢ حديث ١٠٢.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٨٤، وذكره ابن تيمية في الفتاوى ١٠/ ٢٥٦، حلية الأولياء ١/ ٧٦.

(٤) سنن إن ماجة ٢/ ١٤٢٣، كتاب الزهد باب ٣١ حديث ٤٢٦١، سنن الترمذي ٣/ ٣٠٢، كتاب الجنائز باب ١ حديث ٩٨٣، وقال حديث حسن غريب وروى مرسلاً.

بنفسه، بل لا بد له من معاون، ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى... فمن رجاء قوته أو عمله أو ماله أو صديقه أو قرابته أو شيخه أو ملكه أو ماله غير ناظر إلى الله، كان فيه نوع توكل على ذلك السبب، وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك[1].

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١].

«فالرجاء والخوف متلازمان كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطائر وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت»[2]. فالقلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء... فينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف فإن غلب عليه الرجاء فسد»[3].

«والله سبحانه قد لطف بعباده فعلل طباعهم البشرية بوضع الأسباب التي يأنسون بها فيخفف عنهم ثقل الامتحان الذي تعبدهم به، ولينصرفوا بذلك بين الرجاء والخوف ويستخرج وظيفتي الصبر والشكر في طورى السراء والضراء، والشدة والرخاء، ومن وراء ذلك علم الله تعالى»[4].

وقد يظن بعض الناس أن التمني هو الرجاء، ولكن هناك فرق كبير بين الإثنين، أما الرجاء فإنه دافع للعمل طلباً في مرضات الله وخوفاً من عقابه، مع بذل الجهد وحسن التوكل.

أما التمني فإنه يكون مع الكسل، وعدم الجد، والاجتهاد والأخذ بالأسباب، فتجد صاحبه متماد في المعاصي مفرط في جنب الله، ومع هذا يرجو رحمة الله،

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/٢٥٦.
(٢) مدارج السالكين ٢/٣٧.
(٣) مدارج السالكين ١/٥٥٤.
(٤) شأن الدعاء للخطابي ١٠.

وهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب، ولهذا أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصلح إلا مع العمل[1]، وفي الحديث: (الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله، من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله)[2]، وهذا المثال يوضح الفرق بين التمني والرجاء من واقع ما يشاهده الإنسان.

فمثلاً - رجل يتمنى أولاداً وهو لم يتزوج، هل هو كمن سعى في طلب الزواج حتى تمكن منه.

ومثال آخر: رجل يرجو عيشاً في موسم الحصاد وهو ليس عنده أرض ولم يحاول، هل هو كمن اشترى أرضاً وشقها وزرعها؟.

الـدعـــاء

من العبادات الواردة في السورة «الدعاء»، والدعاء ينقسم إلى قسمين، دعاء مسألة، ودعاء عبادة.

فمن الأول قوله سبحانه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٣٠ ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

أما الثاني فإنه كل عبادة تتقرب بها إلى الله عز وجل، فإن لسان حالك يقول: «اللهم إني أسألك بهذا العمل الجنة وأعوذ بك من النار».

والدعاء عبادة، والعبادة مبناها على التوقف والاتباع، لا على الهوى والابتداع.

قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة»[3] ثم تلا: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٣٧.

(٢) مسند الإمام أحمد ٤/ ١٢٤، سنن ابن ماجه ٢/ ١٤٢٣، كتاب الزهد، باب ٣١ حديث ٤٢٦٠، سنن الترمذي ٤/ ٦٣٨ كتاب صفة القيامة باب ٢٥، حديث ٢٤٥٩، وقال: هذا حديث حسن، وانظر تخريج إحياء علوم الدين ٥/ ٢٠٦٣، حديث ٣٢٥٩.

(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٢١١ كتاب التفسير باب ٣ حديث ٢٩٦٩، وقال: هذا حديث حسن صحيح، رواه منصور، مسند الإمام أحمد: ٤/ ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٦، وسنن إن ماجه: ٢/ ١٢٥٨ كتاب الدعاء باب ١ حديث ٣٨٢٨، والبخاري في المفرد ص ١٥٤ حديث ٧٣٥، كما رواه أبو داود، والنسائي =

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وقد يجتمعان كما في قوله ﷺ: «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له»(١).

فسماه دعوة لأنها تتضمن نوعي الدعاء، فقوله: لا إله إلا أنت اعتراف بتوحيد الإلهية، وتوحيد الألوهية يتضمن أحد نوعي الدعاء، فإن الإله هو المستحق لأن يدعى دعاء عبادة ودعاء مسألة، وهو الله لا إله إلا هو.

وقوله: «إني كنت من الظالمين» اعتراف بالذنب، وهو يتضمن طلب المغفرة، فإن الطالب السائل تارة يسأل بصيغة الطلب كقوله تعالى عن لوط: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت: ٣٠]، وتارة بصيغة الخبر، أما بوصف حاله، أو بوصف حال المسئول، أو بوصف الحالين معاً كقول نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود: ٤٧].

فهذا ليس صيغة طلب، وإنما هو إخبار عن الله أنه إن لم يغفر له ويرحمه خسر»(٢).

والله عز وجل يسمع الدعاء ويجيبه كما تقدم(٣) في إسم السميع أن من معانيه إجابة الدعاء، فمن وفق للدعاء فهو حري بالإجابة، لذلك أمر الله عز وجل به وحث عليه كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ

= والحاكم، وابن أبي شيبة وابن حبان وصححه الألباني في مشكاة المصابيح: ٢/ ٦٩٣ وصحيح الجامع: ٣/ ١٥٠.

(١) سنن الترمذي: ٥/ ٥٢٩، كتاب الدعوات باب ٨٢ حديث: ٣٥٠٥ واللفظ له، ومسند الإمام أحمد: ١/ ١٧٠.

والمستدرك: ٥٠٥١، ٢/ ٥٨٣، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كما أخرجه النسائي والبيهقي في شعب الإيمان. وصححه الألباني. انظر صحيح الجامع: ٣/ ١٤٥ حديث ٣٣٧٨.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٠/ ٢٤٣.

(٣) تقدم في صفحة ٦٩ من هذا البحث.

﴿... يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وقال ﷺ: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»[1].

قال الشاعر[2]:

الله يغضب إن تركت سؤاله ... وبني آدم حين يسأل يغضب

قال ابن عقيل[3]: «قد ندب الله تعالى إلى الدعاء وفي ذلك معان أحدها الوجود، فإن ليس بموجود لا يدعى.

الثاني: الغنى فإن الفقير لا يدعى.

الثالث: السمع، فإن الأصم لا يدعى.

الرابع: الكرم، فإن البخيل لا يدعى.

الخامس: الرحمة، فإن القاسي لا يدعى.

السادس: القدرة، فإن العاجز لا يدعى.

ومن يقول بالطبائع يعلم أن النار لا يقال لها: كفى، ولا النجم يقال له أصلح مزاجي، لأن هذا عندهم مؤثر طبعاً لا اختياراً، فشرع الدعاء، وصلاة الاستسقاء ليبين كذب أهل الطبائع»[4].

فالدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع الأضرار، يعترف بهذا

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٢/ ٣٦٢، سنن الترمذي: ١/ ٤٥٥، كتاب الدعوات، باب ١، وقال: هذا حديث حسن غريب، سنن ابن ماجة: ٢/ ١٢٥٨، كتاب الدعاء باب ١، حديث: ٣٨٢٩، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد ص ١٥٤، حديث ٧٣٣، وأخرجه الحاكم في المستدرك: ١/ ٤٩٠، وقال: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه الألباني، انظر صحيح الجامع: ٥/ ٩١ حديث ٥٢٦٨.

(٢) لم أقف عليه وذكره الإبشيهي في المستطرف ٢/ ٥٨ وذكر الشيخ عبدالله بن خميس أنه للشافعي ولم أجده في ديوانه المطبوع.

(٣) شيخ الحنابلة أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن عقيل بن عبدالله البغدادي الظفري الحنبلي المتكلم، ولد سنة ٤٣١ هـ، سمع أبا بكر بن شيران، والجوهري، والمقرىء، والفراء، وغيرهم. خالط المعتزلة وتأثر بهم، له كتاب الفنون، حدث عنه السمعاني، وأبو طاهر السلفي وأبو الفضل خطيب الموصل وغيرهم، ت سنة ٥١٣ هـ، ودفن قريباً من الإمام أحمد. سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٤٤٣، البداية والنهاية: ١٢/ ١٨٤.

(٤) شرح الطحاوية: ٥١٩.

عامة الخلق حتى الكفار، قال تعالى عنهم: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

قال شارح الطحاوية[١]: «وإجابة الله لدعاء العبد مسلماً كان أو كافراً، وإعطاؤه سؤله من جنس رزقه لهم ونصره لهم، وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقاً، ثم قد يكون فتنة في حقه، ومضرة عليه إذا كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك»[٢]، ولكن الكافر لا يدعو ربه إلا عند الاضطرار ومعاينة الهلاك.

وأما المسلم فإنه يعلم أنه مضطر إلى ربه فقير إليه محتاج إلى كرمه وعفوه في كل وقت وحين، فعليه أن يدعوه دعاء رغبة وهبة ويتوسل إليه بأسماءه وصفاته بحضور قلب وخشوع، وانكسار بين يدي خالقه، متذللاً متضرعاً، مستقبلاً القبلة[٣]. لحديث عمر رضي الله عنه: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين، فاستقبل القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه»[٤].

ويتحين أوقاوت وأحوال الإجابة كالسجود لقوله ﷺ: «أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فأكثروا فيه الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم»[٥].

وكما بين الأذان والإقامة لقوله ﷺ: «الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة»[٦].

---

(١) هو العلامة صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الأذرعي الصالحي الدمشقي، ولد سنة ٧٣١ هـ، اشتغل بالعلوم وكان ماهراً، ولي قضاء دمشق سنة ٧٧٩ هـ ثم مصر شهراً فقط، اعتقل بسبب بيانه لما في قصيدة ابن أيبك من الشرك، ت سنة ٧٩٢ هـ، رحمه الله. الدرر الكامنة: ٣/ ٨٧، شذرات الذهب: ٦/ ٣٢٦، ومقدمة شرح الطحاوية للألباني ص ٨.

(٢) شرح الطحاوية ص ٥١٩.

(٣) انظر الجواب الكافي ص ٣ وما بعدها عن الدعاء عموماً، وكذلك شأن الدعاء للخطابي ص ١٣.

(٤) جزء من حديث في صحيح مسلم كتاب الجهاد: ٣/ ١٣٨٣ باب ١٨ حديث ١٧٦٣، وسنن الترمذي: ٥/ ٢٦٩، كتاب التفسير باب ٩ حديث: ٣٠٨١.

(٥) جزء من حديث في صحيح مسلم: ١/ ٣٤٨ كتاب الصلاة باب ٤١ حديث ٤٧٩. سنن أبي داود: ١/ ٥٤٥ كتاب الصلاة باب ١٥٢ حديث ٨٧٦، مسند أحمد: ١/ ١٥٥ ـ ٢١٩، وسنن الدارمي: ١/ ٢٤٦ كتاب الصلاة باب ٧٧ حديث ١٣٣١.

(٦) مسند الإمام أحمد: ٣/ ١١٩ ـ ١١٥ بزيادة (فادعوا) وكذلك ص ٢٢٥، وص ٢٥٤، كلها عن أنس بن مالك رضي الله عنه. سنن الترمذي: ١/ ٤١٥ كتاب الصلاة باب ١٥٨ وقال: حديث حسن صحيح، وفي ٥/ ٥٧٦ كتاب الدعوات باب ١٢٩. بزيادة قال فماذا نقول يا رسول الله؟ قال: سلوا الله العافية في الدنيا والآخرة سنن أبي داود: ١/ ٣٥٨ كتاب الصلاة باب ٣٥.

والثلث الأخير من الليل لقوله ﷺ: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»[1].

وكيوم عرفة، وعند لقاء العدو، وغيرها من الأوقات الفاضلة التي يطول ذكرها مع أدلتها هنا.

وإذا اشتمل الدعاء على الإسم الأعظم[2] من أسماء الله فإنه حري بالإجابة، فعن عبدالله بن بريدة، عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، قال، فقال: والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»[3]، وغيره من الأحاديث.

ومن وفق للدعاء فإنه حري بالإجابة للأدلة المتقدمة، والإجابة قد تكون عاجلة أو أن الله عز وجل يدخر للداعي من الأجر بقدر دعوته، أو يصرف عنه من السوء، أو يعطيه من الدنيا بقدر مسألته.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي»[4]. وفي رواية عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يدعو بدعاء إلا أتاه الله ما سأل، أو كفّ عنه من السوء مثله ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»[5].

---

(١) أخرجه البخاري: ٨/١٩٧ كتاب التوحيد باب ٣٥. ومسلم: ١/٢١ كتاب صلاة المسافرين باب ٢٤ كما أخرجه مالك في الموطأ والإمام أحمد في المسند، والدارمي، والترمذي، وأبو داود.

(٢) تقدم الكلام عليه في صفحة

(٣) سنن الترمذي: ٥/٥١٦ كتاب الدعوات باب ٦٤، وقال: هذا حديث حسن غريب، واللفظ له، وبلفظ قريب من هذا في: ٥/٥٥٠ كتاب الدعوات باب ١٠٠، سنن ابن ماجه: ٢/١٢٦٧ كتاب باب الدعاء باب إسم الله الأعظم: ٩، سنن النسائي: ٣/٥٢ كتاب السهو باب الدعاء بعد الذكر، سنن أبي داود: ٢/١٦٦ كتاب الصلاة باب الدعاء.

(٤) صحيح البخاري: ٧/١٥٣ كتاب الدعوات باب ٢٢، وصحيح مسلم: ٤/٢٠٩٥، كتاب الذكر والدعاء باب ٢٥، وموطأ مالك: ١/٢١٣ كتاب القرآن باب ٨.

(٥) مسند الإمام أحمد: ٣/٣٦٠، سنن الترمذي: ٥/٤٦٢، كتاب الدعاء باب ٩، سنن الترمذي ٥/١٦٦ كتاب الدعاء باب ١١٦ ونحوه، والحاكم: ١/٤٩٣، وحسنه الألباني، صحيح الجامع: =

ففي هذين الحديثين نهي عن الاستعجال في الإجابة واليأس معا عند الله، لأن ذلك من صفات الكافرين. قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

ومن آداب الدعاء: تجنب السجع وتكلف صنعة الكلام، ولا يجوز الاعتداء في الدعاء كالدعاء بالمحال، مثل الخلود في الدنيا، والدعاء بالإثم أو قطيعة الرحم للحديث المتقدم، ولقوله ﷺ: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل، قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: يقول، قد دعوت فلم أر يستجيب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء»[(١)].

وسمع عبدالله بن المغفل ابنه يقول: «اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: أي بني سل الله الجنة، وعذ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور»[(٢)]، وروى مثله عن سعد[(٣)].

وبما أن الدعاء من أقوى الأسباب في حصول المنافع ودفع المضار، إلا أن أثره قد يتخلف لبعض الأسباب منها:

«بأن يكون الدعاء مما لا يحبه الله لما فيه من العدوان وهذا لضعفه أو لضعف قلب الداعي، وعدم إقباله على الله وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جداً، فإن السهم يخرج منه خروجاً ضعيفاً».

«أو لحصول مانع من موانع الإجابة كأكل الحرام والظلم ورين الذنوب على

= ١٥٦/٥ رقم ٥٥٥٤، وتخريج المشكاة: ٦٩٣/٢ رقم: ٢٢٣٦.

(١) صحيح مسلم: ٢٠٩٦/٤ كتاب الذكر باب ٢٤ واللفظ له، وانظر تعليق ٣، الصفحة السابقة حيث أن الحديث بمعناه.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٨٦/٤، ٨٧، ٥٥/٥ بألفاظ متقاربة، سنن ابن ماجة: ١٢٧١/٢ كتاب الدعاء باب ١٢.

(٣) سنن أبي داود: ١٦١/٢ كتاب الصلاة باب الدعاء، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ٢١٨/٣، حديث ٣٥٦٥.

القلوب، واستيلاء الغفلة والسهو واللهو وغلبتها عليه»[1]. فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام، وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه»[3].

ومن ادعى أن الدعاء لا فائدة فيه بحجة أن الأقدار سابقة والأقضية متقدمة، والدعاء لا يزيد ولا ينقص شيئاً، فهذه الدعوى مردودة لأن الدعاء سبب من الأسباب التي شرعها الله عز وجل، كما أنه من الأعمال الصالحة التي أمر بها العباد، وهو من قدر الله عز وجل وشرعه الذي أمر به وأحبه، فهو من القدر الكوني الشرعي.

فالعبد يرجو ربه ويطمع بما عنده، ويخاف من عذابه، مما يدفعه ذلك إلى العمل، ومن العمل الدعاء، ومع الرجاء والخوف، فليس عنده يقين تطمأن إليه نفسه، فيترك العمل ويخلد إلى الراحة.

---

(١) الجواب الكافي: ص ٣.

(٢) صحيح مسلم: ٢/٧٠٣ كتاب الزكاة باب ١٩.

سنن الترمذي: ٥/٢٢٠ كتاب التفسير باب ٣ البقرة. مسند الإمام أحمد: ٢/٣٢٨، سنن الترمذي: ٢/٢١٠ كتاب الرقاق باب ٩.

(٣) سنن الترمذي: ٥/٥١٧ كتاب الدعوات باب ٦٦، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، سمعت عباساً العنبري يقول: اكتبوا عن عبد الله بن معاوية الجمحي، فإنه ثقة، مستدرك الحاكم: ١/٤٩٣ وقال هذا حديث مستقيم الإسناد، وانظر صحيح الجامع: ١/١٢٨ حديث ٢٤٣، وسلسلة الأحاديث الصحيحة: ٢/١٤٣ ونحوه في مسند الإمام أحمد: ٢/١٧٧.

ولقد سأل بعض الصحابة رضوان الله عليهم رسول الله ﷺ عن أعمالهم وأسبابها، فقال سراقة بن مالك: يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن فيها العمل اليوم؟ فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما نستقبل؟، قال: «لا، بل فيما حقت فيه الأقلام وجرت به المقادير»، قال: ففيم العمل؟... قال: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له).

ومثله عن جابر بن عبدالله، وعن عمران بن حصين، قيل: يا رسول الله، وعنه أن رجلان من مزينة أتيا رسول الله، وذكر قريباً من هذا[1].

الصبـــر والتوكـــل

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩].

فأولاً: الصبر هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش[2].

وهذا يدخل فيه الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية، والصبر على البلاء.

وأكملها الصبر على طاعة الله، لأنها لله وبالله ومع الله، لأن الصبر إذا كان لله فباعثه محبة الله سبحانه والتقرب إليه لا لإظهار قوة النفس ومدح الخلق وغير ذلك، والصبر بالله أي الاستعانة به، والصبر مع الله أن يكون على مراده الديني، وأحكامه الدينية يسير سيرها، ويتوجه معها في كل حالاته»[3].

---

(١) هذه الروايات في صحيح مسلم: ٤/٢٠٤٠، ٢٠٤١، كتاب القدر باب ١، وقريباً منه أخرجه أبو داود في سننه: ٥/٧٣، كتاب السنة باب ١٧ عن رجلين من مزينة، وروى مختصراً في مسند أحمد: ١/٦، عن أبي بكر رضي الله عنه، وفي: ٤/٦٧ عن ذي اللحية الكلابي واسمه شريح بن عامر بن عوف بن كعب بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة له صحبة.

(٢) مدارج السالكين: ٢/١٦٢.

(٣) مدارج السالكين: ٢/١٦٤.

والصبر من أجل العبادات لله عز وجل، لأنه يشمل جميع أنواع العبادة، فكل عبادة لا بد فيها من الصبر، لذلك أمر الله بالتواصي به في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

وقد ذكره في كتابه في تسعين موضعاً كما ذكر ذلك الإمام أحمد[1]، أما أمراً به أو نهياً عن ضده أو ثناء على أهله أو محبة لهم أو تأييداً، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده، فقال: «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر»[2].

وعن علي بن أبي طالب: «ألا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ثم رفع صوته فقال: ألا لا إيمان لمن لا صبر له»[3].

فالصبر واجب باتفاق المسلمين[4] على أداء الواجبات وترك المحظورات.

قال ابن القيم: «فالصبر أول منازل الإيمان ودرجاته وأوسطها وآخرها، فإن

---

(١) انظر عدة الصابرين وذخرة الشاكرين ص ٧٤، ومدارج السالكين: ٢/١٥٨.

(٢) صحيح البخاري: ٢/١٢٩ كتاب الزكاة باب ٥٠، و ٧/١٨٣ كتاب الرقاق باب ٢٠، صحيح مسلم: ٢/٧٢٩ كتاب الزكاة باب ٤٢، مسند أحمد: ٣/١٢، ٤٧، ٩٣، عن أبي سعيد بألفاظ متقاربة، سنن الترمذي: ٤/٣٧٣ كتاب البر والصلة باب ٧٧ ح ٢٠٢٤، كما أخرجه أبو داود والنسائي والدارمي ومالك.

(٣) ذكره ابن القيم في عدة الصابرين ص ٩٧، وانظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ١/٧٦.

(٤) انظر مدارج السالكين: ٢/١٥٩.

صاحب الرضا والشكر لا يعدم الصبر في مرتبته، بل الصبر معه وبه يتحقق الرضا والشكر ولا تصور لهما دونه»[1].

والصبر من صفات المؤمنين لذلك وعدهم الله بالأجر العظيم في جنات النعيم، ومن أسباب ذلك صبرهم وتوكلهم كما قال سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٩].

كما بين الله قرب فرجه لمن صبر ورجا ما عند الله، ورغب في ذلك، فقال سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥]، والصبر بجميع أنواعه له أسباب تعين عليه[2].

سأقتصر على ما يعين على الصبر على أقدار الله من الفتن والبلايا، لأنها التي ذكرت في السورة، وأمر المؤمنين بالصبر عليها كما قال سبحانه: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٢].

كما ذمّ الله الذين لا يصبرون عليها بقوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

والعبد متعبد لله في حال السراء والضراء، فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر وصحبة البلاء بالصبر[3]، وصحبة الذنب بالتوبة والاستغفار، كما أن الشكر لا بد له من صبر، لذلك قال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن أن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[4].

فحال الضراء احتياجها إلى الصبر ظاهر، أما السراء فتحتاج إلى الصبر على

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ص: ٢١٨.
(٢) إن أردت الاستزادة فارجع إلى طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٢٧١ وما بعدها.
(٣) عدة الصابرين وذخرة الشاكرين ص ١٤.
(٤) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٩٥ كتاب الزهد باب ١٣ واللفظ له، مسند أحمد: ٦/ ١٦، سنن الدارمي: ٢/ ٢٢٦، كتاب الرقاق باب ٦١ عن صهيب. وانظر ص ٣٣٠ من هذا البحث.

طاعة الله فيها وشكره عليها فالغفلة فيها أدعى لعدم شعور صاحبها بحاجته الحاضرة إلى شيء، وغفلته عن مستقبل أمره، حيث لا يعلم ما يحدث له بعد ذلك في الدنيا وما سيسئل عنه في الآخرة، وقد آثر عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: «ابتلينا بالضراء فصبرنا، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»[1].

وكان النبي ﷺ يتعوذ: «اللهم إني أعوذ بك من فتنة الناء ومن عذاب النار وأعوذ بك من فتنة القبر، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال»[2].

لذلك أمر الرسول ﷺ بالصبر على الفتن والبلايا، وبين ثواب الصابر المحتسب، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: «ما لعبدي المؤمن عند جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم أحتسبه إلا الجنة»[3].

فمما يعين على الصبر على أقدار الله:

١ ـ شهود جزائها وثوابها، مقابل ذلك تكفيرها للسيئات.

٢ ـ الإيمان بقضاء الله وقدره، ومن العبودية الرضا بما رضى الله لك، فعدم الصبر يزيد في البلاء.

٣ ـ علم العبد بتكفيرها للسيئات التي قد تكون سبب البلاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال العباس بن عبد المطلب: «ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة»[4].

---

(١) سنن الترمذي: ٤/ ٦٤٢ كتاب صفة القيامة باب ٣٠، وقال: هذا حديث حسن، وذكره ابن القيم في عدة الصابرين ص ٦٤.

(٢) صحيح البخاري: ٧/ ١٦١، كتاب الدعوات باب ٤٥، واللفظ له، ولفظه في صحي مسلم: ٤/ ٢٠٧٨، كتاب الذكر باب ١٤، كما أخرجه النسائي وابن ماجة.

(٣) صحيح البخاري: ٧/ ١٧٢ كتاب الرقاق باب ٦. مسند أحمد: ٢/ ٤١٧.

(٤) انظر فتح الباري: ٢/ ٤٩٧ والأنساب للزبير بن بكار، سير أعلام النبلاء (التعليق ٢/ ٩٢).

فالبلية دواء لذنوبه، فلا بد من تجرعه، فبالنظر إلى العافية وحسن التأثير، يصبر على مرارة الدواء، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [النساء: ١٩].

وقال الشاعر[١]:

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

فإن لم يكن هناك ذنوب فهي رفعة للدرجات، كما قال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وأن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط»[٢].

٤ ـ ومما يعين العبد على الصبر عليها أن يعلم أنها امتحان لصحة إيمانه وصدقه فالبلية تخرج زيفه وغشه، وتجعله مؤمناً إذا صبر عليها، كالذهب إذا فتن بالنار، فإنه يظهر جيده.

٥ ـ كذلك يعلم أن الله يربى عبده على السراء والضراء، فيستخرج منه العبودية في كل حال[٣].

ثانياً: التوكل:

ومن العبادات الواردة في السورة، التوكل، قال سبحانه: ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٩].

أي يفوضون أمورهم إليه في كل إقدام وإحجام[٤] فتوكلهم يقتضي شدة

---

(١) لم أقف على إسمه والبيت ذكره ابن القيم في طريق الهجرتين ص ٢٢٧.

(٢) سنن الترمذي: ٦٠١/٤، كتاب الزهد باب ٥٦، وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، سنن ابن ماجة: ١٣٣٨/٢، وصححه الألباني في السلسلة: ٢٢٧/١ رقم ١٤٦، وصحيح الجامع: ٢١٦/٢ رقم ٢١٠٦.

(٣) انظر طريق الهجرتين وباب السعادتين ص ٢٧٦.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ١٠٣/٦.

اعتمادهـم على الله، وحسن ظنهم به أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها.

والتوكل هو عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله، وثقة به والتجاء إليه وتفويضاً إليه، ورضاً بما يقتضيه له لعلمه بكفايته سبحانه، وحسن اختياره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها، واجتهاده في تحصيلها».

وقد قرنه الله بالصبر في هذه السورة «مع أنه دخل فيه لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به»[1].

«فهما الخير كله والصبر، وتفويض الأمر إلى الله تعالى»[2].

والتوكل: اعتماد القلب على غيره، ولا يتوكل الإنسان على غيره إلا إذا اعتقد فيه أشياء الشفقة والقوة والهداية، وهذه بيد الله سبحانه، وءذا ثبت في النفس أنه لا فاعل سواه مع العلم بتمام قدرته ورحمته فليس وراء قدرته قدرة، ولا وراء علمه علم، ولا وراء رحمته رحمة، فلا بد من الاتكال عليه وحده لا محالة، وعدم الالتفات إلى غيره بوجه. . .

فلا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين[3].

قال الإمام أحمد: «التوكل عمل القلب»، ومعنى ذلك أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح، ولا هو من باب العلوم والإدراكات[4]، فإذا أفرد لفظ العبادة دخل فيه التوكل». فإنه من عبادة الله تعالى[5] كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٠﴾ [المجادلة: ١٠].

وقال سبحانه: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦/١٠٣.
(٢) البحر المحيط: ٧/١٥٧.
(٣) انظر منهاج القصادين: ٣٣٢.
(٤) انظر مدارج السالكين: ٢/١١٩.
(٥) جامع الرسائل والمسائل لابن تيمية: ١/٩١.

﴿ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [المائدة: ٢٣].

فالآيتان دليل على أنه عبادة وصرفها لغير الله شرك.

قال ابن تيمية: «والاعتماد على المخلوق والتوكل عليه يوجب الضرر، فما علق أحد رجاءه وتوكله بغير الله، إلا خاب فيما تعلق به»[1].

قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ ﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢].

فيجب إخلاص التوكل لله جل وعلا.

وهو من أفضل العبادات، وأعلى مقامات التوحيد، بل لا يقوم به على الوجه الأكمل إلا خواص المؤمنين كما في حديث السبعين ألفاً.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: «عرضت على الأمم فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت يا جبريل، هؤلاء أمتي، قال لا، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم، ولا عذاب، قلت: ولم، قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، فقام إليه عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: اللهم اجعله منهم ثم قام إليه رجل آخر قال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: سبقك بها عكاشة»[2].

والتوكل والاعتماد على الله لا ينافي العمل وفعل الأسباب، لأن الرسول ﷺ خير من توكل على الله، مع أنه لم يترك العمل، وهذا واضح من سيرته ﷺ، فكان يلبس لامته ودرعه بل ظاهر يوم أحد بين درعين، واختفى في الغار ثلاثاً، فكان متوكلاً في السبب لا على المسبب»[3].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/ ٢٩.

(٢) صحيح البخاري: ٧/ ١٩٨، كتاب الرقاق باب ٥٠، واللفظ له. وبلفظ صحيح مسلم: ١/ ١٩٩ كتاب الإيمان باب ٩٤.

(٣) الروح لابن القيم: ٢٥٤، وانظر مدارج السالكين: ٢/ ١٢٤، وانظر الفتاوى: ٨/ ٥٣٠.

والله عز وجل يقتضي الشيء بحصول سببه، فكون الشيء مقدر على الإنسان فكذلك سببه مقدر، فمثلاً الولد يحصل بسبب الجماع، والشبع يحصل بسبب الأكل، والحج يحصل بالوصول إلى مكة، فلا بد من سفر، والجنة تحصل بسبب الإسلام والعمل الصالح، والطعام ينضج بإيقاد النار تحته.

فلو أن منكروا الأسباب قالوا: إذا كان قضى الله حصول الولد، والشبع، والري، والحج ونحوها فلا بد أن يصل إليّ تحركت أو سكنت، وتزوجت أو تركت، سافرت أو قعدت، وإن لم يكن قضى لي لم يحصل لي أيضاً فعلت أو تركت، فهل يعد هذا من جملة العقلاء، وهل البهائم إلا أفقه منه، فإن البهيمة تسعى في السبب بالهداية العامة.

وقد قال ﷺ: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[1].

فدلل على أنها تغدو وتبحث عن رزقها ولكن بما أن ليس لها عقل تهتدي به قد تكفل الله برزقها، فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه، كالدعاء، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها»[2].

وكون التوكل عبادة لله عز وجل، هو أن التوحيد لا يتم إلا به فهو حقيقة توحيد القلب، فمتى كان فيه من علائق الشرك فتوكله معلول ناقص، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه فنقص توكله بقدر ذلك، ولذلك ظن بعض الجهلة أن رفض الأسباب حق، وهذا خطأ لأنه قدح في الشرع، وإنكارها نقص في العقل، والاعتماد عليها شرك وقدح في التوحيد، والسلامة من ذلك معرفة طبيعة الأسباب، والعمل بالمشروع منها، وعدم الاعتماد عليها، بل على الله وحده، فمن تمام التوكل اعتماد القلب على الله، واستناده وسكونه إليه، ومن تمامه حسن الظن بالله، لأن ذلك يدعو إلى التوكل عليه أن ولا يتصور التوكل على من ساء ظنك به،

---

(١) تقدم تخريجه في ص ٨ من المقدمة.

(٢) مدارج السالكين: ٢/ ١٢٥.

ولا التوكل على من لا ترجوه.

ومن تمام التوكل التفويض وهو روحه ولبه وحقيقته، وهو إلقاء أموره كلها إلى الله وإنزالها به طلباً واختياراً لا كرهاً واضطراراً، فإنه إذا فعل ذلك وصل إلى درجة الرضى بالله وهو ثمرة التوكل، وقد قال ﷺ في دعاء الاستخارة: «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: في عاجل أمري وآجله فأقدره لي، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال: في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي من الخير حيث كان ثم رضني به ويسمي حاجته»[1].

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الإلهية والحقائق الإيمانية التي من جملتها التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور، والرضا بعده وهو ثمرة التوكل فإنه إن لم يرضى بما قدر له فتفويضه معلول فاسد[2].

وكلما كان العبد لربه أعرف كان توكله عليه أقوى، فالتوكل له تعلق بأسماء الله وصفاته، فمن عرف أنه الله هو الغفار التواب العفو الرؤوف الرحيم، فإنه يتوكل عليه في حصول المغفرة والتوبة والعفو والرأفة والرحمة، ومن عرف أنه المعز المذل ـ الخافض الرافع فإنه يتوكل عليه في حصول المعزة للإسلام والمسلمين والذلة لأعداء الدين، وهكذا.

وينبغي أن يصرف العبد توكله في الهمم العالية كزيادة الإيمان والعلم ونصرة الدين وقمع المبتدعين، ومعالم المسلمين[3].

قال ابن تيمية: «فمن ظن أن التوكل من المقامات العامة وظن أن التوكل لا يطلب به إلا حظوظ الدنيا، وهو غلط، بل التوكل في الأمور الدينية أعظم، وأيضاً

---

(١) صحيح البخاري: ٧/ ١٦٢، كتاب الدعوات باب ٤٨ واللفظ له، وبلفظه في سنن أبي داود: ٢/ ١٨٧ كتاب الصلاة باب ٣٦٦، سنن الترمذي: ٢/ ٣٤٥ كتاب الصلاة باب ٣٤٠، النسائي: ٦/ ٨٠ النكاح، ابن ماجة: ١/ ٤٤٠ كتاب إقامة الصلاة باب ١٨٨، المسند: ٣/ ٢٤٤.

(٢) انظر الفتاوى: ١٠/ ٣٧، ومدارج السالكين: ٢/ ١١٩.

(٣) انظر مدارج السالكين: ٢/ ١١٩.

التوكل من الأمور الدينية التي لا تتم الواجبات والمستحبات إلا بها، والزاهد فيها زاهد فميا يحبه الله ويأمر به، ويرضاه، وأيضاً فإن التوكل هو محبوب لله مرضي له مأمور به دائماً، وما كان محبوباً لله مرضياً له مأموراً به دائماً لا يكون من فعل المقتصدين دون المقربين(١). اهـ.

ومن ثمرات التوكل على الله أن من توكل عليه كفاه وقد بين الله ذلك في القرآن كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقال سبحانه: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٣].

أي كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش...

وقال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجاً وكفاه ونصره(٢).

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣].

قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾(٣) [آل عمران: ١٧٣].

وأن الله عز وجل يكفي من توكل عليه لا يعني هذا ترك العمل بالأسباب(٤).

---

(١) الفتاوى: ١٠/ ٢٠ـ ٢١.
(٢) تيسير العزيز الحميد: ٥٠١.
(٣) صحيح البخاري: ٥/١٧٢ كتاب التفسير باب ١٣، وبنحوه في مستدرك الحاكم: ٢/٢٩٨ كتاب التفسير.
(٤) تقدم في ص ١١٠ من هذا البحث.

ومن العبادات الواردة في السورة:
قراءة القرآن ـ والصلاة ـ والذكر

قد ورد ذكر هذه العبادات في السورة في آية واحدة هي قوله سبحانه: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فأولها تلاوة القرآن وهو من أفضل العبادات حثّ الله عليها في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، ورتب عليها الأجر الكثير والثواب الجزيل، لأنها تدل على صدق المحبة، لأن من تحبه تطيع أوامره، وتحب ترديد كلامه، وقد أمر الله رسوله بتلاوة كتابه، والأمر للرسول أمر لأمته، إلا إذا ورد تخصيص أو قرينة تصرفه عن الأمة[1] ولم يوجد هنا.

ومما ورد في فضل تلاوة القرآن قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر: ٢٩].

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[2].

وقوله ﷺ: «يؤتي بقارىء القرآن يوم القيامة فيقال له اقرأ وأرق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ»[3].

---

(١) انظر التمهيد في أصول الفقه: ١/٢٧٨، والبرهان للجويني: ١/٣٦٨، وبيان المختصر شرح مختصر ابن الحاجب: ١/٤٨٨.

(٢) صحيح البخاري: ٦/١٠٨، كتاب فضائل القرآن باب ٢١، مسند أبي داود: ٢/١٤٧ كتاب الصلاة باب في ثواب قراءة القرآن: ٣٤٩ عن عثمان، سنن الترمذي: ٥/١٧٥ كتاب فضائل القرآن باب ١٥ عن علي رضي الله عنه، سنن ابن ماجة: ١/٧٦، ٧٧، المقدمة باب ١٦، سنن الدارمي: ٢/٣١٤ فضائل القرآن، باب ٢.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٢/١٩٢ عن عبدالله بن عمرو، وفي: ٢/٤٧١ عن أبي هريرة أو أبي سعيد، سنن أبي داود: ٢/١٥٣ عن عبدالله بن عمرو، كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة، ٣٥٥، سنن الترمذي: ٥/١٧٧ عن عبدالله بن عمرو، كتاب فضائل القرآن، باب ١٨ حديث ٢٩١٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وبلفظ قريب منه في سنن ابن ماجة: ٢/١٢٤٢ عن أبي سعيد، كتاب الأدب، باب ثواب القرآن: ٥٢ حديث ٣٧٨٠، ومسند أحمد: ٣/٤٠.

وصاحب القرآن في غبطة عظيمة لقوله ﷺ: «لا تحاسد إلا في اثنتين رجل أتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل والنهار، يقول لو أوتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل، ورجل أتاه الله مالاً ينفقه في حقه فيقول أو أوتيت مثل ما أوتي هذا لفعلت كما يفعل»[1].

والأحاديث كثيرة في فضل قراءة القرآن إذا كانت خالصة لله، أما إن خلت من ذلك ففيها الوعيد الشديد، يقول ﷺ: «يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وعملكم مع عملهم ويقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر في النصل لا يرى شيئاً وينظر في القدح فلا يرى شيئاً وينظر في الريش فلا يرى شيئاً، ويتمارى في الفوق»[2]، والمقصود أنهم يخرجون من الإسلام كالسهم الذي يضرب به العدو ويخرج ويرجع إلى صاحبه فينظر إليه وإذا هو لم يصبه الدم لا في نصله، ولا قدحه ولا ريشه ولا فوقه[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف

---

(١) صحيح البخاري: ٨/ ١٢٩، كتاب التمني باب ٥ واللفظ له، وفي ٨/ ٢٠٩ كتاب التوحيد باب ٤٥، صحيح مسلم: ١/ ٥٥٨، كتاب صلاة المسافرين، باب ٤٧، حديث: ٢٦٦، كما أخرجه الترمذي والدارمي وابن ماجة والإمام أحمد.

(٢) صحيح البخاري: ٦/ ١١٥، كتاب فضائل القرآن، باب ٣٦، واللفظ له ومواضع أخرى، صحيح مسلم: ٢/ ٧٤٣، كتاب الزكاة باب ٤٧ حديث ١٤٧، عن أبي سعيد، وفي مواضع أخرى بألفاظ متقاربة، كما أخرجه الإمام أحمد وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والدارمي ومالك بألفاظ متقاربة. ويتمارى في الفوق: أي يتشكك في الفوق هل بقي فيها شيء من الدم. والفوق يذكر ويؤنث وهو موضع الوتر من السهم. فتح الباري: ١٢/ ٢٩٠.

(٣) انظر فتح الباري: ١٢/ ٢٩٤.

المال كله، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، فقال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار»[1].

فلا بد من الإخلاص في كل العبادات حتى القرآن.

ومن تلاوة القرآن العمل به، فالأمر بالتلاوة إذا أطلق يشمل التلاوة اللفظية والمعنوية، وهي العمل به، كما فسر ذلك ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [البقرة: ١٢١].

قال: «يحلون حلاله، ويحرمون حرامه ولا يحرفونه»، وقيل يتبعونه حق اتباعه[2].

ومن تمام تلاوة القرآن أن يفهم معناه ويعمل به كما درج على ذلك سلف الأمة، فعن أبي عبدالرحمن السلمي[3] قال: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً»[4].

وعلى هذا فتلاوة القرآن تشمل جميع العبادات التي أمر الله بها، لأن الإتيان بها من العمل بالقرآن، ومن ذلك الصلاة حيث عطفها عليه، وهذا من عطف

---

(١) صحيح مسلم: ٣/ ١٥١٤ كتاب الإمارة باب ٤٣، مسند الإمام أحمد: ٢/ ٣٢٢، سنن النسائي: ٦/ ٢٣ كتاب الجهاد: من قاتل ليقال فلان جريء.

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن: ١/ ٥١٩.

(٣) هو: عبدالله بن حبيب بن ربيعة الكوفي من أولاد الصحابة، ولد في حياة الرسول ﷺ، مقرىء الكوفة، سمع من كبار الصحابة منهم عمر، وعثمان، وعلي وابن مسعود، وحدث عن بعضهم، أخذ عنه القرآن عاصم بن أبي النجود ويحيى بن وثاب، وعطاء وغيرهم، وعرض عليه الحسن والحسين رضي الله عنهما، أقرأ الناس أربعين سنة، توفي سنة ٧٤ أو ٨٠ هـ. (حلية الأولياء: ٤/ ١٩١، سير أعلام النبلاء: ٤/ ٢٦٧).

(٤) أخرجه الطبري بسندين، الأول عن ابن حميد عن جرير عن عطاء: ١/ ٣٦، والثاني عن الحسين بن واقد عن الأعمش عن شقيق عن ابن مسعود: ١/ ٣٥، وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه: ١٠/ ٤٦٠، وانظر طبقات ابن سعد: ٦/ ١٧٢، وانظر سير أعلام النبلاء: ٤/ ٢٦٩ ـ ٢٧١.

الخاص على العام، قال الإمام أحمد وغيره: «تلاوة الكتاب العمل بطاعة الله كلها ثم خصّ الصلاة بالذكر»[1].

وثانيها الصلاة وقد تقدم الكلام عليها وبيان أنها الركن الثاني من أركان الإسلام وذلك في صفحة ٣١، ومن المناسب أن أذكر بعض فوائدها هنا كما بينها الله سبحانه وتعالى في هذه السورة بقوله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فالفحشاء كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشتهيها النفوس، والمنكر كل معصية تنكرها العقول والفطر[2].

وإذا كان عند العبد رغبة صادقة في اجتناب الفحشاء والمنكر، فإنه يستعين بالصلاة، قال سبحانه: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٥].

فوجه كونها تنهي، أن العبد المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها يستنير قلبه ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تنعدم رغبته في الشر، وهذا من أعظم مقاصد الصلاة وثمراتها[3].

فعن ابن مسعود وابن عباس: «إن في الصلاة منتهى ومزدجراً عن معاصي الله فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بصلاته عن الله إلا بعداً»[4].

وقوله: «لم يزدد إلا بعداً» إذا كان ما ترك من الواجبات منها أعظم مما فعله، أبعده ترك الواجب الأكثر من الله أكثر مما قربه فعل الواجب الأقل[5]. يشهد لذلك قول الرسول ﷺ: «تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق يجلس يرقب

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ١٦٧.
(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦/ ٩١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦/ ٩١.
(٤) ذكره ابن تيمية في الفتاوى: ٧/ ٣٠، وجزء الأخير ذكره ابن كثير في التفسير: ٣/ ٦٦١، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ٣/ ٣٤٨. من قوله من لم تنهه صلاته.
(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ٣٠.

الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً»[1].

وقد قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن العبد ليصلي الصلاة ما يكتب له منها إلا عشرها، تسعها، ثمنها، سبعها، سدسها، خمسها، ربعها، ثلثها، نصفها»[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا وإن لم يؤمر بإعادة الصلاة عند أكثر العلماء لكن يؤمر بأن يأتي من التطوعات ما يجبر نقص فرضه، ومعلوم أن من حافظ على الصلاة بخشوعها الباطن وأعمالها الظاهرة، وكان يخشى الله الخشية التي أمره بها، فإنه يأتي بالواجبات، ولا يأتي كبيرة[3]. أهـ.

قال أبو العالية[4] في قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال: إن الصلاة فيها ثلاث خصال، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه

---

(١) صحيح مسلم: ١/٤٣٤، كتاب المساجد باب ٣٤ حديث رقم ١٩٥ عن أنس بن مالك، سنن الترمذي: ١/٣٠١ كتاب الصلاة باب ١٢٠ حديث ١٦٠، سنن النسائي: ١/٢٥٤، كتاب المواقيت، موطأ مالك: ١/٢٢٠ كتاب القرآن باب ١٠ حديث ٤٦، سنن أبي داود: ١/٢٨٨، كتاب الصلاة باب ٥، حديث رقم ٤١٣.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٤/٣١٩ ـ ٣٢١، سنن أبي داود: ١/٥٠٣ كتاب الصلاة باب ١٢٨ حديث ٧٩٦، وأخرجه المروزي في تعظيم قدرة الصلاة: ١/١٩٥ بطرق متعددة، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٢/٦٥، حديث ١٦٢٢.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٧/٣١.

(٤) هو: رفيع بن مهران الإمام المقرىء الحافظ المفسر، كان مولى لامرأة من بني رياح بن يربوع، أسلم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وسمع من عمر، وعلي وأبي، وأبي ذر، وابن مسعود، وعائشة، وغيرهم، وقرأ عليه: أبو عمر بن العلاء، وشعيب بن الحبحاب، وآخرون. كان ابن عباس يرفعه فوق السرير لعلمه، مات سنة ٩٣ هـ.

التاريخ الكبير: ٣/٣٢٦، طبقات ابن سعد: ٧/١١٢، حلية الأولياء: ٢/٢١٧ وغيرها.

الخصال فليست بصلاة، الإخلاص، والخشية، وذكر الله. فالإخلاص يأمره بالمعروف، والخشية تنهاه عن المنكر، وذكر الله القرآن يأمره وينهاه»[1].

ومتى يكون النهي عن الفحشاء وهل هو في حال الصلاة أم في خارجها؟ قيل أنها تنهاه ما دام فيها فإنه إذا اشتغل بالصلاة يترك غيرها حتى الدنيا لأنه منشغل عنها بصلاته[2]، وهذا «صحيح» لكن ليس هو المراد، لأن هذا ليس مدحاً للصلاة، لأن غيرها من الأشغال كثيراً ما يكون كذلك كالنوم وغيره.

وقيل إنه خبر بمعنى الأمر، ولينتهي المصلي عن الفحشاء والمنكر[3].

فإذا لم يحصل ذلك تكون ناقصة لما تقدم عن ابن مسعود، وابن عباس «من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً»[4].

والصحيح أن الإنسان إذا أداها كما ينبغي وتدبر ما يتلو فيها نهته، وهذا مقتضى وجوبها، لأنها سبب للنهي، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إن فلاناً يصلي بالليل وإذا أصبح سرق، قال ﷺ: سينهاه ما تقول[5].

والصلاة تشغل كل بدن المصلي، فإذا خشع وأخبت لربه وذكر أنه واقف بين يديه مطالع عليه، صلحت لذلك نفسه، وتذللت وخامرها ارتقاب الله تعالى وظهرت على جوارحه هيبتها، ولم يكن يفتر من ذلك حتى تظله صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حاله، فهذا معنى الإخبار لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون[6].

ومن فوائد الصلاة ذكر الله عز وجل، وهو أعظم الفوائد، فقوله سبحانه:

بيان «لحصول محبوب وهو أكبر من دفع المكروه، لأن ذكر الله عبادة لله مقصودة

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٦١.
(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣٤٧.
(٣) انظر الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ج٣٤.
(٤) تقدم ذلك في صفحة ١١٧.
(٥) مسند الإمام أحمد: ٢/ ٤٤٧، وأورده القرطبي في تفسيره: ١٣/ ٣٤٧ عن أنس.
(٦) انظر أحكام القرآن للقرطبي: ١٣/ ٣٤٨.

لذاتها، أما اندفاع الشر فهو مقصود لغيره على سبيل التبع»[1].

كما أن فيه بيان لما في الصلاة من المنفعة والمصلحة أي ذكر الله الذي فيها أكبر من كونها ناهية عن الفحشاء والمنكر.

ومن ظن أن المعنى ولذكر الله أكبر من الصلاة أخطأ فإن الصلاة أفضل من الذكر المجرد بالنص والإجماع، فهي ذكر لله على أكمل الوجوه، فكيف يفضل ذكر الله المطلق على أفضل أنواعه[2]، لأن الصلاة ذكر لله باللفظ والمعنى لأنها امتثال لأمر الله، ومثال ذلك قوله ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم»[3].

ولأن الصلاة تقام لأجل الذكر كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طـه: ١٤].

ومعنى ذكر الله أكبر فيه عدة أقوال منها:

١ ـ ذكر الله لكم بالثواب والثناء عليكم أكبر من ذكركم له في عباداتكم وصلواتكم، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

٢ ـ وقيل أن ذكركم الله في صلاتكم وفي قراءة القرآن أفضل من كل شيء، لأن الله إنما خلق الخلق لعبادته وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عبوديات الجوارح كلها ما ليس في غيرها، ولهذا قال: «ولذكر الله أكبر».

٣ ـ وقيل أن ذكر الله في الصلاة أفضل من الذكر في غيرها، لأنها عبادتان.

٤ ـ وقيل أن ذكر الله في الصلاة أكبر من الصلاة لأن المقصود منها إقامة ذكر الله، أو أنه أكبر مما تنهاك عنه من الفحشاء والمنكر.

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٠/١٨٨.

(٢) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٢٠/١٩٣.

(٣) أخرجه الحاكم: ١/٣٠٨، وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، السنن الكبرى للبيهقي: ٢/٥٠٢، سنن الترمذي: ٥/٥٥٣، كتاب الدعوات باب ١٠٢ حديث ٣٥٤٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٤/٥٠، رقم: ٣٩٥٨، وحسنه في إرواء الغليل: ٢/١٩٩ رقم ٤٥٢ وانظر تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ٢/٨٨٨، حديث: ١١٦٩.

٥ ـ وقيل إن المعنى أن الصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وسماها بذكر الله لأن ذكر الله أعظم ما فيها[١].

وذكر الله عز وجل في الصلاة وغيرها إذا كان مع الإخلاص والعلم والإقبال على الله فهو من أفضل الأعمال، وأحبها إلى الله عز وجل ولو أن ما فيه إلا قول الرب جل وعلا في الحديث القدسي لكفى، وهو: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[٢].

وقد قال ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم، قالوا: بل يا رسول الله، قال: ذكر الله»[٣].

والذاكر لله شبيه بالحي لما في قلبه من الحياة لأنه عمل من أجل ما أحيي له بخلاف المعرض، فإنه لم يقم بالواجب الذي كلف به، لذلك يقول المصطفى ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت»[٤].

والنصوص في فضل الذكر كثيرة جداً، وله من الفوائد والثمار العظيمة ما الله

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن: ٣٤٩/١٣، وانظر تفسير القرآن العظيم: لابن كثير: ٦٦٢/٣، وانظر زاد السير في علم التفسير: ٢٧٤/٦.

(٢) صحيح البخاري: ١٧١/٨ كتاب التوحيد باب ١٥ واللفظ له، صحيح مسلم: ٢٠٦١/٤، كتاب الذكر باب ١ حديث ٢٦٧٥ وباب ٦ ـ ص ٢٠٦٧، حديث ٢١، سنن الترمذي: ٥٨١/٥ كتاب الدعوات باب ١٣٢ في حسن الظن بالله عز وجل، حديث ٣٦٠٣، كما أخرجه ابن ماجة وأحمد.

(٣) مسند أحمد: ١٩٥/٥ عن أبي الدرداء وفي: ٢٣٩/٥ عن معاذ، وفي ٤٤٧/٦ عن أبي الدرداء بألفاظ متقاربة.

موطأ الإمام مالك: ٢٢١/١ كتاب القرآن باب ٧ حديث ٢٤ عن أبي الدرداء، وعنه في سنن الترمذي: ٤٥٩/٥، كتاب الدعوات باب ٦ حديث ٣٣٧٧، وسنن إن ماجة: ١٢٤٥/٢ كتاب الأدب، فضل الذكر ٥٣ حديث ٣٧٩٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٣٧٠/٢، حديث ٢٦٢٦.

(٤) صحيح البخاري: ١٦٨/٧ كتاب الدعوات باب ٦٦، صحيح مسلم: ٥٣٩/١ كتاب صلاة المسافرين باب ٢٩ حديث ٢١١ بلفظ: «مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت».

به عليم، حتى أن ابن القيم رحمه الله ذكر له أكثر من مائة فائدة مستنبطة من أحاديث فضل الذكر والأمر به منها: أنه يرضي الرحمن ـ ويطرد الشيطان ـ ويجلب الفرح ـ ويزيل الهم ـ ويجلب الرزق، ويورث المحبة التي هي روح الإسلام(١).

بـــر الوالديـــن

من أنواع العبادة المذكورة في السورة (بر الوالدين) فإنه عبادة يتقرب إلى الله عز وجل بها، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقد قرن الله عز وجل طاعته بالإحسان إليهما في غير هذه الآية حيث قال سبحانه: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقوله سبحانه: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦].

والآيات في ذلك كثيرة، والآية التي في سورة العنكبوت وغيرها كما في لقمان والأحقاف تدل على أهمية هذا الحق، حيث أنه أتى به من باب الوصية تأكيداً للاهتمام به.

كما أمر بمصاحبتهما بالمعروف وحتى ولو كانا مشركين، كما يدل على ذلك سبب نزول الآية الأولى، فقد نزلت في سعد بن أبي وقاص حينما أسلم قالت له أمه: أليس الله أمرك بالبر؟ والله لا أطعم طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها، فنزلت الآية(٢).

---

(١) انظر فضائل الذكر والدعاء لابن القيم ص ٥٠.

(٢) القصة جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند: ١٨١/١، والترمذي في سننه: ٣٤١/٥ كتاب =

فأمر بالإحسان إليهما مع البقاء على دينه والتمسك به، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [لقمان: ١٤ ـ ١٥].

فالآية دليل على صلة الأبوين الكافرين بما أمكن من المال، إن كانا فقيرين وإلانة القول والدعاء إلى الإسلام برفق، وانظر إلى تلطف إبراهيم عليه السلام مع أبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ ﴾ [مريم: ٤٣].

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: «قدمت على أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصل أمي، قال: نعم صلي أمك»[(١)].

فالله تعالى أمر عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحثّ على التمسك بتوحيده، «فإن الوالدين هما سبب وجود الإنسان ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق، والوالدة بالإشفاق»[(٢)]، ولهذا قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٤].

= التفسير باب ٣٠، و ٣١٨٩ وقال: هذا حديث حسن صحيح، وفي صحيح مسلم: ٤/ ١٨٧٧، ١٨٧٨، كتاب فضائل الصحابة باب ٥، حديث ١٧٤٨، انظر أسباب النزول للواحدي: ٣٩٤، وذكرها ابن كثير في تفسيره: ٣/ ٦٤٦ ـ ٧٠٨، وانظر الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ٦٤، وانظر الدر المنثور: ٥/ ١٤١ ـ ١٤٢.

(١) صحيح البخاري: ٣/ ١٤٢، كتاب الهبة باب ٢٩، واللفظ له، وكتاب الأدب: ٧/ ٧١ باب ٨، وكتاب الجزية: ٤/ ٧٠ باب ١٨، صحيح مسلم: ٢/ ٦٩٦، كتاب الزكاة باب ١٤ جـ ٥٠، مسند أحمد: ٦/ ٣٤٤ ـ ٣٤٧ ـ ٣٥٥ بألفاظ متضاربة.

(٢) ابن كثير: ٣/ ٦٤٦.

والله عز وجل نهى عن أقل المكروه وهو أن يؤفف لهما وهو ما يظهر بتنفسه المردود من الضجر[1].

ومن عظم حقهما أن برهما لا ينقطع أبداً حتى ولو ماتا، فعن أبي أسيد وكان بدرياً، قال: كنت عند النبي ﷺ جالساً فجاء رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله هل بقي من بر والدي من بعد موتهما شيء أبرهما به؟ قال: نعم، الصلاة عليهما[2]، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما، فهذا الذي بقي عليك»[3].

وقال ﷺ: «إن من أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه»[4].

وبر الوالدين من الأعمال الصالحة التي يتوسل بها إلى الله عز وجل مصداق ذلك ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم يمشون إذ أصابهم مطر فآووا إلى غار فانطبق عليهم، فقال بعضهم لبعض أنه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق، فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه قد صدق فيه، فدعوا وكان من دعاء الثاني منهم أنه قال: اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكانت لي غنم وكنت آتيهما في كل ليلة بلبن غنم لي، فأبطأت عنهما ذات ليلة فأتيتهما وقد رقدا وأهلي وعيالي يتضاغون من الجوع، وكنت لا أسقيهم حتى يشرب أبواي فكرهت أن أوقظهما من رقدتهما، وكرهت أن أرجع فيستيقظا لشربهما فلم أزل انتظرهما حتى طلع الفجر، فقاما وشربا، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، فانساحت عنهم الصخرة حتى نظروا إلى السماء. . . الحديث»[5].

---

(١) أحكام القرآن للقرطبي: ٣/١١٩٨.

(٢) أي الدعاء لهما.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٣/٤٩٨، سنن أبي داود: ٥/٣٥٢ كتاب الأدب باب ١٢٩ حديث ٥١٤٢، سنن ابن ماجة: ٢/١٢٠٨، كتاب الأدب باب ٢، حديث: ٣٦٦٤، المستدرك: ٤/١٥٤ ـ ١٥٥، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٤) صحيح مسلم: ٤/١٩٧٩ البر باب فضل صلة أصدقاء الأب واللفظ له، سنن أبي داود: ٥/٣٥٢ الأدب باب في بر الوالدين، سنن الترمذي: ٤/٣١٣، البر باب ما جاء في إكرام صديق الوالد، مسند أحمد: ٢/٨٨، ٩١، ٩٧، ١١١.

(٥) جزء من حديث في صحيح البخاري: ٤/١٤٧ ـ ١٤٨ كتاب الأنبياء باب ٥٣، وكتاب الحرث والمزارعة: ٣/٦٩ باب ١٣، وكتاب الإجارة ٣/٥١ باب ١٢ وأخرجه الإمام أحمد في المسند: =

ومن العبادات في السورة (الدعوة إلى الله)

قال الله تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ففي الآية الأمر بدعوة أهل الكتاب بالحسنى إلى الدين الإسلامي، وقد تقدم تعريف الدعوة[١]، وسيأتي الكلام على أساليبها[٢]، وهي وظيفة الرسل عليهم السلام، وقد أمر الله بها وحث عليها في آيات كثيرة منها قوله سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت: ٣٣].

فهذه الآية من أوضح الآيات في الدلالة على فضل الدعوة وأنها من أهم القربات، ومن أفضل الطاعات، وأن أهلها في غاية من الفرح، قال تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨].

ومن الدلالة على فضلها من السنة قوله ﷺ: «ومن دل على خير فله مثل أجر فاعله»[٣].

وقيام الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بنفسه على أكمل وجه، فقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، ومن ذلك إرساله الكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وإرساله الدعاة إلى الأمصار، فقد أرسل علياً يوم خيبر، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه: «سمع النبي ﷺ يقول يوم خيبر: لأعطين الراية رجلاً يفتح الله على يديه، فقاموا يرمون لذلك أيهم يعطى فغدوا، وكلهم يرجو أن يعطى، فقال: أين علي، فقيل يشتكي عينيه، فأمر فدعي له،

= ١١٦/٢، وصحيح مسلم: ٢٠٩٩/٤، كتاب الذكر، باب ٢٧ حديث ٢٧٤٣.

(١) تقدم في ص: ١٢.

(٢) يأتي في صفحة: ٢١٣.

(٣) صحيح مسلم: ١٥٠٦/٣ كتاب الإمارة باب ٣٨ حديث: ١٣٣، مسند الإمام أحمد: ١٢٠/٤، ٥/ ٢٧٢، ٢٧٣، عن ابن مسعود، مسند أبي داود: ٣٤٦/٥، كتاب الأدب باب في الدال على الخير: ١٢٤، سنن الترمذي: ٤١/٥ كتاب العلم باب ما جاء الدال على الخير كفاعله: ١٤.

فبصق في عينيه، فبرأ مكانه حتى كأنه لم يكن به شيء، فقال: نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، فقال على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من خمر النعم»[1]، متفق عليه. وأرسل معاذاً إلى اليمن، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليكم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإنهم أطاعوا الله بذلك، فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب[2].

وما وصل إلينا هذا الخير وهذا الفضل إلا بسببه ﷺ، وبسبب دعوته وأمرنا بتبليغه للناس عامة حسب استطاعتنا فجزاه الله عنا خير ما جزى به نبي عن أمته.

الهجـــرة

الهجرة في اللغة الترك، وفي الشرع ترك بلد الكفر إلى بلد الإسلام، قال تعالى عن لوط: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٦ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

والهجرة قسمان، هجرة حسية، وهجرة معنوية، وكلاهما من العبادات التي يتقرب بهما إلى الله، حيث أن المراد من الهجرة هو إقامة شرع الله، فالهجرة

---

(١) صحيح البخاري: ٤/٥ كتاب الجهاد باب ١٠٢ وباب ١٤٣ ص ٢٠ وص ٢٠٧ من كتاب أصحاب النبي باب ٩، و ٥/٧٦ كتاب المغازي باب ٣٨.
صحيح مسلم: ٤/١٨٧٢ كتاب فضائل الصحابة باب ٤ حديث ٣٤، مسند أحمد: ١/٩٩ بلفظ قريب من هذا، وص ١٣٣ وص ١٨٥.

(٢) صحيح البخاري: ٥/١٠٩، كتاب المغازي باب ٦٠، و ٨/١٦٤، كتاب التوحيد باب ١، صحيح مسلم: ١/٥٠ و٥١ كتاب الإيمان باب ٧ حديث ٢٩ ـ ٣١، كما أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد والطيالسي وابن ماجة والدارمي وابن سعد في الطبقات.

المعنوية: هي الهجرة بالقلب إلى الله ورسوله، وهذه هي الهجرة الحقيقة وهي الأصل، والهجرة الحسية تابعة لها[1].

وقد قال النبي ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[2].

ولهذا يقرن الله عز وجل بين الإيمان والهجرة في مواضع كثيرة من القرآن لتلازمهما، واقتضاء أحدهما الآخر، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [العنكبوت: ٥٦].

والمقصود أن الهجرة إلى الله تتضمن هجران ما يكرهه وإتيان ما يحبه ويرضاه، وأصلها الحب والبغض، فإن المهاجرين من شيء إلى شيء لا بد أن يكون ما هاجر إليه أحب مما هاجر منه، فيؤثر أحب الأمرين إليه على الآخر، وءذا كان نفس العبد وهواه وشيطانه إنما يدعوانه إلى خلاف ما يحبه ويرضاه، وقد بلي بهؤلاء الثلاث، فلا يزالون يدعونه إلى غير مرضاة ربه، وداعي الإيمان يدعوه إلى مرضاة ربه، فعليه في كل وقت أن يهاجر إلى الله، ولا ينفك في هجرته إلى الممات.

وهذه الهجرة تقوى وتضعف بحسب داعي المحبة في قلب العبد، فإن كان الداعي أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتم، وأكمل. وإذا ضعف الداعي ضعفت الهجرة حتى لا يكاد يشعر بها علماً، ولا يتحرك لها إرادة، وهذه هي الهجرة الدائمة الواجبة على مدى الأنفاس[3].

والهجرة إلى الله متضمنة الهجرة إلى رسوله ﷺ باتباع شرعه، وهذا ما تقدم بيانه في شرطي قبول العمل، وهذا ما تضمنته شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فدل على ذلك قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته

---

(١) زاد المهاجر إلى ربه لابن القيم: ١٢.

(٢) صحيح البخاري: ٨/١، كتاب الإيمان باب ٤ ـ و٧/١٨٦ كتاب الرقاق باب ٢٦، سنن النسائي: ٨/١٠٥ كتاب الإيمان باب المسلم، مسند أحمد: ٢/١٦٣ ـ ١٩٢ ـ ٢٠٩ عن ابن عمر كما أخرجه أبو داود في مواضع أخرى.

(٣) زاد المهاجر إلى ربه لابن القيم: ١٥.

لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[1].

وأما الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فهذه لا تحصل إلا بعدما تحصل الهجرة المعنوية، فإن المسلم إذا قام أمر الله في قلبه فأنه إن كان محقاً فلا بد أن يبحث عن مكان يقيم فيه ما أمره الله به والجهر به، ومن هنا يأتي تحريم السفر إلى بلاد الكفار إلا إذا كان يظهر شعائر الدين، وإظهار شعائر الدين ليس المقصود به إقامة شعائره الظاهرة فقط، وإنما المراد مع ذلك الدعوة إليه والجهر بذلك.

وقد هاجر رسول الله ﷺ وهاجر أنبياء الله عليهم السلام كما قال الله عز وجل عن لوط: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

وهاجر الصحابة رضوان الله عليهم، كما قال الله سبحانه وتعالى مادحاً لهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وأمر الله عز وجل بالهجرة فقال سبحانه: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

والهجرة عبادة لله عز وجل للقيام بما أوجبه الله من العبادات وإظهار دينه، فإذا حصل ذلك فلا هجرة، لذلك كانت واجبة على المسلمين في مكة حينما كانت دار حرب[2].

فلما فتحت انقطعت الهجرة منها، لذلك قال رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا»[3].

---

(١) صحيح البخاري: ١/ ٢٠ كتاب الإيمان باب ٤١، واللفظ له. و٣/ ١١٩، كتاب العتق باب ٦، و٦/ ١١٨ كتاب النكاح باب ٥، ٧/ ٢٣١ كتاب الأيمان باب ٢٣، صحيح مسلم: ٣/ ١٥١٥ كتاب الإمارة باب ٥، كما أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، والإمام أحمد.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٨/ ٢٨١.

(٣) صحيح البخاري: ٣/ ٢٠٠ كتاب الجهاد باب ١، وباب ٢٧ ص ٢١٠ وباب ١٩٤، ٤/ ٣٨، صحيح مسلم: ٣/ ١٤٨٨ كتاب الإمارة باب ١٩. سنن الترمذي: ٤/ ١٤٨ كتاب السير باب ٣٣ ما جاء في الهجرة، كما أخرجه الإمام أحمد في المسند، والنسائي وابن ماجه والدارمي.

أما بلاد الكفر فإن الهجرة منها واجبة، وذلك إذا لم يستطع إظهار شرائع الدين ـ لذلك قال ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[1].

ويقول ﷺ: «لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار»[2] فالمسلم إذا فتن في دينه فعليه بالهجرة إلى بلد يأمن فيه على دينه.

قال البيهقي[3] بعد أن ساق أحاديث انقطاع الهجرة، قال: «وكل ذلك يرجع إلى انقطاع الهجرة وجوباً عن أهل مكة وغيرها من البلاد بعدما صارت دار أمن وسلام، فأما دار حرب أسلم فيها من يخاف الفتنة على دينه وله ما يبلغه إلى دار السلام فعليه أن يهاجر»[4].

الجهـــاد

معنى الجهاد وحقيقته: الاجتهاد في حصول ما يحب الله من الإيمان والعمل الصالح، ومن دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان[5] أو هو «الدعاء

(١) سنن أبي داود: ٣/٧ رقم الحديث ٢٤٧٩ يحقق مسند أحمد: ٤/٩٩ عن معاوية، سنن الدارمي: ٢/١٥٧، كتاب السير باب ٧٠، السنن الكبرى للبيهقي: ٩/١٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٦/١٨٦ حديث ٧٣٤٦، والإرواء: ٥/٣٣ رقم ١٢٠٨، وسيأتي الكلام عن الهجرة في دعوة المؤمنين في السورة.

(٢) سنن النسائي: ٧/١٤٦ كتاب البيعة باب ذكر الاختلاف في انقطاع الهجرة، مسند أحمد: ١/١٩٢، عن ابن السعدي بلفظ لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل، وفي: ٤/٦٢، وفي ٥/٢٧٠، ٣٦٣، ٣٧٥، بألفاظ متقاربة وصححه الألباني وجعله مقوياً للحديث الذي قبله، انظر الإرواء: ٥/٣٣.

(٣) البيهقي هو: الحافظ العلامة الثبت الفقيه أبو بكر أحمد ابن الحسين ابن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، ولد سنة ٣٨٤ في شعبان، وسمع وهو ابن خمس عشرة سنة من أبي الحسن محمد بن الحسين العلوي، والحاكم ومحمش الفقيه، وعبد الله بن يوسف الأصبهاني، وغيرهم.

له السنن الكبرى، والسنن والآثار، والأسماء والصفات، والمعتقد، والبعث، والترغيب والترهيب وغيرها، وروى عنه خلق كثير منهم: أبو إسماعيل الأنصاري، ت ٥٣٦ هـ، (معجم البلدان: ١/٥٣٨)، (سير أعلام النبلاء: ١٨/١٦٣).

(٤) السنن الكبرى للبيهقي: ٩/١٧.

(٥) العبودية لابن تيمية: ٥١ ـ ٥٢.

إلى الدين الحق»[١].

وهذا شامل لجميع أنواع الجهاد من جهاد الإنسان لنفسه ولغيره وكل ذلك يحتاج إلى جهد ومشقة.

وقد أمر الله عز وجل بالجهاد في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، ومن ذلك ما ورد في السورة قوله سبحانه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [العنكبوت: ٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وبما أن الجهاد ـ أما للنفس أو للأعداء، فقد اختلف العلماء في الجهاد الوارد في السورة، هل يشملهما أو خاص بأحدهما.

فقال ابن جرير[٢] في الآية الأولى: «ومن يجاهد عدوه من المشركين فإنما يجاهد لنفسه، لأنه يفعل ذلك ابتغاء الثواب من الله على جهاده والهرب من العقاب»[٣].

ويقول في الآية الثانية: «والذين قاتلوا هؤلاء المفترين على الله كذباً من كفار قريش المكذبين بالحق لما جاءهم فينا مبتغين علو كلمتنا ونصرة ديننا»[٤].

فهو يذهب إلى أن الجهاد الوارد في السورة هو قتال الأعداء كما أن بعض العلماء يرى أنه أعم من ذلك.

قال الداراني[٥]: ليس الجهاد في الآية قتال الكفار فقط، بل هو نصر الدين

(١) التعريفات للجرجاني ص ٨٠.

(٢) هو محمد بن جرير الطبري، تقدمت ترجمته في ص ٤٩.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٠/ ١٣٠.

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢١/ ١٥.

(٥) هو: أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد بن عسكر العنسي الداراني، ولد سنة ١٤٠ هـ، روى عن سفيان الثوري، وأبي الأشهب العطاردي، وعبد الواحد ابن زيد البصري وغيره، روى عنه: أحمد بن أبي الحواري، وهاشم بن خالد، وحميد بن هشام العنسي، وإبراهيم الحوراني وغيرهم، ت ٢٢٥ هـ، لم يروي إلا حديثاً واحداً بسند وله حكم كثيرة. تاريخ بغداد: ١٠/ ١٤٨، سير أعلام النبلاء: ١٠/ ١٨٢.

والرد على المبطلين وقمع الظالمين، وعظمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن مجاهدة النفوس في طاعة الله وهو الجهاد الأكبر»[١].

قال ابن عطية[٢]: «فهي ـ أي الآية ـ قبل الجهاد العرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله وطلب مرضاته»[٣].

وقال الحسن البصري: «إن الرجل ليجاهد وما ضرب يوماً من الدهر بسيف»[٤].

والذي يترجح لي أن الجهاد الوارد في الآيتين عام، مع أن السورة مكية ولم يفرض القتال في مكة، كما قال مقاتل[٥]: «إن هذه الآيات نزلت قبل فرض القتال»[٦].

والجهاد الوارد في السورة يعم الجهاد، حسب شروعه فهو في وقت نزول الآيات خاص بجهاد النفس وصبرها على ما تلاقيه في سبيل الله كما يدل على ذلك أول السورة لكن هذا لا يمنع جهادها لما يشرع مستقبلاً من قتال العدو، أو غيره من زيادة تكاليف لعموم أدلة الجهاد في القرآن، ولأن جهاد النفس سبيل إلى جهاد الأعداء. يقول ﷺ في حجة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣٦٤.

(٢) هو: عبدالحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عطية المحاربي الأندلسي الغرناطي المالكي ولد سنة ٤٨٠ هـ، روى عن أبيه، والحافظ الغساني ومولى بن الطلاع، وابن البياز، وغيرهم. إماماً في الفقه والتفسير، والعربية، ذكياً فطناً مدركاً من أوعية العلم، حدث عنه أولاده، وأبو القاسم ابن حبيش الحافظ، وأبو محمد بن عبيدالله وغيرهم، ت سنة ٥٤١ هـ، سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٥٨٧.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٣/ ٣٦٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٥٤.

(٥) هو: كبير المفسرين أبو الحسن مقاتل بن سليمان البلخي، يروى عن مجاهد والضحاك وابن بريد وعطاء وابن سيرين وعمرو بن شعيب وغيرهم.
وعنه سعد بن الصلت، وبقية، وعبد الرزاق، والوليد بن يزيد وعلي بن الجعد وغيرهم.
قال ابن المبارك: «وأحسن ما أحسن تفسيره لو كان ثقة»، ت ١٥٠ هـ ونيف، طبقات ابن سعد: ٧/ ٣٧٣، سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٠١.

(٦) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣٦٤.

نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»[1].

قال الجنيد[2]: «والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطناً، فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه»[3] اهـ.

وقد علق الله سبحانه الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فإنه من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد»[4].

والجهاد بجميع أنواعه لا بد فيه من الإخلاص لله جل وعلا، كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

قال ابن عباس: «والذين جاهدوا في طاعتنا...»[5].

وقد سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل حميه ويقاتل شجاعة ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله، قال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله»[6].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في السمند: ٦/ ٢١ ـ ٢٢ واللفظ له، وابن ماجة في سننه: ٢/ ١٢٩٨، كتاب الفتن باب ٢ حديث ٣٩٣٤، وفيه المؤمن والمهاجر فقط، وفي المستدرك: ١/ ١٠ ـ ١١.
قال العراقي: رواه الطبراني والحاكم وصحيح من حديث فضالة بن عبيد، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين: ٣/ ١١٧٤، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٢/ ٨١.

(٢) هو الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي، ثم البغدادي القواريري شيخ الصوفية ولد سنة ٢٢٠ هـ ونيف، تفقه على أبي ثور، وسمع من السري السقطي، والحسن بن عرفة، والحارث المحاسبي، وأبا عمر البغدادي وأتقن العلم ثم أقبل على شأنه، وتأله وتعبد، ونطق بالحكمة، حدث عنه جعفر الخلدي، وأبو محمد الجريري، وأبو بكر الشبلي، ومحمد ابن حبيش، وغيرهم. ت ٢٩٨ هـ، تاريخ بغداد: ٧/ ٢٤١ سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٦٦.

(٣) الفوائد لابن القيم: ص ٥٨.

(٤) الفوائد لابن القيم: ص ٥٨.

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣٦٥ ويحقق كلام ابن عباس.

(٦) صحيح البخاري: ١/ ٤٠، كتاب العلم باب ٤٥، واللفظ في كتاب التوحيد: ٨/ ١٨٩ باب ٢٨، وصحيح مسلم: ٣/ ١٥١٣، كتاب الأمارة باب: ٤٢ حـ ١٥٠ ـ ١٥١. =

لذا فالجهاد من أعظم العبادات لله جل وعلا، لترتب عبادات أخرى عليه.

يقول ابن القيم[1]: «فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها: من الموالاة فيه سبحانه، والمعاداة فيه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الرب على محاب النفس»[2].

والمسلمون اليوم بحاجة إلى أن يقوموا بالجهاد بجميع أنواعه لأن فيه عزهم لقوله ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة[3] وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[4].

والمراد من الحديث عدم الركون إلى الدنيا، والإخلاد إلى الراحة، وليس المقصود ترك الأسباب والشريعة دلت على الجمع بين أسباب المعاش وإعلاء كلمة الله لتواتر الأحاديث بذلك، والمسلمون اليوم يجاهدون، ولكن غالب جهادهم انحرف عن معناه الصحيح، إذ لو كان صحيح لظهر النصر وقوى المسلمون لأن الرسول ﷺ قال: «لن يغلب إثنا عشر ألفاً من قلة»[5].

= كما أخرجه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه.

(١) تقدمت ترجمته ص: ٤٢.

(٢) مدارج السالكين: ٢/ ٢٠٥.

(٣) العينة: هي أن يبيع شيئاً من غيره بثمن مؤجل ويسلمه إلى المشتري ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن أقل من ذلك القدر، وسميت بذلك لحصول النقد لصاحب العينة، وهو المال الحاضر. (نيل الأوطار للشوكاني: ٦/ ٢٩٨).

(٤) الحديث أخرجه أبو داود في سننه: ٣/ ٧٤٠ كتاب البيوع، باب في النهي عن العيينة: ٥٦ حـ ٣٤٦٢، وصححه ابن القيم في التهذيب: ٥/ ١٠٤، وأخرجه الدولابي في الكنى: ٣/ ٦٥، من كنيته أبو عبدالرحمن، ومسند عبد الله بن عمر ٢٦ حديث ٢٢ بلفظ قريب من هذا، والبيهقي في السنن الكبرى: ٥/ ٣١٦، قال ابن التركماني في الحاشية وذكره ابن القطاه من وجه صحيح وقال: كل رجاله ثقات، وأخرجه أحمد في المسند: ٢/ ٢٨، بلفظ قريب من هذا. قال أحمد شاكر: إسناده صحيح: ٧/ ٢٧، حديث ٤٨٢٥، وصححه الألباني في السلسلة: ١/ ١٥ حديث ١١، وصحيح الجامع: ١/ ١٧٥ حديث ٤١٦.

(٥) سنن أبي داود: ٣/ ٨٢ كتاب الجهاد باب ٨٩، وهو جزء من حديث (خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمائة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يغلب إثنا عشر ألفاً من قلة».

والترمذي: ٤/ ١٢٥ كتاب السير باب ٧ وحسنه. والحاكم في المستدرك: ١/ ٤٤٣، وقال هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وفي المسند: ١/ ٢٩٤، وفي المنتخب لعبد بن=

فنسمع اليوم الجهاد من أجل الوطن، ومن أجل الحرية، والعروبة، حتى ألقى اسم الجهاد، وحول إلى ثورة، وكفاح، ونضال، وفداء، فاستبدل الإسم الشرعي والمعنى الشرعي لهذا الأمر العظيم فالذين يرفعون هذه الشعارات لا يلتزمون بشرع الله منهجاً وسلوكاً، فبماذا يكون الدفاع عن الوطن والحرية، أنه لا بد أن يكون بما شرع الله ـ لا بما تهوى النفوس والشهوات ولو خالف شرع الله فالذين يدافعون عن العروبة وباسم العروبة فأين هم من شرع الله، فإن في العرب اليهودي، والنصراني، والمشرك.

كما يوجد مسلمون غير عرب في شتى بقاع الأرض، فإلى أين ينتمون إذا تخلى عنهم المسلمون.

= حميد: ١/٥٥٦ حديث: ٦٥١، وفي سنن الدارمي: ٢/١٣٤، كتاب السير باب: ٤ حديث ٢٤٤٣ وغيرهم.

وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٣/١٢١، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٢/٧١٩ حـ ٩٨٦.

الفصل الثالث من الباب الأول
بقيــة أركــان الإيمــان

المبحث الأول: الإيمان بالملائكة.

المبحث الثاني: الإيمان بالكتب.

المبحث الثالث: الإيمان بالرسل.

المبحث الرابع: الإيمان باليوم الآخر.

المبحث الخامس: الإيمان بالقدر خيره وشره.

المبحث الأول
الركن الثاني من أركان الإيمان
الإيمان بالملائكة

وقد وردت الإشارة إليهم في هذه السورة بقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [العنكبوت: ٣١].

ولم يرد التفصيل في شأنهم، وإنما دل القرآن في غير هذه السورة على وجوب الإيمان بهم في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فلا يتم الإيمان بالله إلا بالإيمان بالملائكة، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: ٩٨].

والآية الواردة في السورة تدل على أنهم رسل من رسل الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، حيث أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط حينما عصوا أمر الله.

والله عز وجل كلفهم بأعمال مختلفة حسب ما يؤمرون به، لا يفترون عن عبادة الله كما قال سبحانه: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون

وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله»[1] الحديث.

فالإيمان بالملائكة هو الاعتقاد الجازم بأن لله تعالى خلقاً أسماه الملائكة، خلقهم الله من نور، ومنهم من أعطاه الله قدرة على التمثل بأنواع مختلفة الشكل بإذن الله تعالى مناسبة للحال التي يأتون فيها»[2].

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[3].

ونحن نؤمن بهم على سبيل الإجمال كما تقدم وكما في حديث أبي ذر وكما في حديث المعراج وفيه: «فرفع لي البيت المعمور فسألت جبريل فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم»[4] الحديث.

والإيمان بهم على سبيل التفصيل، فنؤمن بمن أخبرنا الله عنهم كجبريل وميكال وإسرافيل والحفة... ومالك، وملك الموت، وملك الجبال وغيرهم مما أخبرنا الله عنهم تفصيلاً.

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي: ٤/٥٥٦ كتاب الزهد باب ٩ وقال: هذا حديث حسن غريب، وابن ماجة: ٢/١٤٠٢ كتاب الزهد باب ١٩، والحاكم: ٢/٥١٠، تفسير سورة «هل أتى...»، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، مسند أحمد: ٥/١٧٣.
وحسنه الألباني، انظر صحيح الجامع: ٢/٣١٤ رقم ٢٤٤٥، وسلسلة الأحاديث الصحيحة: ٤/٢٩٩ رقم ١٧٢٢.

(٢) انظر مناهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان: ٢١.

(٣) صحيح مسلم: ٤/٢٢٩٤ كتاب الزهد باب ١٠. مسند أحمد: ٦/١٥٣.

(٤) هذا جزء من حديث المعراج الطويل كما في صحيح البخاري: ٤/٧٧ ـ ٧٨، كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة: ٦.
صحيح مسلم: ١/١٤٥، ١٤٦ كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ وبلفظ آخر في: ١/١٤٩ ـ ١٥٠.
ومسند أحمد: ٣/١٤٩ ـ ٤/٢٠٧ ـ ٢٠٩ ـ ٢١٠ ومختصراً في: ٣/١٥٣.

المبحث الثاني
الركن الثالث الإيمان بالكتب

لقد ورد ذكر الكتب بالإشارة إلى وجوب الإيمان بما أنزل من عند الله، وهو قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ (٤٦)﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ومعلوم أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى[1]، وهم الموجودون حين بعثة الرسول ﷺ وكتبهم هي التوراة والإنجيل.

والإيمان بالكتب هو الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى أنزل على رسله كتباً مشتملة على هدى العباد مبينة لهم ما يصلح دينهم ودنياهم موضحة ما عليهم من واجبات وما لهم من أجور، وغيرها.

وهذا هو الإيمان المجمل بها كما نؤمن بها على سبيل التفصيل، وهو الإيمان بكل كتاب أخبرنا الله عنه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ مثل القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وموسى، فمن أنكر كتب الله المنزلة على رسله وكذب بها لم يعرف الله حق معرفته، ولم يقدره حق قدره، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا (١٣٦)﴾ [النساء: ١٣٦].

ومع وجوب الإيمان بجميع الكتب إلا أننا متعبدون بما في القرآن الحكيم

---

(١) انظر جامع البيان عن تأويل القرآن: ١/٢١.

ولا يوجد كتاب على ظهر الأرض صحيح غير محرف ولا منسوخ تصح نسبته كله إلى الخالق تبارك وتعالى غير القرآن الكريم.

يقول ابن القيم: «وما بأيدي النصارى من الدين باطله أضعاف أضعاف حقه، وحقه منسوخ»[1].

والله عز وجل أخبر أن القرآن الكريم مهيمن على جميع الكتب التي سبقته كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨].

وكما بين في السورة، أن فيه الكفاية، فقال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١].

وعن عبدالله بن الحارث الأنصاري رضي الله عنه قال: دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال: هذه أصابها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيراً شديداً لم أر مثله، فقال عبدالله بن الحارث لعمر: أما ترى وجه رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، فسرّى عن رسول الله ﷺ وقال: «لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم، أنا حظكم من النبيين وأنتم حظي من الأمم»[2].

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص ١.

(٢) فضائل القرآن لابن الضريس: ١/٧٦/ب، ذم الكلام للهروي: ٣/٣٦٤، وبنحوه في المسند: ٣/٣٨٧ عن جابر بن عبدالله، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر: ٢/٤٢، وبمعناه في سنن الدارمي: ١/١٠١، رقم: ٤٨٣، وله شاهد في الجامع لشعب الإيمان للبيهقي: ١/١٣٢، الأحاديث المختارة للمقدسي: ١/٢٤ ـ ٢٥.
انظر صحيح الجامع: ٥/٧١، وإرواء الغليل: ٦/٣٤.

المبحث الثالث
الركن الرابع الإيمان بالرسل

وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه بعث في كل أمة رسولاً منهم، يدلهم على الخير، ويحذرهم من الشر، رحمة بهم.

ونؤمن بهم على سبيل الإجمال والتفصيل، فالإجمال أن الله بعث في كل أمة رسولاً يعلمهم أمر الله سبحانه وتعالى.

وأما التفصيل فنؤمن بمن سمى الله لنا منهم، وقد ذكر الله في القرآن خمسة وعشرون، منهم على سبيل المثال أولو العزم وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا محمد عليهم الصلاة والسلام.

والذين ذكرهم الله عز وجل في سورة العنكبوت هم: نوح عليه السلام، قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وإبراهيم عليه السلام، قال سبحانه: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٦].

ولوط عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

وشعيب عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وخوطب نبينا ﷺ في أكثر من آية في السورة فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿ ٱتْلُ

مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وذكر أقوام بعض الرسل الذين عصوهم، وسيأتي تفصيل ذلك في دعوات الرسل عليهم السلام.

والإيمان برسولنا ﷺ يقتضي الإيمان به والعمل بما جاء به واتباعه ظاهراً وباطناً، وقد قرن الله شهادته بشهادته، فهما الركن الأول من أركان الإسلام.

المبحث الرابع

الركن الخامس الإيمان باليوم الآخر

هو الاعتقاد الجازم بأن هناك يوماً آخر يجازى فيه الإنسان على ما قدم في الدنيا، وفي هذا اليوم يكون العرض والحساب وقراءة الكتاب والثواب والعقاب، ففيه حياة غير هذه الحياة، ينعم فيها الإنسان، أو يعذب، على حسب أعماله كما دل على ذلك الكتاب والسنة، ولقد اهتم القرآن بتقرير هذا اليوم والدعوة إلى الإيمان به في كل مناسبة بشتى الأساليب، حتى لا تكاد تمر على حزب من القرآن إلا وفيه حديث عن هذا اليوم، وقد ربط الله عز وجل بين الإيمان به وباليوم الآخر في كثير من الآيات، فمن ذلك قوله سبحانه في السورة: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وقرره الله سبحانه وتعالى، وأنه موعد لمن يفترى عليه أنه سيوقف عند حده، في ذلك اليوم، قال سبحانه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٣].

وهذا اليوم دعت الرسل إلى الإيمان به، فهذا إبراهيم عليه السلام يقرره لقومه ويدعوهم إلى الإيمان به والتأهب له، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت: ١٧ ـ ١٨].

كما دلهم على استخدام عقولهم في ما حولهم من مخلوقات الله ليستدلوا بها على إثبات هذا اليوم، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت: ١٩ ـ ٢١].

كما بين لهم مغبة من ينكر ذلك اليوم فقرن إنكاره والكفر به بالكفر بالله لأن الذي لا يؤمن بهذا اليوم فهو لا يؤمن بالله، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٣].

كما بين حالهم في هذا اليوم، من إنكار بعضهم لبعض، وزوال المودة التي كانت بينهم في الدنيا، وأن مآلهم إلى النار التي يجب الإيمان بها، وأن الإيمان بها من لوازم الإيمان بهذا اليوم، فقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وشعيباً عليه السلام يدعو قومه للإيمان بهذا اليوم، فيقول الله تعالى عنه: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت: ٣٦].

كما بين الله عز وجل أن الحياة الحقيقية التي لا كدر فيها ولا انقطاع هي حياة الآخرة، فقال سبحانه: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والله سبحانه حينما يكرر هذه المعاني وغيرها في كتابه الكريم إنما هو رد على المكذبين، وحافزاً للمؤمنين على العمل والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك أن الله سبحانه رد على المنكرين في السور المكية واستمر في الحديث عن اليوم الآخر وأفاض فيه حتى في السور المدنية بعد أن قام المجتمع المسلم والدولة المسلمة، ووجد جيل من الناس يؤمن بالله واليوم الآخر، فهم في حاجة إلى التذكر

والله هو العليم بخلقه فلو علم أن مجرد حدوث الإيمان باليوم الآخر يكفي، لما كرره في القرآن لتذكيرهم المرة بعد المرة، فلا بد من سبب دائم يدعوا للتذكير، فلا بد من ترسيخ هذه العقيدة حتى تستقيم الحياة في هذه الأرض.

لأن إيمان الناس بأنهم سوف يبعثون ويجازون على أعمالهم، من أعظم الدوافع على القيام بأعمال الخير، والبر، والفضيلة، والرغبة في الإحسان، والإثارة، لما يجده الإنسان من اليقين، بأنه سيلاقي ثواب ما يقدمه عند الله.

كما يحمل المسلم على الكف عن اقتراف الشرور، والآثام، والكف عن البغي، والظلم، والفساد، لما يعلم أنه سيلاقي ربه، وقد أحصى عليه كل صغيرة، أو كبيرة من أعماله، وأنه لن يلفت من قبضته.

فهو من أعظم الأسباب التي يقوم عليها صلاح الناس في دينهم، ودنياهم، لذا ينبغي الاهتمام بشأنه من قبل الدعاة، وغرسه في نفوس الناس حتى تكون المراقبة لله دقيقة، والشعور بالله دائم، بأنه لا يخفى عليه شيء، فيعمل بما يرضى الله ويتأهب لهذا اليوم.

وقد كان لهذا أثره في أول الدولة الإسلامية، حيث استقام سلوكها أفراداً وجماعات، وما انتصرت على أعدائها، وأحبت الجهاد، ولقاء الله إلا بفضل هذا الإيمان، وما فتىء أعداء الإسلام يكيدون لها بشتى الوسائل ويحاولون إبعاد المسلمين عنها وتشكيكهم في عقائدهم، وذلك لعلمهم أنها تؤجج الحماس في نفوسهم.

وكثرة التركيز عليه في القرآن والسنة، لأن الإيمان به غيبي يعتمد على التصديق بما جاء عن الله في كتبه، أو عن طريق رسله، فلا يعتمد على العقل وحده في تقريره.

فلا يتوصل إلى معرفته والعلم اليقيني بأنه كائن إلا بعد رسوخ الإيمان بالله تعالى وبرسله، فالعقول والأفهام مختلفة في إدراك الحقيقة، بل قاصرة عن إدراك كثير من الحقائق، لذلك لم يكل القرآن الكريم أمر الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر على العقل وحده، لأن العقل كثيراً ما يقف عاجزاً عن إدراك بعض المسائل العادية لذلك أقام الله الأدلة النقلية، والعقلية على وجوده سبحانه وتفرده بصفات الكمال، وتنزهه عن صفات النقص، وأن رحمته وعدله وحكمه اقتضت أن يبعث

إلى خلقه رسلاً مؤيديه بما يثمر اليقين في النفس بصدقهم، لذلك وجب تصديقهم وطاعتهم، ومتابعتهم، وإخضاع العقل إلى التصديق ولو لم يدرك الحكمة، فمن حملة ما أخبروا به الإيمان باليوم الآخر. . .

وما يأتي إجمال لما ورد في سورة العنكبوت من آيات عدة تقرر اليوم الآخر وتؤكده فمن ذلك ما ورد في تأكيد لقاء الله سبحانه، كما قال سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ ﴾ [العنكبوت: ٥].

وقوله في آية البر: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ ﴾ [العنكبوت: ٨].

٢ ـ وما ورد في محاسبة الكفار، قال سبحانه: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝١٣ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

٣ ـ تأكيد الرجوع إليه سبحانه قال: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١٧ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

٤ ـ في معرض تأكيد قدرته سبحانه من خلال التفكر في مخلوقاته، قال سبحانه: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ۝٢١ ﴾ [العنكبوت: ٢٠ ـ ٢١].

٥ ـ في بيان حال الكفار يوم القيامة وأن المودة بينهم في الدنيا لا تنفع: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

٦ ـ في بيان قدر إبراهيم عليه السلام كما قال سبحانه: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧ ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

٧ ـ في بيان طلب ثواب اليوم الآخر والخوف من العذاب، كما قال شعيب لقومه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [العنكبوت: ٣٦].

٨ ـ في بيان أن الحياة الدائمة هي حياة الآخرة كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ولما لهذا اليوم من الأهمية العظمى فقد أوضحه الله في غالب سور القرآن ورد على شبه المنكرين بما ينبه عقولهم من خلال الواقع الذي يحسونه، أذكر منها على سبيل المثال:

١ ـ الاستدلال على البعث بحصول اليقظة بعد النوم.
٢ ـ ظهور الشيء من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر.
٣ ـ خلق النباتات المختلفة في الأرض بعد أن كانت هامدة.
٤ ـ الاستدلال على البعث بمن أماتهم الله ثم أحياهم كقوم موسى والمضروب بعضو من أعضاء البقرة، وأصحاب الكهف.

وسيأتي[1] الرد على المنكرين لهذا اليوم في دعوة الكفار.

---

(١) في ص ٣٣٢ من هذا البحث.

المبحث الخامس
الركن السادس من أركان الإيمان
الإيمان بالقدر خيره وشره

وهو الإيمان بجميع ما هو كائن، وما يكون من خير، وشر، وحلو، ومر، ونفع، وضر، وقليل، وكثير، وكبير، وصغير، أنه من قضاء الله وقدره، وإرادته ومشيئته وأمره[1].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ٢].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»[2].

وثمرة الإيمان بالقضاء والقدر وحقيقته هو ما قاله عبادة بن الصامت لابنه رضي الله عنهما «يا بني إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك[3] واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك»[4]، وروى ذلك عن سلمان

---

(١) تيسير العزيز الحميد: ٦٩٩.

(٢) صحيح مسلم: ٤/٢٠٤٤ كتاب القدر باب ٢ واللفظ له. وبلفظ في الترمذي: ٤/٤٥٨ كتاب القدر باب ١٨. وقال: هذا حديث حسن صحيح، مسند أحمد: ٢/١٦٩.

(٣) ... إلى هنا جزء من رواية عند أبي داود في سننه: ٥/٧٦ كتاب السنة باب في القدر، ومسند أحمد: ٥/٣١٧، ومسند الطيالسي: ٢/٧٩ حديث ٥٧٧، وبقيته عن رسول الله ﷺ في ص: ١٦٨.

(٤) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل ص ٦، الشريعة للآجري: ص ١٨٦ ـ ١٨٧، ٢١٠.

الفارسي[1].

وقد قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «يا غلام أني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فلتسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»[2].

والكلام في باب القضاء والقدر نفياً وإثباتاً موقوف على الخبر عن أسماء الله وصفاته وأفعاله وخلقه وأمره[3].

ففعله وقدرته وإرادته تدل على حكمته، فهو يقدر الأشياء وفق ما يقتضيه علمه، وحكمته، وإرادته، ومشيئته، فهو سبحانه كما قال سبحانه عن نفسه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هــود: ١٠٧].

وقد ذكر الله عز وجل في هذه السورة أشياء وقعت وأشياء ستقع، وهذه من قدر الله عز وجل، فمما وقع ما قصه الله علينا من حال الأنبياء في السورة كما حصل لإبراهيم ومع ذلك آمن بقضاء الله واستمر بدعوته.

ومن الذي سيقع ما يحصل من فتنة وابتلاء، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٢].

وما سيقع الموت فإنه مقدر على كل مخلوق كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت: ٥٧].

وكذلـك ما يحصل من بسط الرزق وتضيقه فهو من قدر الله، كما قال تعالى:

---

(١) الشريعة للآجري: ٢٠٦.

(٢) مسند أحمد: ١/ ٢٩٣ بهذا اللفظ، وبلفظه في: ١/ ٣٠٣ ـ ٣٠٧. سنن الترمذي: ٤/ ٦٦٧، كتاب صفة القيامة باب ٥٩، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وبمعناه في المستدرك: ٣/ ٥٤٢، وفي مجمع الزوائد: ٧/ ١٨٩ عن عبد الله بن جعفر.

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل، ص: ٣.

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

فإن هذه الأشياء التي قدرها الله على بني آدم لا تمنعه من السعي والأخذ بالأسباب، فهو هنا أمر بالهجرة والجهاد، والعمل راضياً بما قسمه الله له، فهو يدفع قدر الله بقدر الله، فعن أبي خزامة عن أبيه قال: قلت يا رسول الله، وقال سفيان مرة سألت رسول الله ﷺ: «أرأيت دواء نتداوى به، ورقي نسترقي بها، وتقى نتقيها، أترد من قدر الله تبارك وتعالى شيئاً؟ قال: إنها من قدر الله تبارك وتعالى»[1].

وهذا ما كان عليه صحابة رسول الله ﷺ وكان أكملهم في ذلك هو رسول الله ﷺ، ومع أنه أمر بالاكتفاء بالله مع أنه يعمل بالأسباب كما تقدم في التوكل، فهو أحسن الناس إيماناً بقضاء الله وقدره، وغيره من أركان الإيمان.

وتقدم أنه يجب الإيمان بالقدر خيره وشره، فهل الشر من قدر الله؟، تصرف الله سبحانه وتعالى في ملكه، دائر بين العدل والفضل والحكمة والمصلحة لا تخرج عن ذلك، وهذا كله خير، يحمد عليه الرب ويثنى عليه به، وإن كان شراً بالنسبة لبعض المخلوقات كما يحمد ويثنى عليه بتنزيهه عن الشر وأنه ليس إليه كما ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان يثني على ربه بذلك في دعاء الاستفتاح بقوله: «لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت»[2].

فتبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بل كل ما نسب إليه فهو خير، والشر إنما صار شراً لانقطاع نسبته وإضافته إليه، فلو أضيف إليه لم يكن شراً، يدل على ذلك أسماء الله وصفاته فلا يضاف الشر إليها ولا إلى ذاته فأنها منزهة عن كل شر.

---

(١) مسند أحمد: ٣/٤٢١، واللفظ له، وسنن ابن ماجة: ٢/١١٣٧، كتاب الطب باب ١، سنن الترمذي: ٤/٣٩٩، كتاب الطب باب ٢١، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن حكيم بن حزان عند الحاكم: ٤/١٩٩، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) جزء من حديث في صحيح مسلم: ١/٥٣٥ كتاب صلاة المسافرين باب ٢٦ حديث ٢٠١، وسنن النسائي: ٢/١٣٠، كتاب الافتتاح، وبنحوه في المستدرك: ٢/٣٦٣، عن حذيفة ويقول محمد ﷺ حينما يجمع الناس في المحشر.

فصفاته صفات كمال، ونعوت جلال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه وأسمائه كلها حسنى ليس فيها إسم ذم أو عيب، وأفعاله حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل لا تخرج عن ذلك البتة[1].

فلا يخلق شراً محضاً ولا يريده. فالشر في القضاء والقدر هو بالإضافة إلى العبد والمفعول إن كان مقدراً عليه فهو سبب جهله وظلمه وذنوبه، لا إلى الخالق جل وعلا، لذلك قال في الدعاء المتقدم ليس إليك ولم يقل ليس منك، وذلك أن الله يقدره سبحانه، ولكن لحكم عظيمه وحاصل ذلك أن الشر أمر نسبي، فهو شر بالنسبة لبعض المخلوقات من جهة أنهم سببه ويستحقونه.

أما بالنسبة إلى الله فهي خير وحكمة وعدل، مثال ذلك: القصاص فهو شر بالنسبة للمقتص منه، ولكنه خير من جهة الله حيث تحفظ به الأنفس.

ولولا الشر لم يصرف الخير　　فإن الضد لا يعرف إلا بضده[2]

وللقدر أربع مراتب لا يؤمن بالقدر إلا من آمن بها وهي:

الأولى: علم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

المرتبة الثانية: كتابته لها قبل كونها:

قوله ﷺ: «إن الله أول ما خلق القلم قال له اكتب قال رب وماذا أكتب، قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»[3].

المرتبة الثالثة: مشيئته لها، فلا يخرج شيء عن مشيئته، قال تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢١].

المرتبة الرابعة: خلقه لها، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [الصافات: ٩٦].

---

(١) شفاء العليل: ١٧٩.

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد: ص ٦٩٢.

(٣) سنن أبي داود: ٥/٧٦، كتاب السنة باب في القدر: ١٧، واللفظ له، وبلفظه في سنن الترمذي: ٥/٤٢٤، كتاب التفسير باب ٦٧، مسند الطيالسي: ٢/٧٩ حديث ٥٧٧، وبلفظه في مسند أحمد: ٥/٣١٧، وأول هذا الحديث عن عبادة بن الصامت في وصيته لابنه كما في ص ١٦٤.

وقد توافرت الأدلة على وجوب الإيمان بهذا الركن كما تقدم، وعلى هذا سار سلف الأمة، قال البغوي[1]: «الإيمان بالقدر فرض لازم، وهو أن يعتقد أن الله تعالى خالق أعمال العباد خيرها وشرها، كتبها عليهم في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقهم، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦].

فالإيمان والكفر والطاعة والمعصية كلها بقضاء الله وقدره، وإرادته ومشيئته غير أنه يرضى الإيمان والطاعة ووعد عليهما الثواب، ولا يرضى الكفر والمعصية وأوعد عليهما بالعقاب، قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۝٢٨﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقال: والقدر سر من أسرار الله تعالى لم يطلع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ولا يجوز الخوض فيه والبحث عنه بطريق العقل، بل يعتقد أن الله تعالى خلق الخلق فجعلهم فريقين، أهل يمين خلقهم للنعيم فضلاً، وأهل شمال خلقهم للجحيم عدلاً[2].

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقد سأل رجل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، قال: طريق مظلم فلا تسلكه، فأعاد السؤال، فقال: بحر عميق لا تلجه، فأعاد السؤال، فقال: سر الله خفي عليك فلا تكلفه»[3].

والمقصود بهذا أن القدر من أمور الغيب التي لا يحيط بحكمتها وتفاصيلها الدقيقة إلا الله عز وجل.

---

(١) هو: أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي المفسر، له مؤلفات كثيرة منها: شرح السنة، ومعالم التنزيل، والمصابيح، والتهذيب، سمع من القاضي المرورّوذي، وتفقه عليه كما سمع من أبي الحسن الشيرازي وأبي عمر المليحي، وأبي الحسن الداوودي وأبي الحسن الحويني وغيرهم وحدث عنه مندة، وأبو الفتوح الطائي وجماعة، توفي بمرور والروذ سنة ٥١٦ هـ، سير أعلام النبلاء: ١٩/٤٣٩، وفيات الأعيان: ٢/١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) تيسير العزيز الحميد: ٦٨٥.

(٣) الشريعة للآجري: ٢٠٢ ـ ٢٤٠.

وقد أنكر السلف على من تكلموا به، فهذا ابن عمر رضي الله عنه يقول: لو كان لأحدهم مثل أحد ذهباً ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر[1].

ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» رواه مسلم[2].

ولا حجة للكفار بالقدر، لأن ما قدره الله عليهم غائب عنهم لا يعلمونه قبل وقوعه، فمن سأل لم فعل الله كذا، فقد رد حكم الله، ومن رد حكمه فقد كفر به، قال تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقد تبين من خلال السورة أن الكفار والمنافقين لا يؤمنون بالقدر، قال تعالى عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [العنكبوت: ١٠].

فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله وفتنة الناس من أقدار الله فهم يسخطونها سخطاً يخرجهم عن إيمانهم، وقد أمر الله بالصبر على البلاء والفتنة في أول السورة، كما قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

---

(١) الشريعة للآجري: ١٨٩.

(٢) تقدم تخريجه في ص ٢٤ من هذا البحث.

الفصل الرابع
المرتبة الثالثة من مراتب الدين
الإحسان

الإحسان هو مصدر، تقول أحسن يحسن إحساناً، ويتعدى بنفسه وبغيره تقول أحسنت كذا إذا أتقنته، وأحسنت إلى فلان إذا أوصلت إليه النفع، والأول هو المراد لأن المقصود هو اتقان العبادة، وقد يلحظ الثاني بأن المخلص مثلاً محسن بإخلاصه إلى نفسه، وإحسان العبادة الإخلاص فيها، والخشوع وفراغ البال حال التلبس بها، ومراقبة المعبود، وللإحسان حالتان:

فالأولى كما في حديث جبريل أرفعها أن يغلب عليه استحضار عظمة الله، مشاهدة الحق بقلبه كأنه يراه بعينه، وهو قوله (كأنك تراه) أي وهو يراك، والثانية أن يستحضر أن الله الحق مطلع عليه، يرى كل ما يعمل، وهو قوله (فإنه يراك) وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته»[1].

وحديث جبريل من جوامع كلم النبي ﷺ، قال النووي[2]: «لأنا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت، واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها

---

(١) فتح الباري: ١/ ١٢٠.

(٢) هو يحيى بن شرف بن مري الحزامي الحواربي الشافعي، ولد سنة ٦٣١ هـ، رحل إلى دمشق وحج ومكث بالمدينة شهراً ونصف، سمع من الرضى بن البرهان وشيخ الشيوخ عبد العزيز بن محمد الأنصاري، وجمال الدين بن الصيرفي وغيرهم، وتتلمذ على يديه جماعة منهم الخطيب صدر سليمان الجعفري، وشهاب الدين أحمد بن جعوان وشهاب الدين الأربدي وغيرهم، من مؤلفاته: شرح صحيح مسلم، ورياض الصالحين، والأربعين، والأذكار، وغيرها: ت ٦٧٦ هـ، تذكر الحفاظ.

على أحسن وجوهها إلا أتى به.

ومقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك[١]. اهـ.

والمحسن: من صحح عقد توحيده وأحسن سياسة نفسه وأقبل على أداء فرائضه وكفى المسلمين شره[٢].

وفي حديث جبريل عليه السلام: «ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال: صدقت»[٣].

فالإحسان شامل لجميع الدين، فلا بد في الإيمان من الإحسان، بأن تحسن إيمانك بما أوجب الله عليك الإيمان به، وأن يكون إيماناً حقيقياً وفق ما شرعه الله، كما أنه لا بد من الإحسان في الإسلام، وجميع أمور العبادة بأدائها بخشوع ـ وحضور قلب، واستشعار أنها عبادة لله وتعظيماً له.

وقد ورد الإحسان في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فالإحسان نهاية الإخلاص، وهو إيقاع العمل على أكمل وجوهه في الظاهر والباطن، فالإحسان يفسر بالإخلاص، وحيث أنه اشتق من الحسن وهو نهاية الإخلاص الناشىء عن حقيقة الاستحضار ومن حيث الظاهر كمال المتابعة فالإخلاص نتيجة الإحسان وثمرته، فهو أعلى المراتب وأعمها من جهة نفسه، وأخصها من جهة أصحابها، ولهذا يقال كل محسن مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً محسناً[٤].

لذلك أثنى الله على الأنبياء، وسلم عليهم وبين أن ذلك جزاء المحسنين فبعد أن سلم على نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وآل ياسين، يقول في آخر الآيات: ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾ كما في سورة الصافات.

---

(١) النووي على مسلم: ١/١٥٧ ـ ١٥٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١/٤١٥.

(٣) تقدم تخريجه في ص ٢٤ من هذا البحث.

(٤) حاشية الأصول الثلاثة ص ٦٦.

فالأنبياء عليهم السلام حققوا الإسلام، والإيمان وبلغوا أعلى مراتب الدين وهو الإحسان، كما بين الله جزاء المحسنين، وأنه معهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المرسلات: ٤٤].

فالله اعتنى بالإحسان، ونوه بعظيم منزلته في كتابه العزيز، فقال: ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوا ۛ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وبين أنه معهم وكفى بذلك فضلاً وشرفاً: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقد وعد الله المحسنين بالجزاء العظيم والثواب الجزيل فقال سبحانه: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الرحمٰن: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يونس: ٢٦].

فالحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجه الله عز وجل[١]، «ولا يخفى ما بين هذا الجزاء وذلك العمل الذي هو الإحسان من المناسبة، فالمحسنون الذين عبدوا الله كأنهم يرونه جزاهم على ذلك العمل النظر إليه عياناً في الآخرة، وعلى العكس منهم الكفار»[٢].

والإحسان مطلوب في العبادات، والمعاملات، فإن أي عبادة شرعها الله عز وجل فعلى العبد أن يأتي بها على الوجه الذي يرضيه سبحانه.

ففي هذه السورة بين الله أن الذين يعملون الصالحات يجزيهم بأحسن الذي كانوا يعملون، كما قال سبحانه: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٧].

ومن العبادات بر الوالدين، لذلك أوصانا الله بأن نحسن إليهم كما قال سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا

(١) انظر تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٦٤٢.

(٢) ثلاث كلمات في الإخلاص والإحسان والالتزام بالشريعة: ١٥.

﴿... تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [العنكبوت: ٨].

والإحسان يكون بالبدن، وبالمال، وبالجاه، وبالعلم، ويكون للنفس، وذلك بالإحسان إليها بقصرها على طاعة الله، ويكون للناس، وللحيوان، فعن شداد بن أوس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته فليرح ذبيحته»[١].

---

(١) صحيح مسلم: ١٥٤٨/٣ كتاب الصيد باب ١١، واللفظ له، وسنن أبي داود: ٢٤٤/٣، كتاب الأضاحي باب ١٢، سنن الترمذي: ٢٣/٤، كتاب الديات باب ١٤، سنن ابن ماجة: ١٠٥٨/٢، كتاب الذبائح: باب ٣، كما أخرجه النسائي والدارمي وأحمد.

الفصـل الخامـس
الفتنة والابتلاء لمن تحقق إيمانه

وينقسم إلى أربعة مباحث

المبحث الأول: كونها سنة من سنن الله في هذا الكون.

المبحث الثاني: الحكمة من الفتنة والابتلاء.

المبحث الثالث: هل للمسلم أن يستدعي البلاء على نفسه.

المبحث الرابع: أنواع الفتن الواردة في السورة.

الفتنـــة والابتـــلاء

ومن أراد تحقيق أمور الدين جميعها من التوحيد والإيمان، والإسلام والإحسان لا بد له من الابتلاء، والفتنة، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٢].

وجماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب إذ أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد[(١)][(٢)].

والفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمال، وقد قال فيهما: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وللفتنة وجوه، منها: الشرك، والضلالة، والنفاق، والبلاء، وعذاب الناس، والحرق بالنار، والصد، والاستنزال، والمعذرة، والافتتان، والإعجاب والقتل، وقد ورد في القرآن دليل لكل وجه[(٣)].

قال ابن القيم: «ولفظ الفتنة في كتاب الله تعالى يراد بها الامتحان الذي لم يفتتن صاحبه بل خلص من الافتتان، ويراد بها الامتحان الذي حصل معه افتتان، فمن الأول قوله تعالى لموسى: ﴿إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ۝٤٠﴾ [طـه: ٤٠].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩٣﴾ [البقرة: ١٩٣].

---

(١) لسان العرب لابن منظور: ١٣/٣١٧، وانظر القاموس المحيط: ٤/٢٥٤.

(٢) المفردات للراغب الأصبهاني: ٣٧١.

(٣) انظر غريب الحديث للحربي: ٣/٩٣٠.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩].

ويطلق على ما يتناول الأمرين كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

وتطلق على أعم من ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٥].

قال مقاتل[١]: «أي بلاء وشغل عن الآخرة»[٢] اهـ.

والفتنة بحسب إضافتها، فيقال فتنة المال، وفتنة الأولاد، وقد تطلق على أشياء خاصة كالنفاق والكفر، والصد حيث أن أصل الفتنة الاختبار، ثم استعملت فيما أخرجته المحنة والاختبار إلى المكروه، ثم أطلقت على كل مكروه أو آيل إليه كالكفر والإثم والتحريف، والفضيحة، والفجور وغير ذلك[٣].

لذا فهي بحسب ما يضاف إليها لأن كل شيء فتنة، فيقال فتنة الحياة، وفتنة الموت، وفتنة الشرك، وفتنة الغفلة، والابتلاء، والفتنة من أقدار الله عز وجل التي لا بد من الإيمان بها[٤].

وأعظم فتنة هي الكفر كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣].

فعن ابن عمر رضي الله عنهما، أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس صنعوا، وأنت ابن عمر، وصاحب النبي ﷺ، فما يمنعك أن تخرج، فقال: يمنعني أن الله حرم دم أخي، فقالا: ألم يقل الله: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة، فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وكان الدين لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله[٥].

---

(١) تقدمت ترجمته ص ١٣١.
(٢) إغاثة اللهفان: ٢/١٥٩.
(٣) فتح الباري: ١٣/٣.
(٤) انظر المفردات للراغب: ٣٧١، وانظر فتح الباري: ١٣/٣.
(٥) صحيح البخاري: ٥/١٥٧، التفسير ـ البقرة ـ والمسند بنحوه: ٢/٧٠ ـ ٩٤.

المبحث الأول: كونها سنة

قد أشار الله سبحانه وتعالى في هذه السورة إلى أن الابتلاء سنة كونية من سننه في هذا الخلق، فقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

فلا بد من الابتلاء بما يؤذي الناس فلا خلاص لأحد منه.

والابتلاء يكون بالسراء والضراء لقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فلا بد للمؤمن من الصبر والشكر، ولا بد من حصول الألم لكل نفس سواء آمنت أم كفرت، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة[١]، أما الكافر فقد تنقطع عنه الفتنة في الدنيا ولكنه يصير الألم في الآخرة، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مثل المؤمن كمثل خامة الزرع يفيء ورقه من حيث أتتها الريح كفأتها فأذا اعتدلت تكفأ بالبلاء، والفاجر «كالأرزة»[٢] صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء»[٣].

والله سبحانه حذر من الدنيا وفتنتها ليحذرها المؤمن العارف بربه، قال

---

(١) الفوائد: لابن القيم: ٢٠٤ ـ ٢٠١، وانظر إغاثة اللهفان: ٢/١٩٣.

(٢) الأرز: ضرب من البر، وقيل شجر الصنوبر، اللسان: مادة أرز: ٥/٣٠٦.

(٣) البخاري: ٨/١٩١ كتاب التوحيد باب في المشيئة والإرادة ٣، واللفظ له، صحيح مسلم: ٤/٢١٦٣، كتاب صفات المنافقين، باب مثل المؤمن باب ١٤، كما أخرجه الإمام أحمد والدارمي.

تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

فالجميع مبتلى فيها، فمن لم يؤمن فإنه يمتحن في الآخرة بالعذاب ويفتن به، وهي أعظم المحنتين، هذا إن سلم من امتحانه بعذاب الدنيا، ومصائبها، أو عقوباتها التي أوقعها الله بمن لم يتبع رسله، وعصاهم، فلا بد من المحنة في هذه الدار، وفي البرزخ لكل أحد لكن المؤمن أخف محنة وأسهل بلية، فإن الله يدفع عنه بالإيمان(١)، قال تعالى: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾.

ولكن البلاء يشتد عليه بحسب إيمانه ليعلم صدقه من كذبه، فإن صبر وأجاب داعي الله فإن له عند الله الفوز والنعيم.

وقد سئل الشافعي رحمه الله: «أيما أفضل للرجل أن يمكن أو يبتلى، فقال: لا يمكن حتى يبتلى، فإن الله ابتلى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة»(٢) أهـ.

وقد أجمل الله عز وجل الابتلاء وأنه لا بد منه، بقوله سبحانه: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

ثم فصل سبحانه بعض الذين ابتلوا من قبلنا كما سيأتي، وقد ابتلى نبينا ﷺ والمؤمنون ـ من الصحابة ومن كان قبلهم ـ والكفار ـ مما يدل على استمرار الفتنة والابتلاء.

فمن سنية الابتلاء أن الله ابتلى أفضل خلقه وهم رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهم أفضل الدعاة إلى توحيده سبحانه.

فابتلاهم بالمرسل إليهم حين يدعونهم إلى الحق، والصبر على أذاهم، وتحمل المشاق في تبليغ رسالات ربهم»(٣).

فهذا محمد صلوات الله وسلامه عليه بين الله عز وجل في هذه السورة أنه

---

(١) إغاثة اللهفان: ٢/ ١٩٢.

(٢) الفوائد: ٢٠٣.

(٣) إغاثة اللهفان: ٢/ ١٦١.

ابتلى بقوم جحدوا بآيات الله مع علمهم بها، قال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

كما اتهم بالسحر والتعلم من الكهنة حتى أخرج هذا الكتاب، فالله عز وجل نفى عنه هذه التهمة بقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

والواقف على سيرته ﷺ يرى ما حصل له من فتنة وبلاء أشد من هذا كالحصار في الشعب، ووفات عمه أبي طالب، وزوجه خديجة، وغير ذلك ولكنه كان صابراً محتسباً.

كما ابتلى نبي الله نوح بكفر قومه، واستهزائهم به، مع طول لبثه فيهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

فهذا تسلية للنبي ﷺ أي ابتلى النبيون قبلك بالكفار فصبروا[١].

كما ابتلى نوح بابنه، وفلذة كبده، حيث كان ممن أعرض عن دعوته كما هو مذكور في سورة هود.

كما ابتلى بزوجته حيث خانته كما في سورة الطلاق.

وكذلك ابتلى نبي الله إبراهيم عليه السلام بقومه الذين لم يقبلوا دعوته وحاولوا الانتقام منه، ولكن الله أنجاه، فقال تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

ومما ابتلى به كذلك إعراض أبيه عن الاستجابة لدعوة التوحيد.

ونبي الله لوط ابتلى بقوم لا يعبأون بأمر الله مستهزوءن به وبدعوته حيث أتوا، أمراً عظيماً لم يسبقهم إليه أحد، قال تعالى عنهم: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٣/ ٣٣٢، وانظر زاد المسير لابن الجوزي: ٦/ ٢٦١.

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩].

ومما نزل عليه من البلاء أنه كان يخاف على ضيوفه من أذى قومه وشرهم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣٣].

فمن عظيم ما مر عليه من البلاء أن زوجته وأقرب الناس إليه، لم تستجب لنداء الله.

كما ذكر الله في هذه السورة شعيباً حيث لم يستجب له قومه، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت: ٣٦ ـ ٣٧].

كما ابتلى نبي الله موسى بأنواع البلايا ورد منها في السورة تجبر فرعون وقارون وهامان وتسلطهم على عباد الله حتى وصل الحد بفرعون إلى أن ادعى الربوبية، قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩].

وكما حصل للرسل من بلاء ومحنة، امتحن الله المرسل إليهم بهم هل يطيعونهم وينصرونهم ويصدقونهم أم يكفرون بهم ويردون عليهم ويقاتلونهم، فأقوام الرسل الذين لم يستجيبوا لدعوتهم أصيبوا بأعظم بلية وأعظم فتنة، وهي الكفر الذي تدوم محنته وتشتد، وقد قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾ [العنكبوت: ٤].

أي لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة، والامتحان، فإن ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/ ٦٤٥.

وكما ابتلى الأنبياء وأقوامهم الذين لم يستجيبوا لهم كذلك ابتلى أتباع الأنبياء، فقد ورد عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، فقلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا، فقال: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[1].

كما أن صحابة رسول الله ﷺ لاقوا من الابتلاء والمحن ما الله به عليم حتى أن أول السورة نزل بهم، فقوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٢].

قال ابن عباس وغيره: يريد بالناس قوماً من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، كسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد، وعمار بن ياسر، وأبوه وسمية أمه وعدة من بني مخزوم وغيرهم[2].

كما فتن بعض الصحابة بأحبابه وذويه، ومما ذكر الله في هذه السورة قوله سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٨].

فهذه الآية نزلت في سعد بن أبي وقاص، فعن مصعب بن سعد عن أبيه، أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبداً حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: وعمت أن الله وصاك بوالديك وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا، قال: مكثت ثلاثاً حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له: عمارة، فسقاها فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله عز وجل في القرآن هذه الآية: ﴿ وَإِن

(١) صحيح البخاري: ٥٦/٨ كتاب الإكراه باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ١، واللفظ له، سنن أبي داود: ١٠٨/٣ كتاب الجهاد باب في الأسير يكره على الكفر: ١٠٧، مسند أحمد: ١٠٩/٥ ـ ١١١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٢٣٢/١٣.

جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٥].

وفيها «وصاحبهما في الدنيا معروفاً»[1] الحديث.

قال الواحدي: «قال المفسرون[2]: نزلت في سعد بن أبي وقاص، وذاك أنه لما أسلم قالت له أمه حسنة: يا سعد، بلغني أنك صبوت، فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح، والريح، ولا آكل، ولا أشرب حتى تكفر بمحمد وترجع إلى ما كنت عليه.

فأبى سعد، وصبرت هي ثلاثة أيام لم تأكل ولم تشرب ولم تستظل بظل حتى خشي عليها، فأتى سعد النبي ﷺ وشكا ذلك إليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، والتي في لقمان والأحقاف»[3]. اهـ.

وقد ابتلى صحابة رسول الله ﷺ بما حصل لهم من فارق الأهل والوطن والمال حينما أمروا بالهجرة، قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦].

ومن سنة الابتلاء والفتنة استمراره في هذه الدنيا كما دل على ذلك الكتاب والسنّة، ففي هذه السورة دلالة واضحة على استمراره إلى يوم المعاد، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

قال ابن عطية[4]: هذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب أو ما في معناه من الأقوال، فهي باقية في أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك، وإذا اعتبر

---

(١) صحيح مسلم: ١٨٧٧/٤، كتاب فضائل الصحابة باب في فضل سعد واللفظ له، مسند أحمد: ١٨١/١، سنن الترمذي: ٣٤١/٥، كتاب التفسير باب ومن سورة العنكبوت.

(٢) انظر تفسير الطبري: ١٣١/٢٠، وابن كثير: ٦٤٦/٣، والسيوطي في الدر: ١٤١/٥، تفسير القرطبي، أحكام القرآن: ٣٢٨/١٣.

(٣) أسباب النزول للواحدي: ٣٩٤.

(٤) تقدمت ترجمته في ص ١٣١ من هذا البحث.

أيضاً كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن»[1]. اهـ.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت: ١٠].

فتنكير الناس يدل على أنهم ليسموا معنيين بمكان أو زمن وإنما يشمل كل من فعل ذلك في كل زمان ومكان، «وإن كانت الآية نزلت في المنافقين أو في أناس معينين»[2]، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[3].

ومما يدل على استمرار الابتلاء من الله للناس أمره لهم بأن يتعظوا بما حصل لمن قبلهم كما في قوله تعالى عن سفينة نوح: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ١٥].

وقوله في قصة إبراهيم: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت: ٢٤].

كذلك قوله تعالى في قصة لوط: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ففي هذه الآيات إشارة إلى استمرار البلاء والفتنة وأن الإنسان لا بد أن يبتلى ويمتحن، فإن كان من العارفين بالله وصبر وثبت على إيمانه، فإنه سيحصل له من الفوز والفلاح ما حصل للمؤمنين قبله الذين قصّ الله علينا قصصهم، وإن أعرض، ولم يتعظ، ولم يعتبر كما أمر فنهايته للهلاك، والفتنة العظيمة التي لا فتنة بعدها، وهي عذاب الله كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات: ١٣ ـ ١٤].

---

(١) أحكام القرآن للقرطبي: ١٣/ ٣٢٤.

(٢) انظر أحكام القرآن للقرطبي: ١٣/ ٣٣١.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٥/ ٣٦٤، ١٦/ ١٤٨، الاتقان في علوم القرآن: ١/ ٨٥.

وقد نبّه ﷺ على فتن عامة تكون في آخر الزمان في أحاديث كثيرة لذلك بوّب غالب العلماء في كتبهم باباً خاصاً بها سموه (أبواب الفتن) وذلك كالبخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وغيرهم، ساقوا فيها ما أخبر به الرسول ﷺ مما يقع من الفتن.

والإنسان يشاهد الفتن دائماً لا تنقطع عنه ولكنها تختلف حسب شدتها وضعفها، فمثلاً الأمراض والمجاعات والحوائج، وفقد الأحبة حتى الشوكة يشاكها، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»[1].

وكل ما اتصل بالإنسان من أهله، وولده، ووالديه، وأصحابه، وعشيرته، وقومه، ومن يتعامل معهم، كل هؤلاء فتنة، فهل يقوم بواجبه نحوهم، من جلب خير أو دفع شر، وهل يكف يده عن حقهم، وبصره عما منعوا به ويسأل الله من فضله[2]، ويكف لسانه عن غيبتهم وبهتهم.

فقد ورد عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما، عليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان، فنزل فأخذهما فصعد بهما المنبر ثم قال: (صدق الله ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ ﴾ [التغابن: ١٥]، رأيت هذين فلم أصبر)، ثم أخذ في الخطبة[3].

وقد ورد عن حذيفة قال: كنا جلوساً عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة، قلت: أنا كما قاله، قال: أنك

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه: ٣/٧ المرض باب أشد الناس بلاء الأنبياء واللفظ له، صحيح مسلم: ١٩٩١/٤، البر باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، سنن الترمذي: ٢٨٨/٣، الجنائز باب ما جاء في ثواب الملمريض، وبنحوه في الموطأ: ٩٤١/٢ العين باب ما جاء في أجر المريض، مسند أحمد: ٤٤١/١.

(٢) انظر: إغاثة اللهفان: ١٦٠/١.

(٣) سنن أبي داود: ٦٦٣/١ كتاب الصلاة باب الإمام يقطع الخطبة لأمر يحدث، واللفظ له، سنن النسائي: ١٠٨/٣، كتاب الجمعة باب نزول الإمام عن المنبر، و١٩٣/٣ كتاب العيدين باب نزول الإمام، مسند أحمد: ٣٥٤/٥، مستدرك الحاكم: ١٨٩/٤ ـ ١٩٠، كتاب اللباس، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

عليه أو عليها لجريء، قلت: فتنة الرجل في أهله، وماله، وولده، وجاره، يكفرها الصلاة والصوم، والصدقة والأمر والنهي. قال: ليس هذا ما أريد، ولكن الفتنة التي تموج كموج البحر، قال: ليس عليك منها با يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها باباً مغلقاً، قال: أيكسر أم يفتح؟ قال: يكسر، قال: إذاً لا يغلق أبداً، قلنا: أكان عمر يعلم الباب، قال: نعم كما أن دون الغد الليلة، إني حدثته بحديث ليس بالأغاليظ فهبنا أن نسأل حذيفة، فأمرنا مسروقاً، فسأله فقال الباب عمر»[(1)].

ففي هذا الحديث عمر لم ينكر على حذيفة وقوع الفتن الصغيرة، وحذيفة أجابه إلى سؤاله بالنسبة للفتن الكبيرة.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يقولن أحدكم اللهم إني أعوذ بك من الفتنة، فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة لأن الله تعالى يقول: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٨] فأيكم استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن»[(2)].

والله عز وجل يقول: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠]، وهذا عام في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض، كما تقدم إمتحان الرسول ﷺ بأقوامهم وبالعكس.

كما امتحن العلماء بالجهال هل يعلمونهم وينصحونهم، ويصبرون على ذلك وبالعكس هل يطيع الجهال العلماء ويهتدون بهم.

وامتحن الملوك بالرعية، وبالعكس، كما امتحن الفقراء بالأغنياء وبالعكس،

---

(1) صحيح البخاري: ١/١٣٣ كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة واللفظ له في: ٣/١١٩ كتاب الزكاة باب ٢٣ الصدقة تكفر الخطيئة، ٢/٢٦٦ الصوم، باب الصوم كفارة وبنحوه في صحيح مسلم: ١/١٢٨، كتاب الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً، وكتاب الفتن: ٤/٢٢١٨ باب في الفتنة ٧، مسند أحمد: ٥/٣٨٦، ٤٠١، ٤٠٥، وبلفظه في سنن الترمذي: ٤/٥٢٤ كتاب الفتن باب ٧١، سنن ابن ماجة: ٢/١٣٠٥ كتاب الفتن باب ما يكون من الفتن: ١٩٦.

(2) إغاثة اللهفان: ٢/١٦٠ ومن قوله ليس منكم أحد إلى آخر الأثر، أخرجه ابن جرير بسنده إلى ابن مسعود في تفسير قوله تعالى: ﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة﴾ [الأنفال: ٢٦]، ٩/٢١٨ وذكره ابن كثير في نفس الموضوع: ٢/٤٧١.

وكما امتحن الأقوياء بالضعفاء، والسادة بالأتباع، والمالك بمملوكه، والآمرون بالمعروف بمن يأمرونهم، وعلى العكس من هؤلاء جميعاً، فإنهم فتنوا بأضدادهم[١]، فمن صبر على الفتنة كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها[٢].

---

(١) إغاثة اللهفان: ٢/ ١٦١.
(٢) إغاثة اللهفان: ٢/ ١٦٢.

المبحث الثاني
الحكمة من الفتنة والابتلاء

وما دام أن الله سبحانه جعل الابتلاء سنّة في هذا الكون على جميع الخلق برهم وفاجرهم، فأفعاله كلها حكمة، فلا تكون إلا عن علم وحكمة، منها ما نعرفه ومنها ما تقصر عقولنا وأفهامنا عنه وحسبنا أن نقول: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والابتلاء والفتن من أفعال الله عز وجل، وتقديراته، التي كلها حكمة ورحمة، بخلاف ما إذا كانت من العبد كما تقدم في باب القضاء والقدر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وليست البلايا والمصائب تأتي من طاعة الله ورسوله كما يظن بعض الجهال فإن هذه جزاء أصحابها خيري الدنيا والآخرة»[١].

ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم لا بما أطاعوا فيه الله ورسوله، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم، لا بسبب طاعتهم الله ورسوله ﷺ، وكذلك ما ابتلوا به من السراء والضراء، والزلزال، ليس هو بسبب إيمانهم وطاعتهم لكن امتحنوا به ليتخلصوا مما فيهم من الشر وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار ليتميز خبيثه من طيبه، والنفوس فيها شر والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه»[٢]. اهـ.

---

(١) أي من ابتلى بسبب طاعته لله، وصبر فأنه يجزى بخيري الدنيا والآخرة وليس المراد أن المصائب بسبب الذنوب فقط.

(٢) الحسنة والسيئة لابن تيمية: ٤٤.

لذلك كان من حكمة الابتلاء التمحيص، وهو كما قال الراغب[1]: «أصل المحص تخليص الشيء مما فيه عيب».

قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝١٤١﴾ [آل عمران: ١٤١].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٥٤﴾ [آل عمران: ١٥٤]، فالتمحيص هنا كالتزكية والتطهير ونحو ذلك من الألفاظ، ويقال في الدعاء «اللهم محص عنا ذنوبنا»، أي أزل ما علق بنا من الذنوب[2].

فالمؤمن يمحص حتى يصدق، ويبتلى، ويختبر حتى يخلص بالبلاء الذي نزل به، وكيف صبره ويقينه[3].

«والله يمحص المؤمنين بما يكفر عنهم من ذنوبهم، إن كانت لهم ذنوب وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به»[4].

فهو تنقية لهم من الذنوب وآفات النفوس كما أنه تخليص لهم من المنافقين وتمييزهم عنهم فيحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم وتمحيص ممن كان يظهر أنه من المسلمين[5]، وهذا ما سأوضحه في حكمة التمييز بين المؤمنين والكفار، فالتمحيص للمؤمنين يكون:

---

(١) هو: أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصبهاني، كان ذكياً من المتكلمين كانت وفاته قريباً من سنة ٤٥٢ هـ، من مؤلفاته (المفردات) والذريعة إلى مكارم الشريعة (وتفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين)، ومحاضرات الأدباء، سير أعلام النبلاء: ١٨/ ١٢٠، الأعلام: ٢/ ٢٥٥.

(٢) المفردات للراغب: ٤٦٤.

(٣) انظر جامع البيان عن تأويل القرآن: ٤/ ١٠٧.

(٤) انظر تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦١٢.

(٥) زاد المعاد: ٣/ ٢٢٣.

١ ـ بتكفير السيئات.
٢ ـ أو برفعة الدرجات.
٣ ـ أو بالتعويض من الله.

أولاً تكفير السيئات:

فقد أخبر الله سبحانه أنه يريد تمحيص المؤمنين أي تخليصهم من ذنوبهم، بالتوبة والرجوع إليه، واستغفاره من الذنوب التي أديل بها عليهم العدو[١].

وقد بين الله سبحانه وتعالى تكفيره لسيئات المؤمنين في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧﴾ [العنكبوت: ٧]، وقد بين الله سبحانه أنه لا بد للمؤمن من الابتلاء كما تقدم.

قال ابن القيم: «إن ابتلاء المؤمن كالدواء له يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته، أو أنقصت ثوابه، وأنزلت درجته فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء ويستعد به لتمام الأجر، وعلو المنزلة، ومعلوم أن وجود هذا خير للمؤمن من عدمه[٢]، كما قال النبي ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[٣].

فهذا الخير العظيم ليس إلا للمؤمن لأنه هو الذي يشكر ويصبر، فبذلك تكفر سيئاته كما بين ذلك رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة منها: ما روته عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها»[٤].

---

(١) إغاثة اللهفان: ٢/ ١٩١.

(٢) إغاثة اللهفان: ٢/ ٨٨.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٩٥ كتاب الزهد باب المؤمن أمره كله خير ١٣ واللفظ له، مسند أحمد: ٤/ ٣٣٢ ـ ٣٣٣ ـ ٦/ ١٥ ـ ١٦. مجمع الزوائد للهيثمي: ٧/ ٢٠٩، وقال: رواه أحمد بأسانيد ورجالها كلها رجال الصحيح، السنن الكبرى للبيهقي: ٣/ ٢٧٦.

(٤) البخاري: ٧/ ٢ كتاب المرضى باب ما جاء في كفارة المرضى، صحيح مسلم: ٤/ ١٩٩٢ كتاب البر=

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»(١).

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن أبيه عن النبي ﷺ قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء، ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة»(٢).

فهذه الأحاديث وغيرها تدل على أن المصائب والفتن التي تصيب المؤمن أنها من الله، حيث لا يقع في الكون كائن بغير مشيئته الحكيمة، ومن ذلك أن الله أعدّ للمؤمن فيها خيراً عظيماً سواء بتكفير السيئات أو برفعة الدرجات، إن صبر واحتسب، وإلا فيكون فتنة لغيره.

لذلك أورد بعض العلماء مسائل على هذه الأحاديث، وأمثالها:

أولاً: هل التكفير للصغائر أم للصغائر والكبائر؟.

ثانياً: هل المصائب تكفر الخطايا فقط أم أنها تكفير للخطايا وترفع الدرجات؟.

ثالثاً: هل تكفير الخطايا أو رفع الدرجات يحصل بمجرد المصيبة أم لا بد من الصبر عليها؟.

المسألة الأولى: هل التكفير خاص بالصغائر أم للصغائر والكبائر؟

قال ابن حجر عند إيراده لقول الرسول ﷺ: «من يرد الله به خيراً يصب

= باب ثواب المؤمن فيما يصيبه، كما أخرجه الترمذي، ومالك، وأحمد.

(١) صحيح البخاري: ٧/ ٢ كتاب المرضى باب ما جاء في كفارة المرضى واللفظ له، صحيح مسلم: ٤/ ١٩٩٢ ـ كتاب البر باب ثواب المؤمن فيما يصيبه.

(٢) مسند أحمد: ١/ ١٧٢ بهذا اللفظ: ١/ ١٧٢، ١٨٠، ١٨٥، سنن الترمذي: ٤/ ٦٠١ كتاب الزهد باب ٥٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح. سنن ابن ماجة: ٢/ ١٣٣٤ كتاب الفتن باب الصبر على البلاء: ٢٣، السنن الكبرى للبيهقي: ٣/ ٣٧٢، المستدرك: ١/ ٤١، المنتخب لعبد بن حميد: ١/ ١٨٠، سنن الدارمي: ٢/ ٢٢٨ باب في أشد الناس بلاء.

منه»[1]، وما قبله من الأحاديث السابقة[2]، وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة لكل مؤمن، لأن الآدمي لا ينفك غالباً من ألم بسبب مرض أو هم أو نحو ذلك مما ذكر، وأن الأمراض والأوجاع والآلام ـ بدنية كانت أو قلبية ـ تكفر دنوب من تقع له، وسيأتي في الباب الذي بعده من حديث ابن مسعود (ما من مسلم يصيبه أذى إلا حات الله عنه خطاياه)[3]. وظاهره تعميم جميع الذنوب لكن الجمهور خصوا ذلك بالصغائر، للحديث... (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر)[4].

فحملوا المطلقات الواردة في التكفير على هذا المقيد، ويحتمل أن يكون معنى الأحاديث التي ظاهرها التعميم أن المذكورات صالحة لتكفير الذنوب، فيكفر الله بها ما شاء من الذنوب، ويكون كثرة التكفير وقلته باعتبار شدة البلاء وخفته»[5] اهـ.

والذي يظهر أن المصائب مكفرات للصغائر والكبائر لعموم الأحاديث المتقدمة، وأما هذا الحديث فهو خاص بالأعمال المذكورة، ولا وجه لدخول عموم التكفير بالنسبة للمصائب بهذا إلا بدليل، لذلك قال بعض العلماء أن الصمائب مع تكفيرها السيئات ترفع الدرجات.

المسألة الثانية: هل المصائب مكفرات أو مثيبات؟

قال النووي[6] رحمه الله تعالى بعد سياقه للأحاديث المتقدمة في صفحة ١٧٢.

---

(١) صحيح البخاري: ٧/٣ كتاب المرضى باب ما جاء في كتاب المرضى ١، مسند أحمد: ٢/٢٣٧، الموطأ: ٢/٩٤١ كتاب العين باب ما جاء في أجر المريض ٢.

(٢) التي تقدمت في صفحة ١٧٢.

(٣) جزء من حديث في صحيح البخاري: ٧/٣ كتاب المرضى باب شدة المرض، واللفظ له، صحيح مسلم ٤/١٩٩١، كتاب البر، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ١٤، مسند أحمد: ٤/٧٠ بمعناه.

(٤) صحيح مسلم: ١/٢٠٩، كتاب الطهارة باب الصلوات الخمس.. (٥) واللفظ له، سنن الترمذي: ١/٤١٨ كتاب الصلاة باب ما جاء في فضل الصلوات الخمس ١٦٠، سنن ابن ماجة: ١/١٩٦ كتاب الطهارة باب تحت كل شعرة جنابة، مسند أحمد: ٢/٣٥٩، ٤٠٠، ٤١٤، ٤٨٤.

(٥) فتح الباري: ١٠/١٠٨.

(٦) تقدمت ترجمته في صفحة ١٥٣ من هذا البحث.

«وفي هذه الأحاديث بشارة عظيمة للمسلمين قلما ينفك الواحد منهم ساعة من شيء من هذه الأمور، وفيه تكفير الخطايا بالأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها، وإن قلّت مشقتها، وفيه رفع الدرجات بهذه الأمور، وزيادة الحسنات وهذا هو الصحيح الذي عليه جماهير العلماء. وحكى القاضي عياض[1] عن بعضهم أنها تكفر الخطايا فقط، ولا ترفع درجة ولا تكتب حسنة، قال: وروى نحوه عن ابن مسعود وقال أيضاً: والوجع لا يكتب به أجر لكن تكفر به الخطايا فقط».

واعتمد على الأحاديث التي فيها تكفير الخطايا ولم تبلغه الأحاديث التي ذكرها مسلم المصرحة برفع الدرجات وكتب الحسنات[2]. اهـ.

وقال المنبجي[3] رحمه الله: «احتجبت طائفة من العلماء إلى أنه يثاب على كل مصيبة بقوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

ثم ساق حديث أبي سعيد المتقدم في صفحة ١٧٣ وقال: «وروى الحاكم في المستدرك أن النبي ﷺ قال: (المصاب من حرم الثواب...)»[4].

---

(١) هو: عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي ثم البستي، المالكي المشهور، ولد سنة ٤٧٦ هـ، روى عن القاضي أبي سكرة الصدفي وعن أبي بحر بن العاص، ومحمد بن حميد وغيرهم استبحر من العلوم وجمع وألف كثيراً منها (الشفا) و (ترتيب المدارك وتقريب المسالك) رجال (وكتاب العقيدة) وكتاب (شرح أحديث أم زرع) وغيرها، ت ٥٤٤ هـ، سير أعلام النبلاء: ٢٠/ ٢١٢، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٨٣.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٦/ ١٢٨.

(٣) هو: محمد بن محمد بن محمد بن محمود الصالحي المنبجي الحنبلي (شمس الدين أبو عبدالله) محدث، فقيه، له كتب منها: (منهاج السالكين) و (عمدة البصراء والسالكين)، و (تسلية أهل المصائب) و (جزء في الطاعون وأحكامه) توفي ٧٨٥ هـ، شذرات الذهب: ٦/ ٢٣٦، معجم المؤلفين: ١١/ ٢٩٥، الأعلام: ٧/ ٤١.

(٤) ذكره المنبجي ولم أجده في المستدرك. انظر تسلية أهل المصائب: ٢٢٠.

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاث لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم»[1].

ثم ساق كلام النووي المتقدم في صفحة ١٧٤ وقال: «ويؤيد ذلك قول عائشة رضي الله عنها: (أما رأيت رجلاً أشد عليه الوجع من رسول الله ﷺ)[2]، وقوله ﷺ: «إني لأوعك مثل رجلين منكم»[3]، وإنك لتوعك وعكاً شديداً[4]، وقوله ﷺ: «أشد البلاء بلاء الأنبياء، ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل»[5].

قال جماعة من العلماء: والحكمة في كون الأنبياء أشد بلاء ثم الأمثل فالأمثل، أنهم مخصوصون بكمال الصبر وصحة الاحتساب والأنبياء معصومون من الخطايا ولهم الثواب والله أعلم.

وفي حديث المرأة التي كانت تصرع[6] دليل على أن الصرع يثاب عليه أكمل ثواب، وفي صحيح مسلم قالت امرأة: يا رسول الله، دفنت ثلاثة، قال: «دفنت ثلاثة»، قالت: نعم، قال: «احتظرت بحظاراً شديد من النار»[7].

قال بعض السلف: فقد الثواب على المصيبة أعظم من الثواب، فإنه قد ورد

---

(١) صحيح البخاري: ٢/ ٧٢ كتاب الجنائز باب فضل من مات له ولد ٦، واللفظ له وبنحوه في صحيح مسلم: ٢٠٢٨/٤ كتاب البر باب فضل من يموت له ولد ٤٧، سنن الترمذي: ٣/ ٣٦٤ كتاب الجنائز باب ما جاء في ثواب من قدم ولداً.

(٢) مسند أحمد: ١٧٣/٦، سنن الترمذي: ٦٠١/٤، كتاب الزهد باب ما جاء في الصبر ٥٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) جزء من حديث في صحيح البخاري: ٧/ ٣ كتاب المرضى باب أشد الناس بلاء الأنبياء ٣، وباب وضع اليد على المريض ١٣، وباب قول المريض أني وجع ١٦، ص٨. صحيح مسلم: ١٩٩١/٤، كتاب البر باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ١٤، كما أخرجه أحمد والدارمي.

(٤) جزء من الحديث الذي قبله.

(٥) جزء من حديث تقدم تخريجه في ص: ١٧٣.

(٦) وحديثها عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أنكشف، فادع الله لي، قال: إن شئت صبرت، ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف فأدع الله أن لا أتكشف فدعا لها)، صحيح البخاري: ٧/ ٤، كتاب المرضى، باب فضل من يصرع من الريح ٦، صحيح مسلم: ٤/ ١٩٩٤، كتاب البر باب ثواب المؤمن فيما يصيبه ١٤، مسند أحمد: ٣٤٦/١.

(٧) صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٣٠، كتاب البر باب فضل من يموت له ولد ٤٧، مسند أحمد: ٢/ ٤١٩.

أن النبي ﷺ قال: «المصاب من حرم الثواب»[1].

احتجت الطائفة الأخرى من العلماء ممن أطلق القول بأن المصائب لا يثاب عليها، وإنما يثاب على الصبر عليها بقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [الزمر: ١٠].

قال ابن عبد السلام[2] في (قواعده): الثواب إنما يكون على فعل العبد لا على فعل الله فيه، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧].

فما حصل لهم من صلاة الله عليهم ورحمته لهم وهدايته إياهم بقولهم: «إنا لله وإنا إليه راجعون» فالاسترجاع هو سبب في حصول ما ذكر[3].

وكذلك حديث الضحاك ابن عبد الرحمن ابن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل لملك الموت: يا ملك الموت قبضت ولد عبدي قبضت قرة عينيه، وثمرة فؤاده؟ قال: نعم، قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد»[4]، فحمده واسترجاعه هو سبب بناء البيت له في الجنة وتسمية البيت كافية[5]. . . أهـ.

وقد تقدم نقل القاضي عياض[6] رحمه الله في صفحة ١٧٥.

---

(١) تقدم ص ١٧٥ من هذا البحث.

(٢) عبد العزيز بن عبدالسلام بن أبي القاسم بن الحسنبن محمد بن المهذب السلمي الدمشقي الشافعي، وله سنة ٥٧٨ هـ تفقه على ابن عساكر، له مؤلفات عديدة، ناسكاً عابداً، تولى قضاء مصر القديمة، ت ٦٦٠ هـ، النجوم الزاهرة: ٧/ ٢٠٨، الأعلام: ٤/ ٢١.

(٣) انظر قواعد الأحكام في مصالح الأنام: ١/ ١٢٦.

(٤) مسند أحمد: ٤/ ٤١٥، سنن الترمذي: ٣/ ٣٣٢ كتاب الجنائز باب فضل المصيبة إذا احتسب ٣٦، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٥) تسلية أهل المصائب: ٢٢٢.

(٦) تقدمت ترجمته في ص ١٧٥.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية تفصيل في المسألة، فبعد أن ذكر ما أصيب به الرسول والمؤمنون من المصائب بسبب اختيارهم طاعة الله فقال: «وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره، ورضاه، وتكفر عنه الذنوب بمصائبه، فإن هذا[1] أصيب وأوذي باختياره طاعة الله، يثاب على نفس المصائب، ويكتب له بها عمل صالح، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) ﴾ [التوبة: ١٢٠]، بخلاف المصائب التي تجري بلا اختيار العبد كالمرض، وموت العزيز عليه، وأخذ اللصوص ماله، فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها لا على نفس ما يحدث من المصيبة وما يتولد عنها، والذين يؤذون على الإيمان وطاعة الله ورسوله ويحدث لهم بسبب ذلك حرج أو مرض، أو حبس، أو فراق وطن، وذهاب مال، وأهل، أو ضرب أو شتم أو نقص رياسة، ومال، وهم في ذلك على طريقة الأنبياء وأتباعهم المهاجرين الأولين، فهؤلاء يثابون على ما يؤذون به، ويكتب لهم به عمل صالح، كما يثاب المجاهد على ما يصيبه من الجوع والعطش والتعب، وعلى غيظة الكفار، وإن كانت هذه الآثار ليست عملاً فعله، ويقوم به، لكنها متسببة عن فعله الاختياري، وهي التي يقال لها متولدة»[2]. اهـ.

فتبين من كلام شيخ الإسلام أن المصائب مكفرات، ومثيبات، وإن كانت بسبب طاعة الله فإنه يثاب عليها وعلى ما يتولد منها وهذا ما دلت عليه النصوص. فقد تقدم جملة من الأدلة على تكفير السيئات، أما الأدلة العامة على رفع الدرجات فمنها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة وحطّ عنه بها خطيئته»[3].

---

(١) هذا إشارة إلى ذكر متقدم وهو المؤمن الذي اختار الأذى بسبب طاعته لله.

(٢) أمراض القلوب وشفاؤها: ٢٠.

(٣) صحيح مسلم: ٤/١٩٩١ كتاب البرية ثواب المؤمن فيما يصيبه ١٤ واللفظ له.

وفي لفظ: «ما من شيء يصيب المؤمن حتى الشوكة تصيبه إلا كتب الله له بها حسنة أو حطّت عنه بها خطيئة»(١).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى أذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من يرد الله به خيراً يصب منه»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صفية من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»(٤).

ومع هذا الأجر العظيم الذي دلت عليه الأحاديث، فإنها تدل كذلك على التعويض من الله سواء في الدنيا أو الآخرة.

لدلالة الأحاديث المتقدمة والآيات الواردة في السورة منها قوله سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٥].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٧].

فهذه الآية كما تقدم في تكفير السيئات أن المؤمن لا بد له من ابتلاء حتى عمله ابتلاء من الله هل بصر ويعمله باحتساب، أم لا، فإن كان عمله أشغله عن لذة

(١) صحيح مسلم: ٤/١٩٩٢ كتاب البرية ثواب المؤمن فيما يصيبه ١٤ وفي بعض روايات الحديث خصه مسند أحمد: ٦/٤٣، ١٧٣، ١٧٥ ـ ٢٥٥ ـ ٢٧٨ بألفاظ مختلفة.

(٢) سنن الترمذي: ٤/٦٠١ كتاب الزهد باب ما جاء في الصبر على البلاء، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. سنن ابن ماجة: ٢/١٣٢٨ كتاب الفتن باب الصبر على البلاء ٢٣، وحسنه الألباني في صحيح الجامع: ١/٢١٦ رقم ٢١٠٦، وسلسلة الأحاديث الصحيحة: ١/٢٢٧ رقم ١٤٦.

(٣) تقدم تخريجه في صفحة ١٧٤.

(٤) صحيح البخاري: ٧/١٧٢ كتاب الرقاق باب العمل الذي يبتغى به وجه الله تعالى، مسند أحمد: ٢/٤١٧.

من لذات الدنيا فإن العوض من الله خير كما قال رسول الله ﷺ قال: «إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة»، يريد عينيه[1].

والمتتبع لسير المرسلين وأتباعهم وما أصيبوا به من أذى يرى أن العاقبة كانت لهم، سواء في العاجل أو الآجل.

فهذا إبراهيم عليه السلام لما صبر على بلاء قومه عوضه الله بذرية بارة مطيعة كما قال سبحانه: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

ولما ترك المهاجرين ديارهم لله وأوطانهم التي هي أحب شيء إليهم حيث أمرهم الله حيث قال: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا وملكهم شرق الأرض وغربها، يقول الله عز وجل: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣].

وكما ترك يوسف الصديق امرأة العزيز لله واختار السجن على الفاحشة عوضه الله أن مكّنه في الأرض يعبوأ منها حيث يشاء.

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى أن المجاهد في الله يهديه الله سبله ومعلوم أن المجاهد لله ـ لا بد أن يترك كثيراً من الملذات والشهوات، ويقبل على الله فعوضه الله أن هداه سبيله، وكان معه معية خاصة.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

---

(١) صحيح البخاري: ٧/ ٤، كتاب المرضى باب فضل من ذهب بصره واللفظ له، مسند أحمد: ٣/ ١٤٤، سنن الترمذي: ٤/ ٦٠٣ كتاب الزهد باب ما جاء في ذهاب البصر ٥٧.

وقد عزا الله المؤمنين حين اختاروا الألم المنقطع على الألم العظيم المستمر بقوله: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥].

فضرب لمدة هذا الألم أجلاً لا بد أن يأتي وهو يوم لقائه، فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله، وفي مرضاته، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله ولله، وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه، ليحمل العبد اشتياقه إلى لقاء ربه، ووليه، على تحمل مشقة الألم العاجل...

كما عزاهم تعالى بعزاء آخر، وهو أن جهادهم فيه إنما هو لأنفسهم وثمرته عائدة عليهم، وأنه غني عن العالمين... ثم أخبر أنه يدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زمرة الصالحين[1]، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾ [العنكبوت: ٩].

ثالثاً: هل التكفير حاصل بمجرد المصيبة أم لا بد من الصبر؟

الناس بالنسبة لأقدار الله أربعة أقسام:

الأول: من يرضى عن ربه فيها والمزيد من حبه والشوق إليه، وهذا نشأ من مشاهدتهم للطف الله فيهم، وبره وإحسانه العاجل والآجل.

الثاني: من يشكر الله عز وجل على المصائب كما يشكره على النعم وهذا فوق الرضا إلا أنه غالباً ما يكون على النعم فهو في فتنة السراء أظهر.

الثالث: من يصبر على أقدار الله وهم المقتصدون، ولا يتحقق الرضا والشكر إلا بالصبر.

الرابع: الجزع والتسخط والتشكي، واستبطاء الفرج واليأس، من الروح، والجزع الذي يفوت الأجر[2].

وعلى هذا التقسيم فلا بد للمصاب أن يكون من الصابرين فما فوق، أم من

---

(١) زاد المعاد: ٣/١٦.

(٢) انظر طريق الهجرتين: ٢١٨.

الساخطين، وقد ذكر ابن حجر أن الأجر حاصل بمجرد المصيبة، فقال عند سياقه للحديث الأول حديث عائشة ـ وفي هذا الحديث تعقب على الشيخ عز الدين بن عبدالسلام[1] حيث قال: ظن بعض الجهلة أن المصاب مأجور، وهو خطأ صريح، فإن الثواب والعقاب إنما هو على الكسب، والمصائب ليست منها، بل الأجر على الصبر والرضا»[2] اهـ.

ووجه التعقب أن الأحاديث الصحيحة صريحة في ثبوت الأجر بمجرد حصول المصيبة، وأما الصبر والرضا فقدر زائد يمكن أن يثاب عليهما، زيادة على ثواب المصيبة، قال القرافي[3]: المصائب كفارات جزماً سواء اقترن بها الرضا أم لا، لكن إن اقترن بها الرضا عظم التكفير وإلا قل، كذا قال: والتحقيق أن المصيبة كفارة لذنب يوازيها، وبالرضا يؤجر على ذلك، فإن لم يكن للمصاب ذنب عوض عن ذلك من الثواب بما يوازيه»[4] اهـ.

والذي يظهر لي بعد هذا النقل أن الأجر لا يحصل إلا مع الصبر لأنه لا بد للإنسان أن يصبر أو يسخط، ولا أعرف مرتبة بينهما، إلا أن الصبر إما أن يكون لله ومع الله فإنه يؤجر على ذلك، للآيات والأحاديث التي تحث على الصبر وتأمر به، وإما أن يكون لغير ذلك من غاياته في الدنيا، أو يجبر على الصبر كصبر البهائم، ويسلي نفسه كصبر الكفار، فإن هذا لا أجر له.

قال ابن القيم بعد أن تكلم على الصبر فقال: «المراتب أربعة: **إحداها** مرتبة الكمال، وهي مرتبة أولي العزم، وهي الصبر لله وبالله، فيكون في صبره مبتغياً وجه الله، صابراً به، متبرئاً من حوله، وقوته، فهذا أقوى المراتب وأرفعها وأفضلها.

الثانية: أن لا يكون فيه لا هذا ولا هذا، فهو أخس المراتب، وأردأ الخلق، وهو جدير بكل خذلان، وبكل حرمان.

---

(١) تقدمت ترجمته في صفحة ١٧٧.

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام: ١/ ١٢٧.

(٣) هو: أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن أبو العباس شهاب الدين الصنهاجي القرافي المالكي، له مصنفات كثيرة في الفقه والأصول منها أنوار البروق في أنواء الفروق، والأحكام في تمييز الفتاوى من الأحكام وتصرف القاضي والإمام، والذخيرة، والواقيت في أحكام المواقيت، ت ٦٨٤ هـ، الديباج المذهب: ١/ ٢٣٦، وشجرة النور: ١٨٨، والأعلام: ١/ ٩٤.

(٤) فتح الباري: ١٠/ ١٠٥، وانظر: ١٠٩.

الثالثة: مرتبة من فيه صبر بالله، وهو مستعين متوكل على حوله متبرىء من حوله هو وقوته، ولكن صبره ليس لله، إذ ليس صبره فيما هو مراد الديني منه، فهذا ينال مطلوبه، ويظفر به ولكن لا عاقبة له، وربما كانت عاقبته شر العواقب.

الرابع: من فيه صبر لله لكنه ضعيف النصيب من الصبر به، والتوكل عليه، والثقة به، والاعتماد عليه، فهذا له عاقبة حميدة، ولكنه ضعيف عاجز»[1] اهـ.

وإن حصل مع الصبر على المصائب رضى، وشكر، فإنه أعظم للأجر، «فالرضا بالقضاء الكوني القدري الجاري على خلاف مراد العبد، ومحبته مما لا يلائمه، ولا يدخل تحت اختياره مستحب، وهو من مقامات أهل الإيمان، بخلاف الرضى بالقدر الجاري عليه باختياره، مما يكرهه الله ويسخطه، وينهي عنه كالظلم والفسوق والعصيان، فإن هذا حرام يعاقب عليه وهو مخالفة لله تعالى»[2].

كذلك الشكر حيث أن الله أمر به، وأثنى على أهله، ونهى عن ضده، من ذلك قوله تعالى عن إبراهيم في دعوة قومه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقال سبحانه: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

إلا أن الغالب في الشكر أن يكون على السراء وهي من الفتن العامة التي ينبغي للمسلم أن يشكر الله عليها، وليست من المصائب النازلة المقصودة في هذا الموضوع.

فتبين أنه لا أجر بدون الصبر، فما فوقه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «المصائب التي تجري بلا اختيار العبد كالمرض، وموت العزيز عليه، وأخذ ماله، فإن تلك إنما يثاب على الصبر عليها، لا على نفس ما يحدث من المصيبة، وما

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ١٧٧.
(٢) انظر مدارج السالكين: ٢/ ٢٠٢.

يتولد عنها»[1] اهـ.

وأما إن حصل ضد الصبر وهو الجزع والتسخط والتشكي فإن هذا لا يؤجر بل قد يحصل له الإثم لقوله ﷺ: «إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي له الرضى ومن سخط فله السخط»[2].

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «بريء من الصالقة والحالقة والشاقة»[3] وقوله ﷺ: «ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[4].

من حكم الابتلاء التمييز بين المؤمنين والكفار كما تقدمت الإشارة إلى ذلك عند التمحيص[5].

فالتمييز، من مزت الشيء أميزه ميزاً، عزلته وفرزته، وكذلك ميزته تمييزاً، فأنماز، وامتاز، وتميز، واستماز كله بمعنى، يقال امتاز القوم، إذا تميز بعضهم من بعض، وفلان يكاد يتميز من الغيظ أي ينقطع»[6].

وهذا معنى التميز في اللغة، فالمراد هنا تمييز المؤمن من الكافر وقد ثبت ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣].

قال الطبري رحمه الله تعالى: «فليعلمن الله الذين صدقوا» منهم في قولهم آمنا «وليعلمن الكاذبين» منهم في قولهم ذلك، والله عالم بذلك منهم قبل الاختبار، وفي حال الاختبار، وبعد الاختبار، ولكن معنى ذلك: «وليظهرن الله الصادق منهم

---

(١) أمراض القلوب وشفاؤها: ٢١.

(٢) تقدم تخريجه في صفحة ١٧٩.

(٣) صحيح البخاري: ٢/٨٣ كتاب الجنائز باب ما ينهي من الحلق عند المصيبة ٣٨، صحيح مسلم: ١/١٠٠، كتاب الإيمان باب تحريم ضرب الخدود ٤٤، والضالقة هي التي ترفع صوتها عند المصيبة، والحالقة تحلق شعرها والشاقة تشق ثوبها، النووي على مسلم: ٢/١١٠.

(٤) صحيح البخاري: ٢/٨٣، كتاب الجنائز باب ليس منا من ضرب الخدود ٣٩، صحيح مسلم: ١/٩٩، كتاب الإيمان باب تحريم ضرب الخدود ٤٤، ودعوى الجاهلية: هي النياحة وندبة الميت والدعاء بالويل، وشبهه النووي على مسلم: ٢/١١٠.

(٥) في صفحة ١٧١ من هذا البحث.

(٦) الصحاح للجوهري: ٣/٨٩٧.

في قيله آمنا بالله من كذب الكاذب منهم بابتلائه إياه بعدوه ليعلم صدقه من كذبه أولياؤه»[1] اهـ.

والله عز وجل بين في هذه السورة «عن تمام حكمته، وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال أنه مؤمن وادعى لنفسه الإيمان أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه فأنهم لو كان الأمر كذلك لم يتميز الصادق من الكاذب والمحق من المبطل، ولكن سنته تعالى في الأولين، وفي هذه الأمة أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة.

فمن كان عند ورود الشبهات، يثبت إيمانه ولا يتزلزل ويدفعها بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته دل ذلك على صدق إيمانه وصحته ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه، شكا، وريباً، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي، أو تصدفه عن الواجبات، دل ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه»[2]. فعلى هذا الابتلاء تخليص الخير من الشر، وتمييزه، سواء في الدنيا أو الآخرة كما قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٧].

وكما قال ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مربادا[3] كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٠/١٢٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٦/٦٦.

(٣) المرباد هو شدة البياض في سواد، (أو شبه البياض) والكوز مجخياً أي منكوساً. صحيح مسلم: ١/١٣٠.

هواه»[1].

وعلى هذا فهل يمكن تمييز الخبيث من الطيب بدون ابتلاء؟.

أنه لا بد للتمييز من ابتلاء، فما يصيب المؤمن في هذه الدارس من إدالة عدوه عليه وأذاه له في بعض الأحيان: أمر لازم لا بد منه وهو كالحر الشديد، والبرد الشديد، والأمراض والهموم، والغموم، فهذا أمر لازم للطبيعة، والنشأة الإنسانية في هذه الدار حتى الأطفال والبهائم، لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين، فلو تجرد الخير في هذا العالم عن الشر، والنفع من الضر واللذة عن الألم لكان ذلك عالماً غير هذا، ونشأة أخرى غير هذه النشأة»[2].

إذاً لا بد من الابتلاء، فلو كان المؤمنون دائماً منصورين قاهرين غالبين لدخل معهم من ليس قصده الدين، ومتابعة الرسول فإنه إنما ينضاف إلى من له الغلبة والعزة، ولو كانوا مقهورين مغلوبين دائماً لم يدخل معهم أحد، فاقتضت الحكمة الإلهية أن كانت لهم الدولة تارة، وعليهم تارة، فيتميز بذلك بين من يريد الله ورسوله ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه»[3].

وقد مرت حوادث على الأمة الإسلامية تميز فيها الصادق من المنافق، ومن أبرزها ما حصل في غزوة أحد، حين خرج رسول الله ﷺ وأصحابه إلى أحد، قال ابن إسحاق[4]: «حتى إذا كانوا بالشوط[5] بين المدينة وأحد انخزل عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب»[6] اهـ.

---

(١) صحيح مسلم: ١٢٨/١، كتاب الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً: ٦٥ واللفظ له، مسند أحمد: ٣٨٦/٥، ٤٠٥.

(٢) إغاثة اللهفان: ١٨٩/٢.

(٣) انظر: إغاثة اللهفان: ١٩٠/٢.

(٤) هو: محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار ـ العلامة الحافظ الإخباري، صاحب السيرة، ولد سنة ثمانين هـ، ورأى أنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، وهو أول من دون العلم بالمدينة، وكان في العلم بحراً عجاجاً، ت سنة ١٥١ هـ، روى له مسلم في المتابعات، واستشهد به البخاري، وأخرج أرباب السنن له، طبقات ابن سعد: ٣٢١/٧، سير أعلام النبلاء: ٣٣/٧، التاريخ الكبير: ٤٠/١ معجم البلدان: ٣/ ٣٧٢.

(٥) إسم حائط يعني بستاناً في المدينة بينها وبين أحد. معجم البلدان: ٣/ ٣٧٢.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام: ٦٨/٣، وانظر المغازي للواقدي: ٢١٩/١.

وقد ذكر ابن القيم من الحكم في غزوة أحد فقال: «ومنها أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار لهم الصيت، ودخل معهم في الإسلام ظاهراً من ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حكمة الله عز وجل أن سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مخبآتهم، وعاد تلويحهم تصريحاً، وانقسم الناس إلى كافر، ومؤمن، ومنافق، انقساماً ظاهراً»[1] اهـ.

وكما في قصة الأقرع والأعمى والأبرص التي ميز الله فيها بين الغني الشاكر ـ والكافر ـ وقد ميز الله بين المؤمنين والمنافقين في هذه السورة حيث بين أن المنافقين لا يتحملون أي أذى يصيبهم في ادعائهم الإيمان، فهم لا يصبرون ويعدون أي أذى كأنه هو عذاب الله الذي بين سبحانه أنه شديد، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

فالناس في الابتلاء ينقسمون إلى قسمين:

الأول: إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن فإن رده ذلك الإبتلاء والمحن إلى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به، فمن حكمة الابتلاء بالنسبة للمؤمنين: «تكميل العبودية لله في السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، وفي حال إدالتهم والإدالة عليهم، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى تلك الحال، لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبر، والجوع والعطش، والتعب والنصب، وأضدادها، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه، ووجود الملزوم بدون لازمة ممتنع»[2].

(١) زاد المعاد: ٢/٢١٩.
(٢) إغاثة اللهفان: ٢/١٩٠.

ومن العبودية أن يشكو العبد إلى ربه، ويتضرع إليه[(١)]، ويدعوه، فالله يحب ذلك من العبد، فهو سبحانه يرى عباده إذا نزل بهم ما يختبرهم به من المصائب وغيرها، ويعلم خائنة أعينهم، وما تخفي صدورهم فيثيب كل عبد على قصده ونيته، وقد ذم الله تعالى من لم يتضرع إليه، ولم يستكن له وقت البلاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون: ٧٦].

فالله عز وجل «يذيق عبده ألم الحجاب عنه والبعد وزوال ذلك الأنس والقرب ليمتحن عبده، فإن أقام على الرضا بهذه الحال ولم يحب نفسه تطالبه بحالها الأول مع الله، بل اطمأنت، وسكنت إلى غيره علم أنه لا يصلح فوضعه في مرتبته التي تليق به، وإن استغاث به استغاثة الملهوف، وتعلق تعلق المكروب، ودعا دعاء المضطر، وعلم أنه قد فاتته حياته حقاً فهو يهتف بربه أن يرد عليه حياته، ويعيد عليه ما لا حياة له بدونه، علم أنه موضع لما أهل له فرد عليه أحوج ما هو إليه فعظمت به فرحته وكملت به لذته، وتمت به نعمته، واتصل به سروره، وعلم حينئذ مقداره فعض عليه بالنواجد، وثني عليه الخناصر، وكان حاله كحال ذلك الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه، ففي الأرض المهلكة، إذ وجدها بعد معاينة الهلاك[(٢)]، فما أعظم موقع ذلك الوجدان عنده، ولله أسرار وحكم ومنبهات وتعريفات لا تنالها عقول البشر»[(٣)].

القسم الثاني: إذا ابتلى الإنسان ولم يرده ذلك البلاء إلى الله بل شرد قلبه عنه ورده إلى الخلق، وأنساه ذكر ربه، والضراعة إليه، والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع إليه فهو علامة شقاوته، وإرادة الشر به فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلى حكم طبيعته، وسلطان شهوته، ومرحه وفرحه، فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع من الأشر والبطر، والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء، كما أعرض عن ذكره، والتضرع إليه في الضراء، فبلية هذا وبال عليه وعقوبة ونقص في حقه»[(٣)].

ويرد على هذا مسألة هل المصائب في الدنيا للمؤمنين فقط؟.

وأقول أنها ليست خاصة بالمؤمنين، فما يرى فيه الكافر والفاجر، والمنافق

---

(١) تسلية أهل المصائب: ٢١٧ ـ ٢١٨.

(٢) مفتاح دار السعادة: ١/٢٩٦.

(٣) طريق الهجرتين: ٩٦٤.

من العز والنصر، والجاه، فهو دون ما يحصل للمؤمنين بكثير بل باطن ذلك ذل وكسر، وهوان، وإن كان في الظاهر بخلافه.

قال الحسن[1] رحمه الله: «أما والله لئن تدقدقت بهم الهماليج، ووطئت الرجال أعقابهم إن ذل المعصية لفي قلوبهم، ولقد أبى الله أن يعصيه عبد إلا أذله»[2].

وقد يشكل على بعض الناس حديث رسول الله ﷺ وهو: «الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر»[3].

ولكن يزول هذا الإشكال إذا علم أن المؤمن على ما هو فيه بالدنيا من العزة والنصر بالنسبة إلى ما يلاقيه عند الله في الجنة من النعيم المقيم كأنه كان في سجن، أما الكافر لما فيه في هذه الدنيا على أي حال كان بالنسبة لما أعده الله له من الجحيم والنكال العظيم فكأنه في جنة[4].

---

(١) هو الحسن البصري.

(٢) حلية الأولياء: ٢/١٤٩.

(٣) صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٧٢ كتاب الزهد حديث ١، سنن الترمذي: ٤/ ٥٦٢، كتاب الزهد باب ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، سنن ابن ماجة: ٢/١٣٧٨، كتاب الزهد باب الهم بالدنيا ٣، مسند أحمد: ٢/ ٣٢٣ ـ ٣٨٩.

(٤) انظر النووي على مسلم: ١٨/ ٩٣.

المبحث الثالث
هل للمسلم أن يستدعي البلاء على نفسه

تقدم في حكمة الابتلاء والفتن أن فيها أجراً عظيماً وتكفير للسيئات، فهل للمسلم أن يستدعي البلاء على نفسه طلباً لهذا الفضل العظيم، أو يترك ما أوجبه الله عليه خوفاً من الفتنة؟.

وهذا يرجع إلى الحكمة في الأمور والعمل لكل وقت بما يناسبه فالمتتبع لسيرة المصطفى ﷺ «وهو أكمل المؤمنين إيماناً وأقوى توكلاً، وأعظم داعية، يرى أنه لا يستدعي البلاء على نفسه، ولا يترك ما أوجبه الله عليه، وإنما جمع بين التوكل والعمل بالأسباب كما تقدم»[1].

فقام بالدعوة إلى الله خير قيام حسب مقتضى الظروف والأحوال المقرونة بحكمة الله، وأمره، وشرعه.

فقد ثبت عنه ﷺ أنه دخل بعد رجوعه من الطائف بجوار المطعم بن عدي ليجيره من أذى قريش حتى يبلغ رسالة ربه[2]، وكان ﷺ يخرج إلى القبائل أيام الموسم ويدعوهم إلى الإسلام ويقول: «ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي»[3].

كذلك هجرته ﷺ وهجرة أصحابه الأولى إلى الحبشة، والثانية إلى المدينة

---

(١) تقدم في باب التوكل ـ صفحة ١١٠ من هذا البحث.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٠٨٠.

(٣) سنن الترمذي: ٥/ ١٨٤، كتاب فضائل القرآن، باب ٢٤، سنن أبي داود: ٥/ ١٠٣، كتاب السنة باب في القرآن ٢٢، سنن ابن ماجة: ٧٣١، المقدمة، باب في ما أنكرت الجهمية ١٣، حديث ٢٠١، مسند أحمد: ٣/ ٣٩٠، سنن الدارمي: ٢/ ٣١٧، كتاب فضائل القرآن، باب القرآن كلام الله.

تدل دلالة واضحة على أنه لا يجوز للمسلم أن يستدعي البلاء على نفسه حيث لم يستمر الرسول ﷺ في مواجهة القوم كما أنه كان يحمي نفسه من الأعداء في المعارك، وينهي الصحابة من تعرضهم للبلاء وإيجابهم على أنفسهم ما لم يوجبه الله عليهم. فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «لا ينبغي للمسلم أن يذل نفسه، قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يطيق»[١].

وقال ﷺ لعبد الرحمن بن سرة: «يا عبدالرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير»[٢]. ويقول ﷺ عن الطاعون: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»[٣].

وقوله ﷺ: «لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ولكن إذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»[٤].

وتعوّذ ﷺ من فتنة الغنى والفقر ـ والدنيا، والنار، وغير ذلك. قال العلماء: أراد ﷺ مشروعية ذلك لأمته[٥].

يقول ابن تيمية بعدما ساق هذه الأحاديث: «وأمثال ذلك مما يقتضي أن

---

(١) مسند أحمد: ٥/٤٠٥، سنن الترمذي: ٤/٥٢٣ كتاب الفتن باب ٦٧، وقال: هذا حديث حسن غريب، سنن ابن ماجة: ٢/١٣٣٢ كتاب الفتن باب قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾، المعجم الكبير للطبراني عن حذيفة، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٦/٢٥٣ رقم ٧٦٧٤، وسلسلة الأحاديث الصحيحة: ٢/١٧٢ رقم ٦١٣.

(٢) صحيح البخاري: ٨/١٠٦ كتاب الأحكام، باب من لم يسأل الإمارة أعانه الله، وفي الكفارات، والأيمان، والنذور. صحيح مسلم: ٣/١٢٧٣ كتاب الأيمان باب ندب من حلف يميناً ٣، والإمارة باب النهي عن طلب الإمارة ٣، كما أخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وأحمد: ٥/٦٢، ٦٣.

(٣) صحيح البخاري: ٧/٢١ كتاب الضب باب ما يذكر في الطاعون واللفظ له.
صحيح مسلم: ٤/١٧٣٧ كتاب السلام باب الطاعون والطير.

(٤) صحيح البخاري: ٤/٢٤ كتاب الجهاد باب لا تتمنوا لقاء العدو، صحيح مسلم: ٣/١٣٦٣، كتاب الجهاد، باب كراهة تمني لقاء العدو ٦.
سنن أبي داود، كتاب الجهاد: ٣/٩٥ باب في كراهية لقاء العدو.

(٥) فتح الباري: ١٣/٤٤، مسند أحمد: ١/١٨٢ ـ ١٩٤، ٥/٢٠١، ٢٠٨.

الإنسان لا ينبغي له أن يسعى فيما يوجب عليه أشياء ويحرم عليه أشياء فيبخل بالوفاء، كما يفعل كثير ممن يعاهد الله عهوداً على أمور وغالب هؤلاء يبتلون بنقض العهود، ويقتضي أن الإنسان إذا ابتلى فعليه أن يصبر، ويثبت، ولا ينكل حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات ولا بد في جميع ذلك من الصبر»[1] اهـ. وهذا لا يسقط الواجب على المسلم بل عليه أن يؤدي ما أوجبه الله عليه حسب استطاعته فإن ابتلى صبر واحتسب، ولذلك يقول الرسول ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[2].

فإذا تعين على المسلم واجب فعليه أن يسلك السبل التي تعينه على الواجب ولا يلقي بنفسه في التهلكة، ولا يترك الواجب لشيء دونه فيكون كمن قال الله تعالى فيه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣].

فالفتنة قسمت الناس إلى صادق وكاذب ومؤمن ومنافق، وطيب وخبيث فمن صبر عليها كانت رحمة في حقه، ونجا بصبره من فتنة أعظم منها، ومن لم يصبر عليها وقع في فتنة أشد منها، لأنه وقع بالمعصية وفرّ من الواجب إلى ما يميل له طبعه وهواه كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩].

يقول الجد بن قيس لما ندبه رسول الله ﷺ إلى تبوك يقول: ائذن لي في

---

(١) التحفة العراقية في أعمال القلوب لابن تيمية ص ٤٦، وانظر الزهد والورع والعبادة للمؤلف ص ١٨.

(٢) صحيح مسلم: ٦٩/١ كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، سنن النسائي: ١١١/٨، كتاب الإيمان باب تفاضل أهل الإيمان، سنن أبي داود: ٦٧٧/١، كتاب الصلاة باب خطبة يوم العيد: ٢٤٨، مسند أحمد: ٢٠/٣، سنن ابن ماجة: ٤٠٦/١، كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء في صلاة العيدين.

القعود، ولا تفتني بتعريضي لبنات بني الأصفر، فإني لا أصبر عنهن، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة: ٤٩]، أي وقعوا في فتنة النفاق وفروا إليها من فتنة بنات الأصفر[١]، فالفتنة التي فر منها ـ بزعمه ـ هي فتنة محبة النساء وعدم صبره عنهن، والفتنة التي وقع فيها هي فتنة الشرك والكفر في الدنيا والعذاب في الآخرة.

يقول ابن تيمية: ولما كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يتعرض له المرء للفتنة، صار في الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة[٢].

ويقول: «ففي إعراضه عن الجهاد الواجب ونكوله عنه وضعف إيمانه، ومرض قلبه الذي زين له ترك الجهاد فتنة عظيمة قد سقط فيها، فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه، بوقوعه في فتنة عظيمة قد أصابته، والله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال: ٣٩].

فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون فتنة، فهو في الفتنة سقط بما وقع فيه من ريب قلبه ومرض فؤاده، وتركه ما أمره الله به من الجهاد، فتدبر هذا فإن هذا مقام خطر»[٣] اهـ.

فالله عز وجل أمر المسلم أن يقوم بالواجب وأن خوفه من الفتن لا يعفيه منه كما قال تعالى: ﴿الم ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٢].

وبين سبحانه أن من قام بالواجب أعانه الله عليه كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٠/١٤٨، أسباب النزول للواحدي: ٢٨٤، زاد المعاد: ٣/١٦٩، زاد المعاد: ٣/١٦٩.
(٢) الاستقامة: ٢/٢٨٧.
(٣) الاستقامة: ٢/٢٨٩.

جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فعلى المسلم أن يسلك سبيل الدعوة إلى الله بالطرق التي بينها الله وإذا حصل له ضرر فعليه أن يدفعه بكل وسيلة مشروعة كما تقدم من سيرة المصطفى ﷺ، وعليه أن يصبر ويحتسب فإنه أعظم لأجره...

المبحث الرابع
أنواع الفتن الواردة في السورة

للفتن صور وأنواع عدة كما تقدم في تعريفها، وأنها بحسب ما يضاف إليها، وقد بين الله عز وجل في هذه السورة عدة أنواع للفتنة وهي بمجملها تنقسم إلى قسمين:

الأول: الشبهات.

الثاني: الشهوات.

وقد تجتمع الفتنتان كما في الدجال الذي هو أعظم فتنة حذرنا الرسول ﷺ منها.

فالأولى هي المعارضة للعقيدة التي لا يسلم منها إلا من عرف الله ورسوله ﷺ، وهي تأتي من ضعف البصيرة، وقلة العلم، وخاصة إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى، وهي تؤدي إلى الكفر والنفاق والبدع، وهذا هو الضلال الذي من اتباع الفتن والشبهات، ومما ورد منها في السورة:

١ ـ شبهة إيذاء الناس بترك ما أوجبه الله.

٢ ـ شبهة عبادة اوصنام وتزيين الشيطان.

٣ ـ شبهة الخوف من الموت وفوات الرزق، بترك ما أوجبه الله.

١ ـ فتنة الشبهات

ومن أنواع الفتن الواردة في السورة فتنة الناس وهي من فتن الشبهات، فالناس يؤذون، ويؤذون، وتختلف درجاتهم في هذه الأيذاء، والله سبحانه ذكر

صنفاً من الناس لا يتحملون أي أذى في سبيل الله فهؤلاء إيمانهم ليس بصادق، وذلك لضعف إيمانهم، فإذا أوذي أحدهم بضرب أو أخذ مال أو تعبير ليرتد عن دينه وليراجع الباطل[1]، ويظن أن ما حصل له من هذا الأذى مثل عذاب الله، وشتان، فإن هذا يجزع من عذاب الناس وأذاهم ولا يصبر عليه فيطيعهم[2] كطاعة الخائف من الله لله.

وإيذاء الكفار للمؤمنين من أنواع الابتلاء والفتن.

فالمنافقون الذين يقولون آمنا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، إذا حصل للمسلمين من الكفار أذى وهم معهم جعلوا فتنة الناس أذاهم».

مع ضعفها وانقطاعها ـ كعذاب الله الأليم الدائم[3].

فمن في قلبه مرض اشتبه عليه الأمر فظن أن العذابين سواء فآثر الراحة، فالناس يفتن بعضهم بعضاً عن الإيمان ويصرف بعضهم بعضاً عن الحق، ويردى بعضهم بعضاً في الباطل، أما بالقوة والغلبة أو بالإغواء والإغراء والأماني، ولكن المؤمنين لا يضيرهم ذلك، بل يزداد إيمانهم ويقينهم مهما كان الإيذاء وكانت درجاته، وإليك صوراً رائعة من صبرهم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البروج: ١٠].

فعند هذه الآية يذكر المفسرون أصحاب الأخدود وما حصل لهم من أذى وفتنة، فعن صهيب الرومي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر، فبعث إليه غلاماً يعلمه، فكان في طريقه، إذا سلك، راهب، فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦/ ٧٠.
(٢) انظر تفسير البغوي: ٣/ ٣٦٢.
(٣) انظر أضواء البيان: ٦/ ٤٦٢.

عظيمـة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل. فأخذ حجراً فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابـة حتى يمضي الناس فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى وأنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرىء الأكمة[1] والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمى، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله تعالـى، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفـاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمة والأبرص، وتفعل، وتفعل. فقال: إني لا أشفي أحداً، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب فجيء بالراهب، فقيل له: إرجع عن دينك فأبى فدعي بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثـم جيء بجليس الملك، فقيل له ارجـع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه وقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل فإذا بلغتم ذروته، فـإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه. فذهبوا بـه فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفينهـم بما شئت فرجف بهم الجبل، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفـانيهـم الله، فـدفعـه إلـى نفـر مـن أصحـابـه فقـال: اذهبـوا بـه فـاحملـوه فـي قرقورة[2] فتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه. فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة، فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فقال الملك: أنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني

---

(١) الأكمة: الذي خلق أعمى. النووي على مسلم: ١٨/ ١٣٠.

(٢) قرقورة: بضم القاف، السفينة الصغيرة، وقيل الكبيرة، وهو اختيار القاضي عياض، النووي على مسلم: ١٨/ ١٣١.

على جذع، ثم خذ سهماً من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله، رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد وصلبه على جذع، ثم أخذ سهماً من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس ثم قال: باسم الله رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم بمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام. فأتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه[1] فيها أو قيل له اقتحم، ففعلوا، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق»[2].

وقد أوذي رسول الله ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم حتى تركوا ديارهم وأموالهم وهاجروا إلى المدينة.

ومن ما ورد في السورة من فتنة الشبهات: شبهة عبادة الأصنام ـ وتزيين الشيطان.

فعباد الأصنام: ظنوا أن هذه الأصنام تقربهم إلى الله كما قال الله تعالى عنهم: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣].

فهم يقولون فشفع لنا فهم يخاطبون الأصنام ويقولون: إنا نخاطب أصحابها، وهذا مما لم يشرعه الله[3].

فأصل المشركين صنفان: قوم نوح، وقوم إبراهيم.

---

(١) فاحموه وفي رواية فأقحموه، ومعناه أي اطرحوه فيها كرهاً، واحموه من قولهم حميت الحديد وغيرها إذ أدخلتها النار لتحمى. النووي على مسلم: ١٨/١٣٣.

(٢) صحيح مسلم: ٤/٢٢٩٩ كتاب الزهد، باب قصة أصحاب الأخدود واللفظ له. مسند أحمد: ٦/١٧، جامع البيان عن تأويل القرآن: ٣٠/ ١٣٣ حيث أوردها الطبري بسنده.

(٣) انظر فتاوى ابن تيمية: ١/١٥٨.

فشبهة قوم نوح تعظيم الصالحين، والعكوف على قبورهم حتى وصل الأمر بهم إلى الشرك.

وشبهة قوم إبراهيم في الكواكب والشمس والقمر مما زينته لهم الشياطين[1] ومما يعتقدون فيها من المودة بينهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

كما أن الشياطين يزينون كل سوء ومنكر فهم يعينون عباد الأصنام ويتزينون لهم في صور صالحة تشبيهاً وتلبيساً عليهم فيقول أحدهم أنا إبراهيم، أنا المسيح، أنا محمد، أنا الخضر. وقد يقول بعضهم عن بعض: هذا هو النبي أو هذا هو الخضر، ويكون أولئك كلهم جناً يشهد بعضهم لبعض[2].

وفتنة الشيطان من أعظم الفتن وخاصة إذا همّ الإنسان بالخير أو دخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه، وقد قال ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك، وآباء أبيك؟ قال: فعصاه فأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالغرس في الطول، قال: فعصاه فهاجر. قال: ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال له: هو جهد النفس والمال، فقال: فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال، قال: فعصاه فجاهد»[3].

لذلك حذر الرسول ﷺ منه وبيّن أن من عصاه فقد نجا وفاز بالجنة، وهذا ما يدل عليه بقية الحديث حيث قال: «فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة أو قتل كان حقاً على الله عز وجل أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً

---

(١) انظر فتاوى ابن تيمية: ١/١٥٧.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١/١٥٧.

(٣) مسند الإمام أحمد: ٣/٤٨٣ واللفظ له، سنن النسائي: ٦/٢١، الجهاد، مصنف ابن أبي شيبة: ٥/٢٩٣، صحيح ابن حبان (الترتيب): ٧/٥٧، السير - باب إيجاد الجنة للمهاجر والغازي، انظر صحيح الجامع: ٢/٧٢.

على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»[1].

وشبهات الشيطان التي يلقيها في القلوب كثيرة، لذلك أمرنا بالاستعاذة منه كثيراً وخاصة عند قراءة القرآن لأنه من أهم أعمال الخير، وفيه فلاحنا ونجاحنا.

وقد بيّن الله لنا في هذه السورة أناساً وقعوا في فتنة الشيطان لما أغراهم فهلكوا، قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

فحسن لهم الشيطان كفرهم بالله وتكذيبهم رسله، فردهم بتزيينه لهم ما زين لهم من الكفر والصد عن سبيل الله التي هي الإيمان به وبرسله[2]. مع ما لهم من العقول وما لديهم من دلائل الهدى ولكن الشيطان بقوة فتنته جاءهم من باب غرورهم بأنفسهم وإعجابهم بما يأتون من الأعمال وما هو فيه من مال ومتاع، فضيع عليهم الفرص مع ما يملكون من التبصر[3] كما وصفهم الله بذلك في آخر الآية فقال: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

ومن الشبهات التي تعترض الإنسان شبهة الخوف من الموت وشبهة الخوف من الرزق، فالإنسان لا يجوز له أن يترك ما أمره الله به خوفاً من أن يأتيه الموت ـ أو ينقع رزقه، فإن الموت لا بد حاصل ـ وكذلك الرزق، لذلك ذكرهما الله بعد الأمر بالهجرة، وهوّن عليهم أمرهما لئلا يكونا سبباً في التأخر عن أمر الله، فقال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٧] سواء من هاجر أو جلس، والأجل محدد، كما قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

---

(١) إكمال للحديث الذي قبله.
(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢٠/ ١٥٠.
(٣) انظر في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٣٥.

وكذلك الرزق المقسوم سيأتي الإنسان، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة»[1].

ولما كانت مفارقة الأوطان عزيزة على النفس كريهة لديها بيّن الله سبحانه أن المكروه واقع لا محالة إن لم يكن بالهجرة فهو حاصل بالموت، فأولى أن يكون في سبيل الله، كما أن الرزق حاصل وأسباب البحث عنه متوفرة في جميع بلاد الله الواسعة فلا يكون طلبه في بقعة معينة سبباً في ترك أمر الله بالهجرة.

فالله حقّر أمر الدنيا عموماً، لئلا ينظر المؤمن إلى عاقبة تلحقه في خروجه من وطنه، أن يموت أو يجوع أو نحو هذا[2]، فالموت حاصل والرزق جاري فالبدار إلى طاعة الله، والهجرة إليه، فإن الله لما أمر بالهجرة ذكر بعدها الموت ثم ذكر الرزق، وأن البهائم على ضعفها وعدم تفكيرها قد تكفل الله برزقها، فكيف بابن آدم الذي أعطاه الله أسباب المعاش وهيئه لعبادته؟ قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾ [العنكبوت: ٥٧] وبعد أن حثّ على العمل، والصبر، وذكر الرزق، فقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦٠﴾ [العنكبوت: ٦٠]. فالرزق للجميع يستوي في ذلك ـ الحريص ـ والمتوكل ـ والراغب ـ والقانع ـ والحيول ـ والعاجز ـ حتى لا يغتر الجلد أنه مرزوق بجلده، ولا يتصور العاجز أنه ممنوع بعجزه[3].

---

(١) صحيح البخاري: ٤/٧٨، كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة، وكتاب القدر: ٧/ ٢١٠، باب ١، وكتاب التوحيد: ٨/١٨٨، باب ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، واللفظ له. صحيح مسلم: ٢٠٣٦/٦، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي ١، كما أخرجه أحمد، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجة.

(٢) انظر أحكام القرآن للقرطبي: ٣٥٨/١٣.

(٣) انظر أحكام القرآن للقرطبي: ١٣/ ٣٦٠.

ومن فتن الشبهات التي عمت في هذا الزمن وانخدع بها كثير من الناس الفتنة بالكفار، وفتنتهم بنا نحن المسلمين.

فالمسلمون يدعون الإسلام، ويأتون بما يبرأ منه الإسلام، ويعتقدون أن ذلك من صميمه، وكما يوجد في كثير من بلاد المسلمين من الجهل والفقر والذل، فظن الكفار أن هذا هو الإسلام، فنفروا منه، وسخروا به، فكان ذلك فتنة عظيمة لهم وحجاباً كثيفاً.

إلا من نظر منهم علم وإنصاف، فإنه يعرف أن هذا ليس هو الإسلام.

والكفار يراهم المسلمون في عز، وسيادة، وتقدم علمي، وعمراني، فينظرون إلى تلك الناحية فيندفعون في تقليدهم في كل شيء حتى معائبهم، ومفاسدهم، وصدق رسول الله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا حجر ضب لسلكتموه، قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن»[1].

فصار المسلمون يزدرون أعز عزيز لديهم، إلا من رحم الله، ونظر بعين العلم وعرف أن كل ما عندهم من علم هو عندنا وفي ديننا وتاريخنا وما عندهم من شر فهو شر على حقيقته.

فكانوا فتنة للمسلمين الذين تهمهم المظاهر فتسلبهم إدراكهم فلا يفرقوا بين اللب والقشور[2].

فتنة اتباع المتشابه

تقدم في الكلام عن التوحيد ما ورد في هذه السورة من أسماء الله وصفاته، وأنه يجب الإيمان بها من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل، ولكن هناك من انحرف عن هذا الطريق واتبع ما تشابه، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا

(١) صحيح البخاري: ٤/١٤٤، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، وكتاب الاعتصام: ٨/١٥١، باب قول النبي ﷺ لتتبعن سنن من قبلكم، واللفظ له في الأول. صحيح مسلم: ٤/٢٠٥٤، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى.

(٢) انظر مجالس الذكر والتأنيس لابن باديس: ٦٧، دار الفكر ـ الطبعة الثانية.

﴿تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧].

وسبب نزول هذه الآية أن وفداً من نصارى نجران تخاصموا إلى النبي ﷺ فقالوا: ألست تزعم أنه كلمة الله وروح منه[١]، قال: بلى، قالوا: فحسبنا ما أنزل الله عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ﴾ [آل عمران: ٧]، ثم أن الله جل ثناءه أنزل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] الآية[٢]، وقيل غير ذلك.

وقال آخرون: بل عنى الله عز وجل بذلك كل مبتدع في دينه بدعة مخالفة لما ابتعث به رسوله محمداً ﷺ يتأوله من بعض آي القرآن المحتملة التأويلات، وإن كان الله قد أحكم بيان ذلك، أما في كتابه أو على لسان رسوله[٣].

وهذا ما يدل عليه عموم الآية، وإن كانت نزلت بسبب خاص، فأهل الضلال الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، هم كما قال مجاهد[٤] أهل البدع، والشبهات يتمسكون بما هو بدعة في الشرع، ومشتبه في العقل، كما قال فيهم الإمام أحمد: «هم مختلفون في الكتاب مخالفون للكتاب يحتجون بالمتشابه من الكلام، ويضللون الناس بما يشبهون عليهم»[٥] أهـ.

قال ابن تيمية: «والمتشابه الموجود في القرآن تشابه نسبي، فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره»[٦] اهـ. يؤيد هذا قول المصطفى ﷺ: «الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن

---

(١) يقصدون عيسى بن مريم، انظر أسباب النزول صفحة ١٢٨.
(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٣/ ١٧٧، وانظر أسباب النزول للواحدي: ١٢٨.
(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٣/ ١٧٧.
(٤) هو: مجاهد بن جبر شيخ القراء والمفسرين أبو الحجاج المكي، الأسود، مولى بني مخزوم، روى عن ابن عباس، وعرض عليه القرآن ثلاثين مرة، كما روى عن أبي هريرة وعائشة وسعد بن أبي وقاص وغيرهم، وكان ثقة له غرائب، ت ١٠٠ هـ، سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٤٩.
(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٣/ ١٤٢.
(٦) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٣/ ١٤٤.

يوقعه ألا وأن لكل ملك حمى ألا أن حمى الله محارمه ألا وأن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله إلا وهي القلب»[1].

ومن قال من السلف أن المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، فقد أصاب أيضاً ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه مثل وقت الساعة، ومجيء أشراطها، ومثل كيفية نفسه وما أعده في الجنة لأوليائه[2].

أما الذين في قلوبهم زيغ يدعون المحكم الذي لا اشتباه فيه مثل: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣].

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طـه: ١٤].

وغير هذه الآيات، ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة ليفتنوا به الناس إذا وضعوه على غير مواضعه وابتغاء تأويله وهو الحقيقة التي أخبر عنها[3].

فمن الفتنة بالمتشابه ما أحدثه أهل الكلام في أسماء الله وصفاته حيث أولوا وحرفوا الكلم عن مواضعه، فمما أنكروا السمع، فقالوا: أنه لم يجيء خبر عن رسول الله ﷺ أن الله يسمع بسمع ويبصر ببصر[4]، وقد تقدم إثبات السمع لله[5].

كما أنكروا العلم والقدرة، وقد تقدم الكلام عليها.

٢ ـ فتـــن الشهـــوات

فتن الشهوات هي المعارضة للإرادة وقد تجر فتنة الشهوة إلى شبهة، فالشهوات هي الغي واتباع الهوى، فالإنسان إذا تمادى مع نفسه وأطلق لها العنان في كل ما تشتهيه فإن ذلك سيجره إلى تلبية الهوى حتى في الأمور الاعتقادية أو الأحكام الشرعية مما يجعله يبني أحكاماً توافق هوى نفسه وشهوته، فيقع في الشبهات.

---

(١) صحيح البخاري: ١٩/١، كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه واللفظ له، صحيح مسلم: ١٢١٩/٣ كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات. كما أخرجه أبو داود والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، والدارمي، وأحمد: ٢٦٩/٤.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٤٤/١٣.

(٣) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٢٧٧/١٣.

(٤) رد الإمام الدارمي على بشر المريسي: ٤٦.

(٥) تقدم في صفحة ٦٨ من هذا البحث.

ومن فتن الشهوات:

فتنة الأهل والأحباب:

الإنسان يخشى على أهله وأحبابه أن يصيبهم الضرر بسببه، وهو لا يملك الدفاع عنهم، وهم ينازعونه ما هو فيه من أمر الدين ليتنازل من أجلهم باسم الحب والقرابة وصلة الرحم ولكن هل يستجيب لهم أم لا؟ إن هذا يتوقف على قوة إيمانه وضعفه؟ فهذا سعد بن أبي وقاص كما تقدم حاولت أمه أن تفتنه عن دينه، ولكنه أعرض عنها مع ما كانت تكن له من الرعاية والحب فكان في رغد من العيش يلبس أحسن الثياب يتقلب في النعمة والثراء ولكن لما دخل الإيمان في قلبه لم يعبأ بشيء من ذلك، فهو يقول: «لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ وما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى يضع أحدنا كما تضع الشاة»[1].

والله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [التغابن: ١٥].

ويقول سبحانه: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٨].

وعداوتهم قد تكون بالمحاربة والمبارزة كما حصل لبعض الصحابة مع أهلهم في بدر، فهذه العداوة لأجل العقيدة والدين، وقد تكون العداوة والفتنة ليست ظاهرة كذلك وإنما هي سبب لغفلته وتثاقله عن أمر الله من الجهاد وغيره.

وعن أبي بريدة قال: «كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين عليهما السلام عليهما قميصان أحمران، يمشيان، ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملهما، ووضعهما بين يديه، ثم قال: صدق الله ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٨] نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»[2].

والإنسان بطبعه يحب الجاه والأموال والأولاد والرياسة فهذه من الأحباب

---

(١) الحلية لأبي نعيم: ١/ ٩٢، مسند الطيالسي: ١/ ٢٩.

(٢) تقدم تخريجه في صفحة ١٦٧.

التي قد يفتتن بها الإنسان وهي من متاع الحياة الدنيا الزائل، لذلك حذرنا الله من الدنيا عموماً فقال سبحانه: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ومن فتن الشهوات الواردة في السورة فتنة الجاه وحب التعالي كما امتنع بعض كفار قريش عن الإيمان بمحمد ﷺ وجحودهم لرسالته مع اعترافهم بها بقرارة أنفسهم كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٧] والجحود لا يكون إلا بعد المعرفة(١).

وكان من أسباب ذلك خوفهم من نزول جاههم وسلطانهم، فقد ورد أن أبا جهل بن هشام حين جاءه الأخنس وقال له يا أبا الحكم: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبدمناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: مني نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى تدرك مثل هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه(٢).

وكذلك فرعون الذي ورد في السورة حبه للتعالي والعدوان أعماه عن اتباع موسى فهذه الفتنة أوقعته في فتنة أشد ووقع في فتنة الشبهة حتى وصل به الأمر أنه ادعى الربوبية حيث قال تعالى عنه: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النازعات: ٢٤].

قال تعالى: ﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

ومن فتن الشهوات كذلك فتنة قوم لوط كما قال تعالى عنهم: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

ومن فتن الشهوات كذلك حب الوطن والركون إلى الراحة والدعة والخوف

---

(١) انظر تفسير الطبري: ٢١/ ٤.

(٢) سيرة ابن هشام: ١/ ٣٣٧، وأوردت القصة كاملة في صفحة

على الأموال، لذلك حذرنا الله عز وجل من هذه أن تكون سبباً في تركنا لأمر الله، قال تعالى: ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ ﴾ [العنكبوت: ٥٦ ـ ٥٧].

وجماع ذلك كله في حب الدنيا وزهرتها كما قال ﷺ: «إن هذه الدنيا حلوة خضرة، وأن امستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»[(١)].

والله عز وجل لما أمر المؤمنين بترك الأوطان والاعتماد على الله في طلب الرزق وعدم الخوف من الموت حذر من الدنيا وبين أنها كظل زائل مهما طال، قال تعالى: ﴿ وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ۝٦٤ ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ومما يكون من فتن الشهوات فتنة الإغراء من قبل الكفار، فهم يغرون بما عندهم من أموال ومن جاه وغير ذلك كما حدث للرسول ﷺ حينما بدأ بالدعوة، فقد ورد أن عتبة بن ربيعة قال للرسول ﷺ: «يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت بمن مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد اسمع، قال يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا»[(٢)]. . . إلى آخر ما عرض عليه ولكن الرسول لم تغره تلك العروض واستمر على دعوته.

ومن إغراء الكفار كما كانوا يغرون المسلمين قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ

---

(١) مسند أحمد: ١٩/٣، وهو جزء من خطبة الرسول ﷺ صفحة ٢٨، سنن الترمذي: ٤٨٣/٤ كتاب الفتن، باب ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه بما هو كائن يوم القيامة ٢٦، ابن ماجة: ١٣٢٥/٢، كتاب الفتن، باب فتنة النساء.

(٢) سيرة ابن هشام: ٣١٣/١.

﴿خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾﴾ [العنكبوت: ١٢].

وهذا إغراء معنوي بتحمل ما يكون على من ترك هذا الدين وهذه شبهة قد تعترض من قصر عمله وإرادته فيصدقها وينخرط معهم في غيهم وضلالهم.

ومن إغرائهم ما حدث للنفر الذين خلفوا حين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقد جاء إلى كعب بن مالك كتاباً من ملك غسان، قال كعب: فإذا فيه أما بعد فأنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك، فقلت لما قرأتها، وهذه أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته بها»[1] الحديث.

وفتنة الشهوات إذا تمادى بها الإنسان قد تقوده إلى فتنة الشبهات فيهلك، وقد تجتمع الفتنتان كما في أشد فتنة حذرنا منها الرسول ﷺ وهي فتنة المسيح الدجال كما قال ﷺ: «ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال»[2] والمراد أكبر فتنة وىعظم شوكة[3].

فأن أمره قد يشتبه على من في قلبه مرض فيظن أن ما معه من القوة تخوله بأن يكون هو الرب فيكفر بالله، ولذلك حذر الرسول ﷺ من شبهاته فقال: «من سمع بالدجال فلينأ منه، فإن الرجل يأتيه وهو يحسب أنه مؤمن فلا يزال به لما معه من الشبه حتى يتبعه»[4].

كما أن ما معه من ملاذ الدنيا وما يتبعه منها شهوة يفتن بها الإنسان فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لأنا أعلم بما مع الدجال منه معه نهران يجريان أحدهما رأي العين ماء أبيض والآخر رأي العين نار تأجج فأما أدركن أحد فليأت

---

(١) جزء من حديث طويل في صحيح البخاري: ٥/١٣٣ كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك ٧٩، واللفظ له، صحيح مسلم: ٤/٢١٢٥ كتاب التوبة باب حديث توبة كعب بن مالك، مسند أحمد: ٣/٤٥٨، ٦/٣٨٩.

(٢) صحيح مسلم: ٤/٢٢٦٧، كتاب الفتن باب في بقية من أحاديث الدجال واللفظ له، مسند أحمد: ٤/٢١، مصنف ابن أبي شيبة: ١٥/١٣٣.

(٣) النووي على مسلم: ١٨/٨٧.

(٤) مسند أحمد: ٤/٤٣١، سنن أبي داود: ٤/٤٩٥، كتاب الملاحم باب خروج الدجال، مستدرك الحاكم: ٤/٥٣١، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٥/٣٠٣ رقم ٦١٧٧.

النهر الذي يراه ناراً وليغمض ثم يطأطىء رأسه فيشرب منه فإنه ماء بارد، وإن الدجال ممسوح العين عليها ظفرة[1] غليظة مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب»[2].

ومن شدة فتنته أن الأنبياء كانوا يخوفون قومهم منه، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال، فقال: «إني لأنذركموه، ما من نبي إلا وقد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، ولكن أقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه تعلموا[3] أنه أعور، وأن الله تبارك ليس بأعور»[4].

حتى أن الصحابة حينما خوفهم به رسول الله ﷺ ظنوه قد خرج، فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال: ما شأنكم؟ قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: غير الدجال أخوفني عليكم! أن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وأن يخرج ولست فيكم فكل أمروءاً حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم أنه شاب قطط[5] عينه طافية أني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف أنه خارج خله بين الشام والعراق فعاث[6] يميناً وعاث شمالاً، يا عباد الله فاثبتوا، قلنا: يا رسول الله وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً يوم كسنة ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه

---

(١) أي جليدة تغشى العين تنبت تلقاء المآقي، وقد تمتد إلى السواد فتغشاه، لسان العرب، ٥١٩/٤، مادة ظفر، معجم مقاييس اللغة: ٤٦٦/٣.

(٢) صحيح مسلم: ٢٢٤٩، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، واللفظ له، ورواه البخاري مختصراً: ١٠٣/٨ كتاب الفتن باب ذكر الدجال، المسند: ٣٨٦/٥، ٤٠٥، سنن أبي داود: ٤٩٤/٤، الملاحم، باب خروج الدجال.

(٣) تعلموا بمعنى اعلموا، النووي على مسلم: ٥٦/١٨.

(٤) صحيح مسلم: ٢٢٤٥/٥ كتاب الفتن، باب ذكر ابن الصياد واللفظ له، صحيح البخاري: ١٧٢/٨، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿ولتصنع على عيني﴾، سنن أبي داود: ٤٩٤/٤، كتاب الملاحم، باب خروج الدجال، مسند أحمد: ١٩٥/١، ١٣٥/٢.

(٥) قطط: بفتح القاف والطاء أي شديد جعودة الشعر مباعد للجعودة المحبوبة، النووي على مسلم: ٦٥/١٨.

(٦) العين: الفساد، أو أشد الفساد والإسراع فيه، النووي على مسلم: ٦٥/١٨.

كأيامكم، قلنا: يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، أقدروا له قدره، قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الريح فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتمر عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذراً[1] وأسبغه ضرعاً، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحوا ممحلين ليس بأيديهم من أموالهم شيء، ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب[2] النحل ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض[3] ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجهه يضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين[4] واضعاً كتفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحد منه جمان[5] كاللؤلؤ ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه بباب لد فيقتله»[6] الحديث...

وقد ورد عن المصطفى ﷺ أحاديث كثيرة في التحذير منه نسأل الله أن يعصمنا من فتنته.

وما يتعرض له الإنسان من المصائب والآلام والأحزان من فد مال، أو ولد، أو جاه أو نحو ذلك، فإنها ليست داخلة في النوعين أي الشبهات والشهوات فأنها بالنسبة للمؤمن الذي يصبر عليها أجر وغنيمة، أما ما تحدثه من جزع وتسخط فإن هذا مرض بالقلب قد يدخل معه شبهة تصده عن دين الله كتسخط القدر وإنكاره.

أو أنها تدعوه إلى شهوة، مما حرم الله عز وجل كالسرقة واغتصاب حقوق الغير إذا فقد ماله.

---

(١) ذراً هي: الآجال والأسنمة ذروة.

(٢) هي ذكور النحل وعبر به عنها لأنه إذا طار الذكر تبعته جماعته.

(٣) أي جعل بين القطعتين مقدار رمية الغرض.

(٤) مهرودتين: أي ثوبين مصبوغين بورس ثم زعفران، وقيل شقتان والشقة نصف الملاءة.

(٥) جمان: حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار والمراد الماء ينحدر منه، وصف بذلك لصفاته. النووي على مسلم: ١٨/ ٦٧.

(٦) جزء من حديث في صحيح مسلم: ٤/ ٢٢٥٠ كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، واللفظ له. سنن الترمذي: ٤/ ٥١٠ كتاب الفتن باب ما جاء في فتنة الدجال، سنن ابن ماجة: ٢/ ١٣٥٦، كتاب الفتن، باب فتنة الدجال، مسند أحمد: ٤/ ١٨١، سنن أبي داود: ٤/ ٤٩٦، كتاب الملاحم باب خروج الدجال.

الباب الثاني
أساليب الدعوة

وينقسم إلى أربعة فصول

الباب الثاني
أساليب الدعوة في السورة

قد وجه الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً ﷺ إلى أسلوب الدعوة الذي ينبغي أن يتبع فقال سبحانه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال ابن تيمية: «فهذه الطرق الثلاثة هي النافعة في العلم والعمل»[1] اهـ.

والقرآن قد اشتمل على هذه الأساليب الثلاثة.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٢/ ٤٢.

الفصـــل الأول

الحكمـــة

والحكمة هي: معرفة الحق والعمل به، فالقلوب التي لها فهم وقصد تدعى بالحكمة، فيبين لها الحق علماً وعملاً فتقبله وتعمل به[1]. فالذي يكون راغباً في الخير مقبلاً عليه لكن قد يجهله ويخفى عليه، فهذا يكفي في حقه مجرد الدعوة مثل أن يقال له: هذا مما أمر الله به ورسوله فافعله، أو هذا مما نهى عنه فاجتنبه[2].

قال الشيخ عبد العزيز بن باز: «والمراد بها الأدلة المقنعة الواضحة الكاشفة للحق والداحضة للباطل».

فالحكمة كلمة عظيمة معناها الدعوة إلى الله بالعلم والبصيرة، والأدلة الواضحة المقنعة الكاشفة للحق والمبينة له.

وهي كلمة مشتركة تطلق على معاني كثيرة منها النبوة، والعلم، والفقه في الدين، والعقل، والورع، وغيرها (وفي الأصل هي الأمر الذي يمنع عن السفه)[3]، فأولى بذلك الآيات القرآنية والسنة النبوية حيث سماها الله حكمة قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) ﴾ [البقرة: ١٢٩].

قال ابن جرير عن الحكمة: «إنها العلم بأحكام الله التي لا يدرك علمها إلا

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١٩/ ١٦٤.

(٢) انظر من مقال للشيخ محمد بن عثيمين في مجلة كليتي الشريعة وأصول الدين بالقصيم، عدد ٢، سنة ١٤٠١/ ١٤٠٢ هـ ص ١٠٧ السنة الثانية.

(٣) انظر: لسان العرب: ١٢/ ١٤٤ حكم.

ببيان الرسول ﷺ والمعرفة بها[1] بمعنى السنة»[2] اهـ.

لأنهما يحجزان كل من له عقل عن السفه، كما أن الحكمة تكون في إتيان الأمور، وأحكامها بأن تنزل الأمور منازلها، وتوضع في مواضعها، ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم وبما يكون قبوله أتم وبالرفق واللين»[3].

وليس من الحكمة أن تتعجل الأمور ويراد من الناس أن ينقلبوا بين عشية وضحاها من حالهم إلى الحال التي كان عليها الصحابة، فمن أراد ذلك فهو بعيد عن الحكمة، والقرآن كله حكمة، فالآيات التي خاطب الله بها المؤمنين أمراً ونهياً بدون ترغيب أو ترهيب هي من الحكمة، ومن الحكمة إعطاء كل ذي حق حقه، ومن ذلك الأمر ببر الوالدين وإعطائهما حقهما بشرط أن لا يؤثر ذلك على دين الإنسان وعقيدته، قال سبحانه: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٨].

كما أن الآية ترغيباً وترهيباً، وقد تقدم سبب نزول الآية، وفيها أمر بالإحسان للوالدين ونهي عن طاعتهما في الشرك بدون بيان ثواب أو عقاب.

كما أن من الحكمة البداءة بالأهم لذلك بدأ الرسل في دعوتهم إلى توحيد الله فهو أهم شيء، كما جلس رسول الله ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى التوحيد، وهذا من الحكمة حيث لم يستعجل الأمور ويطلب من الناس أن يغيروا ما هم عليه بين عشية وضحاها، كما أن الشرع نزل عليه متدرجاً حتى استقر في نفوس الناس[4].

وبما أن من الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل مثال ذلك من السورة ما ورد عن إبراهيم الخليل في دعوته لقومه بقوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن: ١/ ٥٥٧.

(٢) انظر الدعوة إلى الله وأخلاق الدعاة: ص ٢٣.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٤/ ٢٥٤.

(٤) سيأتي أمثلة لحكمته ﷺ في الدعوة في دعوته صفحة ٢٦٢.

﴿... أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥]
كما سيأتي في صفات الداعية صفحة

وبما أن من الحكمة الرفق واللين فانظر إلى حكمة المصطفى ﷺ في الدعوة، كيف رفق بالأعرابي الجاهل.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ مهمه[1]، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه، دعوه»[2]، فتركه حتى بال، ثم أن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة، وقراءة القرآن».

أو كما قال رسول الله ﷺ، قال: «فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلو من ماء فشنه[3] عليه»[4].

ومن معاوية بن الحكم السلمي قال: بينما أنا مع رسول الله ﷺ في الصلاة إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فحدقني القوم بأبصارهم، فقلت: وأثكل أمياه[5]، ما لكم تنظرون إلي، قال: فضرب القوم بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يسكتوني لكني سكت، فلما انصرف رسول الله ﷺ دعاني بأبي وأمي هو ما ضربني، ولا كهرني[6] ولا سبني ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً

---

(١) كلمة زجر، وهو اسم مبني على السكون، وأصلها ما هذا، ثم حذف تخفيفاً، النووي على مسلم: ٣/ ١٩٣.
(٢) لا تقطعوا عليه بوله ـ لسان العرب: ١٢/ ٢٦٣، مادة زرم.
(٣) أي صبه عليه.
(٤) صحيح مسلم: ١/ ٢٣٧، الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره واللفظ له. صحيح البخاري: ١/ ٦١، الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، سنن أبي داود: ١/ ٢٦٤، الطهارة، باب الأرض يصبها البول، كما أخرجه النسائي، والترمذي، وابن ماجة، انظر صفحة من هذا البحث.
(٥) الثكل: هو فقدان المرأة ولدها، وامرأة ثكلى وثاكل. النووي على مسلم: ٥/ ٢٠، وأمياه مضاف إلى ثكل، وكلاهما مندوب كما قال وأمير المؤمنين، وأصله أمي زيدت عليه الألف لمد الصوت، وأردفت بهاء السكت الثابتة في الوقف المحذوفة في الأصل، شرح السيوطي للنسائي: ٣/ ١٦.
(٦) ما كهرني: أي ما انتهرني وقيل الكهر: استقبالك الإنسان بالعبوس، معالم السنن، شرح السيوطي للنسائي: ٣/ ١٧.

منه، قال: «إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح، والتكبير، وتلاوة القرآن»[1] الحديث...

وبما أن القرآن كله حكمة ومن ذلك الزواجر والترغيب والترهيب حيث تستعمل في وقتها المناسب لذلك أوردها الله سبحانه وتعالى في كتابه وعلى لسان رسله ﷺ وهي الموعظة الحسنة التي أمر الله بها.

كما قد تجتمع الحكمة مع الموعظة الحسنة في مثل الأمثال والقصص كما سيأتي بيان ذلك.

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٣٨١، مساجد باب تحريم الكلام في الصلاة، أحمد: ٥/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨، سنن أبي داود: ١/ ٥٧٠ الصلاة باب تشميت العاطس في الصلاة، سنن الدارمي: ١/ ٢٩٢ الصلاة باب النهي عن الكلام في الصلاة، سنن النسائي: ٣/ ١٦ السهو ـ الكلام في الصلاة.

الفصل الثاني
الموعظة الحسنة

وينقسم إلى أربعة مباحث

المبحث الأول: الترغيب.

المبحث الثاني: الترهيب.

المبحث الثالث: أسلوب لفت الأنظار.

المبحث الرابع: الجمع بين الحكمة والموعظة الحسنة.

الفصل الثاني

الموعظة الحسنة

وهي المقالة المشتملة على الموعظة الحسنة التي يستحسنها السامع وتكون في نفسها حسنة باعتبار انتفاع السامع بها، وقيل وهي الحجج الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة[1]، وهي الدعوة بالترغيب والترهيب.

ومن الترغيب بيان ما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها وما تشتمل عليه النواهي من المضار وتعدادها، وأما بذكر إكرام من قام بدين الله وإهانة من لم يقم به، وأما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد الله للعاصين من العقاب العاجل والآجل[2].

وهذا الأسلوب يستعمل مع من يعترف بالحق لكن له أهواء تصده عن اتباعه، قال تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾ [النور: ١٧]، أو يكون عنده فتور وكسل عن الخير، أو إقبال ورغبة في الشر، وقد جبل الله الإنسان على حب الخير وكراهة الشر، ولكن تختلف النفوس بمعرفة الخير، والشر، لذلك أرسل الله الرسل ليدلوا الناس على الخير، ويحذرهم من الشر، فالإنسان يرجو الخير، ويخاف الشر، وبما أن ما عند الله من ثواب وعقاب من الأمور الغيبية التي لا تدرك حقيقتها العقول، وقد تغفل عنها لأنها غير محسوسة ومشاهدة لذلك فالله سبحانه وتعالى هو العالم بسارب النفوس وما جبلت عليه، رغب الناس في الخير، وحذرهم من الشر بكتبه التي أنزل وعلى لسان رسله عليهم

---

(١) فتح القدير: ٣/ ٢٠٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٤/ ٢٥٤.

الصلاة والسلام، ومنه: الوعد، والوعيد، فالوعد غالباً ما يستعمل في الخير، وهو من الله متحقق الوقوع، ومن العباد مرجو الوقوع، أما الوعيد فهو تخويف بسوء المجازاة في المستقبل تحذيراً من الوقوع في المخالفات[1]، فأسلوب الترغيب والترهيب في الدعوة يزيد في رجاء المؤمن بما عند الله وخوفه من عقابه ويقيم الحجة على الكافر والمعاند.

وسورة العنكبوت مكية والدعوة في بداية أمرها في مكة لم تتقوى بعد وكان من أهم عوامل الجذب لها آيات القرآن الحكيم التي لها تأثير على النفوس حينما كان ﷺ يتلوها متعبداً لله بها وداعياً الناس إلى دين الله من خلالها، فكان سحر بيانها ينفذ إلى القلوب، حتى من عارض الدعوة، ووقف في طريقها[2]، فكان في تلك الآيات ما يرغب في ما عند الله وما يرهب من عقاب من عصاه.

والله سبحانه وتعالى جمع في هذه السورة بين الترغيب والترهيب في قوله تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢١].

وفي الغالب أن الرحمة والعذاب إذا اجتمعا تقدم الرحمة إلا في بعض الآيات، ففي هذه الآية قدم العذاب، لأنه في سياق قصة إبراهيم مع قومه الذين عاندوا فناسب أن يبدأ بالعذاب ترهيباً للكفار وزجراً لهم عن الكفر وعصيان الرسل[3].

كما جمع بينهما في التحذير من الدنيا، والترغيب في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٤] كما ورد كل واحد منهما على انفراد.

وجمع بينهما في الإحسان إلى الوالدين، والنهي عن الشرك في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٨].

---

(١) انظر الفوائد المشوق إلى علوم القرآن: ٢٠١.
(٢) كما سيأتي في صفحة ٣٣٩، حيث كان الكفار يستمعون للقرآن فيعجبهم.
(٣) انظر البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٤/ ٦٥.

فقوله: ﴿إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ ترغيباً للمؤمن أن يعمل وأن عمله لا يضيع عند الله، فهو مجازيه عليه لأن الرجوع إليه، كما أن فيه ترهيب من باب علم الإنسان أن مرجعه إلى الله فيجتنب ما يسخط الله لأن مرجعه إليه وسيعاقبه عليه، وهو للترغيب أقرب لأن أول الآية أمر والأمر يرغب فيه.

المبحث الأول: الترغيب

الترغيب ورد على ضربين: الأول الترغيب بما يحصل في الدنيا. الثاني: الترغيب بما يحصل في الآخرة.

فمن الأول: الترغيب في اتباع الأنبياء وأن ذلك تحصل به النجاة في الدنيا، كما حصل لنوح ومن آمن معه، قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ١٥].

وكذلك ما حصل من نجاه إبراهيم من النار، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وقوله سبحانه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٧].

هذا ما حصل لنبي الله إبراهيم، والله عز وجل وعد المؤمنين عموماً بالجزاء العاجل، كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

ومن الترغيب في الجزاء بالدنيا لمن سار على الطريق المستقيم ما حصل للوط ومن آمن معه من النجاة كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ

﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣٣].

ثانياً: الترغيب بالجزاء في الآخرة:

وكما رغب الله في عبادته وسلوك طريقه المستقيم بجزاء في الدنيا فإنه لا يساوي شيئاً بالنسبة لما عند الله من النعيم المقيم لأن الآخرة هي الحياة الباقية، فيبقى نعيمها أو شقاؤها.

فمن الترغيب فيما عند الله بالدار الآخرة: الترغيب بالإيمان والعمل الصالح في ثلاث آيات، وهذا يدل على فضل الإيمان وأنه لا إيمان إلا بالعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [العنكبوت: ٧].

«فالذين آمنوا بالله ورسوله، فصح إيمانهم عند ابتلاء الله إياهم وفتنته لهم، ولم يرتدوا عن دينهم بأذى المشركين لهم، وعملوا الصالحات التي أمروا بها يكفر الله عنهم ما سلف من شركهم وغيره، ويثيبهم على صالحات أعمالهم في إسلامهم أحسن ما كانوا يعملون في حال شركهم مع تكفيرنا سيئات أعمالهم[(١)].

وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [العنكبوت: ٩]، فدخولهم في الصالحين يترتب عليه دخولهم الجنة لأن مآل الصالحين إلى الجنة، وهذا نعمة عظيمة ومنة كبرى وترغيب أيما ترغيب لمن أراد أن يكون مع الصالحين، فما عليه إلا أن يعمل عملهم ويحبهم كما قال ﷺ: «المرء مع من أحب»[(٢)].

أما الآية الثالثة، ففيها ترغيب للإيمان والصبر على تكاليفه، وهذا الجزاء الذي رغب الله فيه عباده إلى الإقبال إليه والعمل بطاعته هو جنته التي من أوصافها أنها تجري من تحتها الأنهار، وأيما أنهار، إنها أنهار مختلفة الأصناف من ماء وخمر، وعسل، ولبن يصرفونها ويحرونها حيث شاءوا، وكما قال فيها ﷺ: «قال

---

(١) انظر جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢٠/ ١٣٠.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه: ٧/ ١١٢ كتاب الأدب باب علامة حب الله عز وجل، صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٣٤ كتاب البر باب المرء مع من أحب. كما أخرجه الترمذي: ٤/ ٥٩٥، والإمام أحمد في المسند.

الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»[1].

وميزة هذا النعيم أنه مستمر دائم غير منقطع وغير زائل كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨﴾ [العنكبوت: ٥٨]، أي نعم الجزاء وجزاهم على ما قدموه من طاعة الله عز وجل.

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل والناس نيام»[2].

وكما رغب الله عز وجل في الإيمان والأعمال الصالحة على العموم رغب كذلك في أعمال وعبادات ومخصوصة ومما ورد في السورة من ذلك الترغيب في قراءة القرآن وإقامة الصلاة وذكر الله، قال تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۝٤٥﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقراءة القرآن من الذكر كما أن الصلاة من الذكر، فذكر الله أكبر من كل شيء، كما أن ذكره للعبد أكبر من ذكر العبد له كما قال تعالى في الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»[3] الحديث...

قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة: ١٥٢].

---

(١) صحيح البخاري: ٨/١٩٧ كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله﴾ ٣٥، وكتاب بدء الخلق: ٤/٨٦ باب ما جاء في صفة الجنة، وكتاب التفسير واللفظ له، صحيح مسلم: ٤/٢١٧٥ كتاب الجنة كما أخرجه الترمذي وابن ماجة وأحمد.

(٢) مسند أحمد: ١/١٥٦، ٢/١٧٢، ٥/٣٤٣ بسند مختلف، سنن الترمذي: ٤/٣٥٤ كتاب البر، باب ما جاء في قول المعروف، وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن إسحاق، وقد تكلم فيه من قبل حفظه إلا أن سند أحمد: ٥/٣٤٣ ليس فيه عبد الرحمن، وقد حسنه الألباني في صحيح الجامع: ٢/٢٢٠ رقم ٢١١٩.

(٣) جزء من حديث تقدم في صفحة ٩٥.

فهذا ترغيب في ذكر الله عز وجل الخالق البارىء القادر الذي هو غني عما سواه إذا عبده أقبل عليه وذكره فإنه يجازيه بأحسن الجزاء بأن يذكره، وفرق بين الذكرين فإن الأول ذكر حاجة وتعبد والثاني ذكر من وكرم وتفضل».

كما رغب الله سبحانه عباده بالهجرة إليه ليعبدوه وهم براحة واطمئنان لا يخشون أحداً غير الله، قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وهذا الترغيب في شيء محسوس مشاهد لهم، وهو سعة أرض الله، وإمكان البحث عن الرزق فيها، كذلك ما تقدم من الإيمان والعمل الصالح فإن الهجرة من الأعمال الصالحة، وسببها الإيمان، وقد تقدم فضل ذلك كما طمأنهم الله عز وجل على ما يخافون، وهو الموت أو البحث عن الرزق وبين لهم أن هذا حاصل لا محالة فلا يكون عائقاً عن تنفيذ ما أمر الله به، قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

كما قال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

كذلك من العبادات التي رغب الله عز وجل فيها الجهاد في سبيله، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٩٦].

فالجهاد في سبيل الله عز وجل سواء كان جهاداً حسياً وهو قتال الأعداء أو غير ذلك من جهاد النفس والهوى والشيطان فإنه من أفضل الأعمال، لذلك كان جزاء صاحبه أن يكون مدلولاً على الطريق الذي يوصل إلى جنات الله وهو الصراط المستقيم، كما أن من زيادة الترغيب في هذا الأمر العظيم معية الله لمن قام به، وهذه المعية تليق بجلال الله وعظمته، ومقتضاها التأيد والنصرة[1].

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢١/ ١٥.

المبحث الثاني: الترهيب

وكما أن الترغيب على ضربين فكذلك الترهيب فمنه ما يكون في الدنيا ـ ومنه ما يكون في الآخرة.

فمن الأول: الترهيب من عصيان الأنبياء، فإن فيه الهلاك والعقوبة العاجلة كما حصل لقوم نوح حين عصوه عاقبهم الله بالغرق، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

أي انشقت عليهم السماء ونبعت الأرض حتى غمرهم الماء فهلكوا عن آخرهم ومصيرهم بعد الهلاك إلى عذاب الله لأنهم تعدوا أمر الله وظلموا أنفسهم بتكذيبهم لرسل الله.

ومن الترهيب في عصيان الأنبياء ما نزل بقوم لوط من العذاب في الدنيا، قال تعالى: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

والرجز هو العذاب، ومن زيادة الترهيب عن أفعالهم الشنيعة عبر بما حصل لهم من العذاب بالرجز وهذا أبلغ في الزجر.

فإن مما حصل لهم (أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء، ثم قلبها عليهم، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضودة مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم التناد)[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٥٧.

ومن شدة الترهيب من فعلهم أن الله جعل ما حصل لهم آية بينة ليعتبر من يعتبر ويتعظ من يتعظ.

ومن الترهيب ما حصل لقوم شعيب فإن ما حصل لهم فيه تحذير لكل عاقل من أن يسلك مسلكهم من العبث في الأرض والسعي بالفساد والبغي على الناس بنقص المكيال والميزان، وقطع الطريق مع الكفر بالله ورسوله[1].

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت: ٣٧].

فكان من عقاب الله لهم أن أهلكهم برجفة عظيمة زلزلت عليهم بلادهم وصيحة أخرجت القلوب من حناجرها، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها، أنه كان عذاب يوم عظيم»[2].

ثم ذكر بعدهم ما حصل لعاد وثمود مما نشاهده مما فعل بديارهم من الخراب والدمار، فعاد قوم هود يسكنون الأحقاف، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى.

قال ياقوت[3]: «وادي القرى، والحجر والجناب منازل قضاعة ثم جهينة، وعذرة وبلى، وهي بين الشام، والمدينة، يمر بها حاج الشام وهي كانت قديماً منازل ثمود، وعاد، وبها أهلكهم الله، وآثارها إلى الآن باقية[4] اهـ.

وهذا معروف للعرب يمرون عليه في رحلاتهم، ففي مساكنهم عبرة لمن اعتبر وترهيب عما فعلوا.

ثم أتبع ذكرهم بذكر فرعون وقارون وهامان حين عصوا موسى فأخبرنا الله عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل، كيف أبادهم، وتنوع في عذابهم، وأخذهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٥٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٥٨.

(٣) هو: الأديب الأوحد شهاب الدين الرومي مولى عسكر الحموي، السفار، النحوي، الاخباري، المؤرخ، تكلم في بعض الصحابة، فأهين وهرب إلى حلب وابتلى بالتتار فنجا برقبته، فقيراً، وقاسى شدائد، له مؤلفات منها: الأدباء والشعراء، والدول، والأنساب، والمبدء والمآل، وكان شاعراً، ت ٦٢٦. سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ٣١٢.

(٤) معجم البلدان: ٤/ ٣٣٨.

بالانتقام فكانت عقوبة كل بما يناسبه، قال تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۝٣٩ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٤٠ ﴾ [العنكبوت: ٣٨ ـ ٤٠].

فالذين أرسل عليهم الحاصب قال ابن جرير: «هم قوط لوط»[(١)].

وقال ابن كثير: «هم قوم عاد»، وذلك أنهم قالوا من أشد منا قوة؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد، عاتية شديدة الهبوب جداً، تحمل عليهم حصباء الأرض فتلقيها عليهم، وتقتلعهم من الأرض فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى بدناً بلا رأس، كأنهم أعجاز نخل منقعر[(٢)] اهـ.

﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ وهم ثمود، وقيل قوم شعيب، والله عز وجل أخبر عن ثمود وقوم شعيب من أهل مدين أنه أهلكهم بالصيحة في كتابه في غير هذا الموضع، ولم يخصص أحدهما فكلاهما أخذتهم الصيحة[(٣)].

وكل قوم منهم قامت عليهم الحجة وظهرت لهم الدلالة، ولم يؤمنوا بل استمروا على طغيانهم وكفرهم.

﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعصى الرب الأعلى ومشى في الأرض مرحاً، وفرح، ومرح، وتاه بنفسه، واعتقد أنه أفضل من غيره واختال في مشيته فخسف الله به وبداره الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[(٤)].

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢٠/ ١٥٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٥٨.
(٣) جامع البيان: ٢٠/ ١٥٠.
(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/ ٦٥٩.

﴿ومنهم من أغرقنا﴾ وهو فرعون وقومه، وقيل قوم نوح، والله سبحانه لم يخصص بذلك إحدى الأمتين دون الأخرى.

والله عز وجل لم يهلك هؤلاء الأمم بذنوب غيرهم فيظلمهم بإهلاكه إياهم بغير استحقاق بل إنما أهلكهم بذنوبهم وكفرهم بربهم وجحودهم نعمه عليهم مع تتابع إحسانه عليهم وكثرة أياديه عندهم، ولكن كانوا أنفسم يظلمون بتصرفهم في نعم ربهم وتقلبهم في آلائه وعبادتهم غيره، ومعصيتهم من أنعم عليهم(١).

وهذا ما حصل للقوم الذين كذبوا رسل الله أن عاجلهم الله بالعقوبة في الدنيا فأهلكهم، وقضى على شوكتهم، ولكن بعد ذلك ما مصيرهم، لقد حذر الله من فعلهم ببيان مصيرهم وأنه إلى عذاب الله الأليم.

الترهيب من العذاب في الآخرة:

وكما حذر الله من الكفر ببيان ما حصل لمن سلكه من عذاب في الحياة الدنيا كذلك حذر من الكفر ببيان حال أهله في الآخرة، ومن الترهيب في ذلك قوله سبحانه: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤].

فالسيئات هي الشرك وعبادة الله ومعه غيره(٢)، فهذا الحسبان وهذا الظن سيء حيث أنهم حكموا على ربهم بالنقص من ظنهم أنهم يعجزونه، والله قادر على كل شيء، فهذا فيه تهديد ووعيد لمن ظن هذا الظن.

لذلك بين الله عز وجل عدم عجزه مهما كانوا وفي أي مكان كانوا، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

ومن الترهيب لمن دعا إلى الكفر قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ

(١) جامع البيان: ٢٠/١٥٢.
(٢) جامع البيان: ٢٠/١٣٠.

﴿لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٢ ـ ١٣].

فمن ادعى أنه يحمل ذنب غيره فإنه لن يحمله ولكن له من الإثم مثله إذا كان هو المتسبب دون أن ينقص من إثم متبوعه شيئاً، ثم يوم القيامة يحاسب الحساب الشديد عما افترى وادعى أنه قادر عليه، وقد قال ﷺ: «أتدرون من المفلس، قالوا: المفلس فينا من لا درهم ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[1].

هذا بالنسبة للمسلم، فما بالك بالكافر الذي لا حسنات له، ويدعوا إلى كفره، وقد قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

ومن الترهيب الوارد في السورة ما توعد الله به الذين حادوا عن الصراط المستقيم من العذاب المقيم في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٣].

رالآية معترضة في قصة إبراهيم، لأن كل ما ذكره الله من قصص الأنبياء إنما هو تذكير منه تعالى وموعظة، فذكر بهذه الآية الذين يبتدىء بذكرهم قبل الاعتراض بالخبر وهو قوله «فما كان جواب قومه» وتحذير منه لهم أن يحل بهم ما حل بأولئك[2]، فإن كفار قريش كذبوا محمداً ﷺ فالله حذرهم مما وقع لقوم إبراهيم وغيره من الأنبياء، والعذاب الأليم هو الموجع الشديد.

وقد توعد الله من كفر وحذر من الكفر لا سيما إذا كان الكافر معانداً مستهزءاً

---

(١) صحيح مسلم: ١٩٩٧/٤ كتاب البر باب تحريم الظلم واللفظ له. سنن الترمذي: ٦١٣/٤ كتاب القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص.
مسند أحمد: ٢٠٢/٢، ٣٣٤، ٣٧٢.

(٢) انظر جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٤٠/٢٠.

متكبراً عن الحق، يصد عنه، ويدافع، والله تعالى بين حال قريش في عنادهم واستكبارهم وما أعد لهم ولمن فعل مثل فعلهم، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣].

فالله عز وجل يخبر عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به أنهم يقولون استعجالاً للعذاب وزيادة تكذيب: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الملك: ٢٥].

وقالوا كذلك تهكماً منهم وسخرية: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

والله عز وجل قد ضرب لهم أجلاً لم يأتي بعد، كما قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنعام: ٦٧] ولولا ذلك لأخذناهم بجهلهم ولكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم ومع هذا الأجل المضروب لهم فانهم لا يعلمون متى يقع فهو سيبغتهم وهم غير محتاطين له عالمين بوقوعه، لأنهم ما قالوا ذلك إلا إنكاراً منهم، وقد وقع عليهم كما أخبر الله تعالى، لما قدموا بدراً، بطرين مفاخرين ظانين أنهم قادرون على مقصودهم، فأذلهم الله وقتل كبارهم واستوعب جملة أشرارهم ولم يبق فيهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة.

فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون، هذا وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوي[(١)] فإذا قيل أن الأجل المسمى هو الموت، أو النفخة الثانية، أو القيامة[(٢)]، فإن هذه لا بد حاصلة لكل إنسان فمن كفر وكذب فموعده هناك، فأمامه العذاب الأخروي الذي لا يخلص منه أحد من المكذبين سواء عوجل بعذاب الدنيا أو أمهل.

ومن شدة الترهيب أن الله كرر استعجالهم العذاب، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ

---

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦/١٠١.
(٢) انظر زاد المسير في علم التفسير: ٦/٢٨٠.

﴿بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٤].

وهذا التكرار يفيد تأكيداً في الوعيد، على تماديهم في غيهم، وتهكماً بهم، وتعجباً من أمرهم ولكن لا محيص لهم عن جهنم، ولا معدل ولا منصرف، قد أحاطت بهم من كل جانب كما أحاطت بهم ذنوبهم، وسيئاتهم، وكفرهم.

ومن شدة الترهيب والتخويف من الكفر، وصف حالهم في العذاب، وأنهم كما انغمسوا في الكفر والذنوب وعمتهم، بين أن أعمالهم وكفرهم تنقلب عليهم عذاباً يشملهم من كل جانب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت: ٥٥].

والغشيان في العادة يكون من أعلى إلى أسفل وعبر عنه بالجميع هنا للمقاربة[1]، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال سبحانه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر: ١٦].

فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم، وهذا أبلغ في العذاب الحسي، ومن شدة الترهيب أن الله عز وجل جمع بين العذاب الحسي والمعنوي فختم الآية به حيث قال: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت: ٥٥].

فهذا تهديد وتقريع وتوبيخ، «وهذا عذاب معنوي على النفوس»[2] لقوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الطور: ١٦].

ومن الترهيب من أعمال الكفار الخبيثة وأساليبهم المتعددة للصد عن دين الله قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [العنكبوت: ٦٨].

بين الله عز وجل أنه لا أقبح ولا أشنع من هذا الفعل، وهو أن يكفر ويضل

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/٣٥٧.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/٦٦٨.

وينسب كفره وضلاله لله، قال تعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٨] مع ما يدعون له من الشريك والولد[١]، ومن الظلم من يقول أن الله أوحى إليّ ولم يوحى إليه شيء، ومن قال سأنزل مثلما أنزل الله فهذا مفترى على الله[٢].

ومع ذلك ينكر الحجج الواضحة التي جاءته كالقرآن والرسول، وما هو واضح له من التوحيد، ويكذب بها.

فمن يفعل هذا ما هو جزاؤه، إن جزاءه الاستقرار في النار فجاء به على صيغة الاستفهام، وهو استفهام تقرير أي أنه يحشر فيها مع من كذب، فهي دارهم وقرارهم إلى الأبد، يؤخذ بها منهم الحق ويجزون بها، فمن لم يؤدي الحق في هذه الدنيا، ومن الحق الإيمان بالغيب الذي وعد به الله فسيؤخذ منه الحق بها معاينة، ومشاهدة يوم القيامة.

فهل بعد ترهيب الله من ترهيب، وهل بعد ترغيبه من ترغيب، فهذا أبلغ موعظة لمن أراد لنفسه النجاة فما ساقه الله إلا تحذيراً لأوليائه وقيام الحجة على أعدائه، إن العاقل الناصح لنفسه ما عليه إلا أن يسلك ما أمره الله به لينجوا بنفسه مما تقدم من الوعيد الشديد، ويفوز بالوعد الصادق منه سبحانه لأوليائه المتقين.

متى يستعمل الداعية الترغيب والترهيب

باستعراض ما ورد في السورة من الترغيب والترهيب يلاحظ أن الترغيب يستعمل في إرادة الخير ولأهل الخير، والترهيب يحذر فيه عن الشر وأهل الشر، فعلى الداعية إذا وجد إنساناً مقبلاً على الخير وعنده حب له، رغبه فيه، وبين له محاسنه بخلاف ما إذا ما وجد إنساناً ظالماً لنفسه غارقاً في شهواته فإنه يحذره من عذاب الله وأليم عقابه، وربما إذا وجده قد أيس من رحمة الله يفتح له أبواب الخير ويرجيه بما عند الله، فهذا الأسلوب يستعمل حسب الأحوال والظروف، وصدق

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣٦٤.
(٢) انظر تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٧٢.

رسول الله ﷺ حيث يقول: «إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمن لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار»[1].

فنبي الله إبراهيم عليه السلام استعمل الترهيب مع قومه حينما رآهم قد تمادوا بالكفر والضلال، فقال تعالى عنه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾ [العنكبوت: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فبين لهم عاقبة أمرهم أنها الخسارة والدمار، وأن الأوثان التي اجتمعوا بسببها ستوردهم النار، وسيكونون أعداء فيها، كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقد استعمل معهم قبل ذلك أسلوب الترغيب طامعاً فيهم أن يقبلوا على الله وحده لا على أحد غيره، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٦ ـ ١٧].

فإبراهيم أمر قومه بإخلاص العبادة لله وحده، وتوحيده في الشكر، فإنه وحده المشكور على النعم، لا مسدي لها غيره، فإذا فعلوا ذلك بين لهم العاقبة ورغبهم بما يحصل لهم من الخير العميم في الدنيا والآخرة، وما يندفع عنهم من الشرور في الدنيا والآخرة[2].

---

(١) صحيح البخاري: ٧/ ١٨٣، كتاب الرقاق باب الرجاء مع الخوف، واللفظ له.
صحيح مسلم: ٤/٢١٠٩ كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، مسند أحمد: ٢/ ٣٣٤، ٣٩٧ ـ ٤٨٤.

(٢) انظر ابن كثير: ٣/ ٦٥٠.

وخطابه عليه السلام لهم: «يا قوم اعبدوا الله»، يشعر بعطفه عليهم وشفقته بهم، راغباً لهم الخير كارهاً لهم الشر.

وكذلك بقية الأنبياء عليهم السلام، وخاتمهم نبينا محمد ﷺ فدعوته لأمته ترغيب وترهيب، فكان من ترغيبه قوله ﷺ لكفار قريش: «إني إنما أريدهم على كلمة واحدة تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية»[1] الحديث...

ومن ترهيبه ﷺ أنه قام حين أنزل الله عز وجل: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ قال: «يا معشر قريش، (أو كلمة نحوها) اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا عباس ابن عبدالمطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً، ويا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد ﷺ سليني ما شئت من مالي لا أغنى عنك من الله شيئاً»[2].

وقوله ﷺ: «أيها الناس إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»[3].

وفي هذا اليوم ترى الناس يموجون في هذه الحياة الدنيا وزهرتها يطيرون خلف كل ناعق، فمنهم من يدعي أنه يطلب الحضارة والتقدم، ومنهم من هو غارق في بحر الرذيلة، ومنهم من هو معرض عن الله بالكلية، ومنهم من هو تائه حيران، فما أحوجهم إلى هذا الأسلوب، وترقيق قلوبهم ليقبلوا على الله ويسألوا عن دينه، وما يراد منهم في هذه الحياة.

---

(١) جزء من حديث في مسند أحمد: ١/٢٢٧، ٣٦٢. وسنن الترمذي: ٥/٣٦٦ كتاب التفسير باب سورة (ص).

(٢) صحيح البخاري: ٣/١٩٠، كتاب الوصايا باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب ١، واللفظ له. وفي كتاب التفسير: ٦/١٦ باب ولا تخزني يوم يبعثون.
صحيح مسلم: ١/١٩٢، كتاب الإيمان باب قوله تعالى: ﴿وانذر عشيرتك الأقربين﴾.

(٣) في صحيح البخاري: ٦/١٧، كتاب التفسير باب سورة الشعراء ٢٦، سورة سبأ ٣٤، ص ٢٩ وتبت ١١١ ص ٩٤.
جزء من حديث في صحيح مسلم: ١/١٩٣، الإيمان باب ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾.
سنن الترمذي: ٥/٤٥١، كتاب التفسير باب من سورة تبت. مسند أحمد: ١/٢٨١ ـ ٣٠٧.

المبحث الثالث: أسلوب لفت الأنظار

وقد تقدم[1] أن الموعظة الحسنة هي: «الحجج الإقناعية الموجبة للتصديق بمقدمات مقبولة»[1]، وهذا من الموعظة الحسنة.

وبما ورد من ذلك في السورة أسلوب لفت الأنظار بما يعرفه العقلاء من أشياء مشاهدة معلومة لهم ليزداد بها المؤمن إيماناً وتكون حجة على المعاند والمكابر.

وفي هذه السورة نبه الله العقول وحثها على تدبر ما خلقت له وما سيجزى عليها، ومن ذلك ما جاء بصيغة التنبيه ثم الاستفهام، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٢].

فبدأ السورة بأ (لم) والله أعلم بمراده به والله أنزلها لحكمة قد لا تبلغها عقولنا وأفهامنا[2]، فإن لم يكن لها معنى معروف لدينا، فإن لها مغزى مقصوداً، ومن الحكمة في البدء بها بياناً لإعجاز القرآن، وأن اللخق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها[3]. يؤيد ذلك أن السور التي تذكر فيها الحروف المقطعة يأتي بعدها ذكر للقرآن غالباً.

والاستفهام لنفي هذا الظن وتقرير الابتلاء والفتنة، والله سبحانه جعل الكون كله معرضاً لآيات الإيمان ودلائله، صفحة مفتوحة للحواس والقلوب تبحث فيها عن آيات الله وترى دلائل وجوده ووحدانيته، وصدق وعده ووعيده، والناس

---

(١) انظر صفحة ٢١٨ من هذا البحث.

(٢) فتح القدير: ١/ ٣٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٠

يشاهدون هذا الكون العظيم، وما فيه من عجائب قدرة الله، في الأرض والسماء، والأنفس وغيرها، ولكنها تفقد جدتها في النفوس بطول الألفة، ويضعف تأثيرها في القلوب بطول التكرار، فالله سبحانه يذكر القلوب بتلك الروعة وإلى تلك الآيات الباهرة بتوجيه موحى للمشاهد، والظواهر في القلوب والضمائر، ويثير تطلعهم وانتباههم إلى أسرارها، وآثارها، ويجعل منها دلائله، وبراهينه، التي تراها الأبصار وتتأثر بها المشاعر[1].

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٩].

فالعاقل يفكر في خلق الله فيرى قدرته في النبتة النامية وفي البيضة والجنين، وفي كل ما لم يكن ثم يكون، مما لم تملك قدرة البشر مجتمعين ومنفردين أن يخلقوه أو يدعوا أنهم خلقوه[2].

ثم أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالنظر والتأمل في مخلوقاته لتزيد في إيمانهم ويستدلوا بها على ما يراد منهم.

وقد وبخ الله الذين لم يستفيدوا من هذا النظر كما حكاه عن قوم إبراهيم، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٩].

قال أبو عبيد[3]: «لذكر الأمم كأنه قال أو لم ير الأمم كيف» اهـ.

وقرئت (تروا) فالخطاب لقريش ليس من قول إبراهيم...

وقيل المعنى: «أو لم يروا كيف يبدىء الله الثمار فتحيا ثم تفنى ثم يعيدها أبداً، وكذلك الإنسان وسائر الحيوان... أي فإذا رأيتم قدرته على الإبداء

---

(١) انظر في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٢٩.

(٢) انظر في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٢٩.

(٣) هو: القاسم بن سلام بن عبدالله، ولد سنة ١٥٧ هـ، وقرأ القرآن على أبي الحسن الكسائي، وغيره. صنف كتباً كثيرة منها: الأموال، والغريب، وفضائل القرآن، والطهور، والمواعظ، كان ثقة ديناً، ورعاً، كبير الشأن، ت سنة ٢٢٤ هـ بمكة. سير أعلام النبلاء: ١٠/ ٤٩٠.

والإيجاد فهو القادر على الإعادة»[1].

وهذه الآية حجة على من أنكر المعاد كما سيأتي بيانه في دعوة الكفار[2].

فالله عز وجل أرشد إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال وأودية وبراري وقفار، وأشجار وأنهار[3].

وأمر سبحانه وتعالى بالنظر إلى شيء قريب يحس ويدرك، وهو الأرض وما فيها من الخلائق على كثرتهم، وتفاوت هيئاتهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم وأمر بالنظر إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وآثارهم كيف أهلكهم لنعلم بذلك كمال قدرة الله، ومن كمال قدرته تحقق ما وعد الله به في الآخرة عياناً أيضاً.

والإنسان إذا نظر في هذه المخلوقات يجد فيها من الحكم ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، فمثلاً هذه الأرض التي أمرنا بالسير فيها.

قال ابن القيم عن الأرض: «جعل الله منها السهل والوعر والجبال والرمال لينتفع بكل ذلك في وجهه، ويحصل منه ما خلق له، وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التي تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف، ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه إما بعلمهم وإما بدونه، ثم يرد إليها ما خرج منها، وجعلها سبحانه كفاتاً، فالأحياء ما داموا على ظهرها فإذا ماتوا استودعتهم في بطنها فكانت كفاتاً لهم تضمهم على ظهرها أحياء، وفي بطنها أمواتاً، فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أثقلها الحمل وحان وقت الولادة، ودنو المخاض أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أثقالها فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها، وتقول رب هذا ما استودعتني وتخرج كنوزها بإذنه تعالى، ثم تحدث أخبارها وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير وشر»[4] اهـ.

---

(١) انظر أحكام القرآن للقرطبي: ١٣/٣٣٦.

(٢) سيأتي في صفحة ٣٣٢ من هذا البحث.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/٦٥١.

(٤) مفتاح دار السعادة لابن القيم: ١/٢٢١.

ومن الدعوة إلى إعمال النظر واستعمال العقل فيما خلق له، أن نبي الله إبراهيم أمر قومه أن يمعنوا النظر في الأوثان التي يعبدونها هل تستحق العبادة أم لا؟، فهو حينما أرسل إليهم وجدهم في غاية الضلال، فدعاهم إلى عبادة الواحد القهار، وبين لهم أن هذه المعبودات لا تغني عنكم من الله شيئاً، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

ولما لم يفعلوا ذلك عمد إلى تكسير أصنامهم إلا الكبير منها ليبين لهم أنها لا تدفع عن نفسها ولا تملك ضراً ولا نفعاً.

فبين نبي الله إبراهيم تفاهة هذه المعبودات وأنها لا تستحق العبادة ووجههم إلى من يستحق العبادة، ومن بيده النفع والضر، والرزق، فقال جل وعلا عنه: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

فطلب الرزق أمر يهم النفوس ويمس حاجتها فوجههم نبيهم إلى طلبه من موجده وهو الله، بقوله: ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾.

ونبي الله لوط نبه قومه إلى ما ركب الله فيهم من الشهوة وأنها لم تخلق عبثاً فيجب صرفها فيما أمروا به، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩].

فهو في دعوته وجه العقل إلى التفكر في هذه الشهوة، وأنها لم تخلق عبثاً، لذا يجب وضعها في موضعها الذي خلقت له لتكثير نسل الأمة، فإن الأمة إذا كثرت قويت.

وقد أمرنا الله سبحانه بالنظر والتفكر فيما حصل للأمم السابقة، قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: ٣٨].

«فقد ظهر من مساكن عاد وثمود بالحجر والأحقاف آيات بينات يتعظ بها ويتفكر فيها الناس»[١].

فإن ما حصل لهم فيه عبرة لمن اعتبر.

ومن لفت الأنظار في هذه السورة التنبيه على الموت وأنه لا بد واقع، فعلى الإنسان أن يستعد له كيف وقد قال ﷺ: «أكثروا ذكر هادم اللذات» يعني الموت[٢].

فالبدار إلى طاعة الله، والهجرة إليه، بالقلب والقالب، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [العنكبوت: ٥٧].

فالموت لا بد أن يمر على كل أحد، قال الشاعر[٣]:

الموت لا والد يبقي ولا ولداً ... ولا صغيراً ولا شيخاً ولا أحد
كان النبي فلم يخلد لأمته ... لو خلد الله حياً قبله خلدا
للموت فينا سهام غير مخطئة ... من فاته اليوم سهم لم يفته غدا[٤]

فلا أحد ينكر الموت وهو يمر على الجميع فهل اعتبروا واتعظوا ونظروا في حالهم عند الممات وتفكروا في هذا الأمر العظيم.

فغالب الناس في غفلة حتى يأتيهم الموت فيفيقون ولكن قد فات الأوان،

---

(١) انظر فتح القدير: ٤/ ٢٠٢.

(٢) سنن الترمذي: ٤/ ٥٥٣ كتاب الزهد باب ما جاء في ذكر الموت ٤، وقال: هذا حديث حسن غريب، المستدرك: ٤/ ٣٢١، الرقاق، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. سنن النسائي: ٤/ ٤ كتاب الجنائز باب كثرة ذكر الموت، سنن ابن ماجة: ٢/ ١٤٢٢ كتاب الزهد باب ذكر الموت. انظر إرواء الغليل: ٣/ ١٤٥.

(٣) هو أبو العتاهية: إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزي، مولاهم، الكوفي نزيل بغداد، شاعر كان يحب الخلاعة والمجون ثم تنسك بآخر حياته، وقال في الزهد والمواعظ فأجاد، ت ٢١٣ هـ، سير أعلام النبلاء: ١/ ١٩٥.

(٤) أبو العتاهية أشعاره وأخباره ص ١١١.

قال الشاعر:

الموت في كل حين ينشد الكفنا	ونحن في غفلة عما يراد بنا
لا تركنن إلى الدنيا وزهرتها	وإن توشحت من أثوابها الحسنا
أين الأحبة والجيران ما فعلوا	أين الذين هم كانوا لها سكنا
سقاهم الموت كأساً غير صافية	صيرهم تحت أطباق الثرى رهناً[1]

ومن توجيه القرآن للنظر والتفكر، النظر في البهائم كيف تحصل على قوتها وهي لا تدخر شيئاً، قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [العنكبوت: ٦٠].

والله سبحانه ذكره هذه الآية بعد الصبر والتوكل أي أن مما يعين عليهما هو النظر في حال الدواب التي لا تطيق حمل رزقها لضعفها ولا تدخره، وإنما يرزقها الله من فضله ويرزقكم فكيف لا تتكلون على الله مع قوتكم وقدرتكم على أسباب العيش كتوكلها على الله مع ضعفها وعجزها[2]. وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[3].

وهذا لا يعني ترك العمل كما تقدم في التوكل[4].

والنظر الصحيح يدل على توحيد الله سبحانه، وأنه مستحق للعبادة وحده، فالله عز وجل عاتب الذين لم يؤمنوا مع اعترافهم بخلق الله للسموات والأرض كما قال سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١].

فالاعتراف بأن الله خالق هذه الأكوان ومجري هذه الأفلاك ألا يدعو إلى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣٥٨/١٣.

(٢) انظر فتح القدير: ٢١١/٤.

(٣) سنن الترمذي: ٥٧٣/٤، الزهد، باب في التوكل على الله، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، المسند لأحمد: ٣٠/١ ـ ٥٢، المستدرك: ٣١٨/٤، سنن ابن ماجة: ١٣٩٤/٢ كتاب الزهد باب التوكل واليقين.

(٤) تقدم في ص ١٠٨ من هذا البحث.

التأمل والتفكر في خلقها ودقة أحكامها وما هي الحكمة منها؟ ألا تدل على خالق قادر، خالق حكيم، عالم أنها صالحة لهذا الخلق ومسخرة له، فما على العاقل إلا أن يسأل عن هذا الذي خلقها، أليس يستحق وحده أن يعبد دون سواه، مع ما بينه الله لنا في كتبه وعلى لسان رسله عليهم السلام.

فالاستفهام في آخر الآية «فأنى يؤفكون» للإنكار والاستبعاد وهذا يحمل المخاطب إلى توجيه كل اهتمامه لما يلقى إليه ليتمكن من فهمه ثم الإجابة عنه[1].

والاستفهام في أصل وضعه يتطلب جواباً يحتاج إلى تفكير يقع فيه هذا الجواب في موقعه، وكرر هذا السؤال عن أشياء ينتفعون بها ويحسونها ومحتاجون إليها، فلو عندهم عقل رشد لا عقل إدراك فقط لآمنوا، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

فحمد الله على ما أوضح من الحجج والبراهين على قدرته[2]، ولكن لا يعقلون هذه الحجج ولا يتدبرونها، فالحمد لله على إقرارهم بذلك، وهذا من إلزامهم الحجة كما سيأتي في الجدل.

(١) انظر أسلوب الدعوة القرآنية: ١٧٢.
(٢) أحكام القرآن للقرطبي: ١٣/ ٣٦١.

المبحث الرابع
الجمع بين الحكمة والموعظة

وقد يجمع بين أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، وذلك في الأمثال والقصص، فأولاً الأمثال:

الأمثال: جمع مثل: «وأصل المثول الانتصاب، والممثل المصور على مثال غيره، يقال مثل الشيء أي انتصب، وتصور، ومنه الحديث «من أحب أن يمثل له الرجال فليتبوأ مقعده من النار»[(1)].

والمثل عبارة عن قوله في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره[(2)].

والمثال مقابلة شيء بشيء هو نظيره، أو وضع شيء ما ليحتذى به فيما يفعل، ومنه ما حصل للأنبياء وأقوامهم، فقد قصّ الله علينا من أخبارهم لنحتذي بمن أطاع الرسل فننجوا مثلهم، قال تعالى عن نوح: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ١٥].

ونترك سبيل من عصى حتى لا نهلك مثلما هلكوا، قال تعالى عن قوم لوط: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا

(١) سنن أبي داود: ٣٩٨/٥ الأدب، باب في قيام الرجل للرجل، المسند: ٩٣/٤، ١٠٠، مشكل الآثار للطحاوي: ٤٠/٢، سنن الترمذي: ٩٠/٥، أدب ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل، الأدب المفرد: ٢١٠ رقم ١٠٠٦، الكنى للدولابي: ٩٥/١، المنتخب لعبد بن حميد: ٣٨٠/١ رقم ٤١٣.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٤٦٢.

مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣٣ ـ ٣٤].

وضرب الأمثال أسلوب من أساليب الدعوة الإسلامية كيف لا، وهي: «تقرب المعقول من المحسوس، وأحد المحسوسين من الآخر»[١].

فتكون ماثلة بخاطر الإنسان أي شاخص يأنس به ويتعظ ويخشى ويرجو»[٢].

وهي تجمع بين أسلوبي الحكمة والموعظة الحسنة، كما أنها لافتة للانتباه، وقد قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فما يفهمها ويتدبرها على ما ضربت له وتتعلق في قلبه (إلا العالمون) وهم أهل العلم الحقيقي الذي وصل العلم إلى قلوبهم[٢]، وهذا تمييز لها عن غيرها وبياناً أن لها أثراً عميقاً في النفوس، وأنه ينبغي للإنسان أن يصغي لها ليكون ممن مدح الله عز وجل بكونه من أهل العلم، فعن عمرو بن مرة[٣] قال: «ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأنني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣][٤].

فهكذا كان دأب السلف وحرصهم على الخير وحزنهم على فواته (فأهل العلم يعرفون قيمة الأمثال لاعتناء الله بها وحثّ عباده على تعقلها وتدبرها فيبذلون جهدهم في معرفتها لأنها تستعمل في الأمور الكبار والمطالب العلية والمسائل الجلية، ولهذا كثيراً ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها)[٥] فهي من هذا الباب من الحكمة، والله عز وجل اعتنى بضرب الأمثال في كتابه الكريم، كذلك اعتنى بها المصطفى ﷺ، وما ذاك إلا لما لها من الفوائد العظيمة، كما أن فيها

---

(١) أعلام الموقعين: ١/ ١٥٠.

(٢) انظر تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن: ٦/ ٨٩.

(٣) هو: عمرو بن مرة بن عبدالله بن طارق بن الحارث بن سلمة بن كعب بن وائل أرسل عن ابن عباس وغيره، ورد عن سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير وغيرهما، كان ثقة، مؤمناً، ت سنة ١١٦ هـ. سير أعلام النبلاء: ٥/ ١٩٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٦٠، الدر المنثور: ٥/ ١٤٥.

(٥) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦/ ٨٩.

ترغيباً وترهيباً، وزجراً، وهذا من الموعظة الحسنة.

فوائد الأمثـال

ولما للأمثال من هذه المكانة الرفيعة حاول العلماء استخراج ما فيها من الفوائد، واستخلاص ما فيها من الحكم، وخاصة أمثال القرآن الكريم، فضرب الله الأمثال تذكيراً ووعظاً، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب أو على إحباط أو على مدح أو ذم، أو نحوه. فإنه يدل على الأحكام، وهي تفيد أموراً كثيرة منها: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس[1].

كما أن في الأمثال «تبكيت للخصم الألد قومع لسورة الجامع الغص»[2].

وأمثال القرآن «وعد الله عز وجل بها وأوعد وحرم وأحل، ورجّى وهوف وقرع بها المشركين وجعلها موعظة وتذكيراً، ودلل بها على قدرته مشاهدة وعياناً، وعاجلاً وآجلاً»[3].

ومن هذه النقول عن العلماء وبالنظر إلى ما ورد في القرآن الكريم من الأمثال يتبين أن من أهم أغراض الأمثال ما يأتي:

١ ـ أنها تبرز المعقول في صورة المحسوس فيقبله العقل، ومثال ذلك المثل الوارد في السورة، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فاتخاذ الولي شيء معقول فإذا كان غير الله فهو تافه، وشبهه الله تفاهته بشيء محسوس وهو بيت العنكبوت الذي لا يقي حر ولا برد.

ومن أغراض الأمثال:

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٣٩/٤.
(٢) انظر الكشاف للزمخشري: ٣٧/١.
(٣) أمثال الحديث للرامهرمزي، ت د. عبد العلي الأعظمي: ٥.

٢ ـ أنها تضرب للترغيب في عمل الخير كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

٣ ـ كما تضرب للترهيب والتنفير من أعمال المنكر، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجرات: ١٢].

٤ ـ ومن أغراض الأمثال المدح لمن فعل شيئاً يستحق المدح عليه، كما قال تعالى في شأن الصحابة: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٩].

٥ ـ كما تضرب الأمثال للذم والتحقير كالمثل الوارد في السورة: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤١].

أقسـام الأمثـال

للأمثال الواردة في القرآن الكريم قسمان كما قال السيوطي:

١ ـ ظاهر مصرح به.

٢ ـ وكامن لا ذكر للمثل فيه.

فمن الأول المثل الوارد في السورة.

وأما الثاني وهي الكامنة فقد سئل الحسين بن فضل[1] عن عدة أمثلة سائرة من أمثال العرب والعجم وأنه يخرجها من القرآن، فسئل عن خير الأمور أوسطها، قال نعم، في أربعة مواضع، منها قوله تعالى[2]: ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [البقرة: ٦٨].

وبعض العلماء يرى أنها ثلاثة أقسام هي:

١ ـ الأمثال المصرحة وهو القسم الأول عند السيوطي.

٢ ـ الأمثال الكامنة.

٣ ـ الأمثال المرسلة.

وهذان القسمان هما القسم الأول عند السيوطي، فإن الأمثال الكامنة التي لا ذكر للمثل فيها هي تأتي مرسلة، والأمثال المرسلة وهي جمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه إلا أنها آيات جارية مجرى الأمثال[3] من ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف: ٥١].

وذكر السيوطي في كتابه جملة من هذا النوع من آيات الكتاب العزيز، وقال أن هذا النوع البديعي المسمى بإرسال المثل[4].

والمثل الوارد في السورة من القسم الأول فقد صرح بذكر الممثل والممثل به ووجه التمثيل.

وقد بين الله في هذا المثل حقارة ما عبد من دون الله وأنه لا يساوي عند الله شيئاً.

---

(١) هو: ابن عمير العلامة المفسر اللغوي المحدث النيسابوري، ولد قبل ١٨٠ هـ، وكان فصيح اللسان، سمع يزيد بن هارون، وإسماعيل بن إبان وغيرهما وحدث عنه محمد بن عبدالله بن المبارك، ت ٢٨٢ هـ (سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٤١٤).

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن: ٤/ ٤١.

(٣) انظر مباحث في علوم القرآن: ٢٨٦.

(٤) انظر الإتقان في علوم القرآن: ٤/ ٤٣.

شرح المثل الواردة في السورة:

بعدما تحدث الله تعالى عن الفتنة والابتلاء، وأنه لا بد منها لكل أحد، بيّن سبحانه أن الذين لا يصبرون على الفتنة ويلوذون يمنة ويسرة يبحثون عمن ينقذهم وفي الحقيقة لا منقذ لهم إلا الله، كما قال ﷺ في الدعاء المأثور: «لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك»[1].

فمن وصلت به الفتنة إلى الاعتماد على غير الله وأودت به إلى الشرك الذي هو أكبر فتنة فإن اعتماده هذا لا يسمن ولا يغني من جوع، فهو كمثل بيت العنكبوت الذي لا يقي في حر ولا برد، وهو عرضة للزوال بأدنى ريح.

والعنكبوت: «دويبة معروفة تنسج لنفسها في الهواء بيتاً رقيقاً ضعيفاً لا يغني عنها شيئاً»[2].

والمعنى أن حال هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله تعالى أصناماً يعبدونها ويرجون نفعها وشفاعتها.

كحال العنكبوت في اتخاذها بيتاً ضعيفاً مهلهلاً لا ينفعها لا في حر ولا في قر، ولا يدفع عنها شيئاً من الأذى.

والمقصود من المثل تجهيل المشركين وتقريعهم حيث عبدوا من دون الله تعالى آلهة هي في ضعفها ووهنها تشبه بيت العنكبوت، وأنهم لو كانوا من ذوي العلم لما عبدوا تلك الآلهة»[3].

فمن اتخذ من دون الله ولياً يتعزز به ويتكبر به ويستنصر لم يحصل له بعد إلا ضد مقصوده. وهذا من أحسن الأمثال، وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه[4].

---

(١) جزء من دعاء يقال عند النوم، صحيح البخاري: ١/ ٦٧، كتاب الوضوء باب فضل من بات على وضوء، والدعوات: ٧/ ١٤٧، باب إذا بات طاهراً، والتوحيد: ٨/ ١٩٦ باب قول الله تعالى: ﴿أنزله بعلمه﴾ صحيح مسلم: ٤/ ٢٠٨٢ الذكر، باب ما يقول عند النوم وأخرجه أحمد وأبو داود، والترمذي، وابن ماجة، والدارمي.

(٢) انظر لسان العرب: ١/ ٦٣٢ عنكب.

(٣) انظر التفسير الوسيط: ٢٠/ ٤٥.

(٤) انظر أعلام الموقعين: ١/ ١٥٤، وانظر تفسير كلام المنان: ٦/ ٨٧.

والكفار يعلمون بيت العنكبوت ووهنه، فالله بين حالهم بحال ما يعلمونه من الضعف والوهن ولكنهم لا يعلمون ضعف آلهتهم فاستهجنوا هذا المثل وأشباهه في القرآن كالذي فيه النحلة والذباب، واستخفوا بذلك وحقروه، وقالوا: هذا ليس من كلام حكيم، وذلك لفرط جهلهم وحماقتهم[1] فبين الله عز وجل أن عقولهم لم يستخدموها فيما خلقت له، ولذلك بيّن أن ما يعقل هذه الأمثال إلا أهل العلم والبصيرة، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

ثانياً: القصـــص:

ومما جمع فيه بين الحكمة والموعظة الحسنة القصص، فما ير فيها من دعوة الأنبياء والمصلحين لأقوامهم بالحسنى والرفق واللين والتلطف في القول كل هذا من الحكمة وما تشتمل عليه من نجاة للمؤمنين، وهلاك للعصاة والملحدين، وهذا ترغيب وترهيب في باب الموعظة الحسنة، والله سبحانه وتعالى اعتنى بالقصص في كتابه الكريم، كما اعتنى بها رسوله ﷺ، وما ذلك إلا لأهميتها وتأثيرها، لذلك استنبط العلماء بعض فوائدها، فمن ذلك:

١ ـ بيان المهمة من خلق الإنسان، وما هو الواجب عليه وهو إخلاص العبادة لله وحده، انظر إلى قوله سبحانه: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وانظر إلى تعميم ذلك في جميع دعوات الرسل عليهم السلام، قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٢ ـ تسلية الرسول ﷺ وتثبيت قلبه وقلوب المؤمنين من أمته الداعين إلى هديه ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

---

(١) انظر الكشاف: ٣/ ١٩١.

وهذا تفضيل لقوله سبحانه في أول السورة: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣) ﴾ [العنكبوت: ٣].

يقول ابن كثير رحمه الله عن قصة نوح عليه السلام: هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ يخبره عن نوح عليه السلام، أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فراراً عن الحق وإعراضاً عنه، وتكذيباً له، وما آمن معه إلا قليل، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) ﴾ [العنكبوت: ٤١]، أي بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والإنذار، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك، ولا تحزن عليهم فإن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وبيده الأمر وإليه ترجع الأمور[١]، أهـ. قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود: ١٢٠].

٣ ـ ومن فوائد القصص: بيان صدق السابقين من الأنبياء وتخليد ذكرهم ـ في صبرهم على الدعوة إلى الله ونجاتهم واتباعهم في الدنيا والآخرة.

٤ ـ إظهار صدق الرسول ﷺ حيث يخبر عن الماضين بما هو صدق وحق مع أنه لم يتعلم على يد أحد قبله من أهل الكتاب وغيرهم، وبذلك لا يحصل مقارعة أهل الكتاب والمعاندين بالحجة فيما كتموه من البينات والهدى[٢]، ويتبين من ذلك كذلك إظهار صدق ما جاء به من الوحي المنزل، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

٥ ـ لفت انتباه السامعين وشد أذهانهم، وذلك بحبهم إلى معرفة النتيجة فتميل إليها نفوسهم، وتُذهِب عنهم السآمة والملل، فيتمكن الداعية بذلك أن يصل إلى أعماق القلوب.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/ ٦٤٨.

(٢) انظر مباحث في علوم القرآن: ٣٠٧ بتصرف.

٦ ـ بيان موقف المكذبين المعاندين من إعراض وتبجح عن الحق في كل الدعوة وبيان مآلهم أنه الخسارة والهلاك والبوار.

وفي هذه السورة ورد ذكر بعض الأنبياء والإشارة إلى قصصهم بإيجاز، كما عرض في غير هذه السورة بعرض آخر وليس هذا تكرار.

يقول ابن تيمية عند ذكر قصة موسى: «وقد ذكر الله تعالى هذه القصة في عدة مواضع من القرآن يبين في كل موضع منها من الاعتبار والاستدلال نوعاً غير النوع الآخر، كما يسمي الله ورسوله بأسماء متعددة كل إسم يدل على معنى لم يدل عليه الإسم الآخر، وليس في هذا تكرار بل فيه تنويع الآيات مثل: أسماء النبي ﷺ إذا قيل: محمد، وأحمد، والحاشر، والعاقب، والمقفى، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي المحلمة، في كل إسم دلالة على معنى ليس في الإسم الآخر، وإن كانت الذات واحدة فالصفات متنوعة.

وكذلك القرآن... وكذلك أسماء الرب تعالى...

وكذلك في الجملة التامة، يعبر عن القصة بجمل تدل على معاني فيها ثم يعبر عنها بجمل أخرى تدل على معانٍ أُخر، وإن كانت القصة المذكورة ذاتها واحدة فصفاتها متعددة، ففي كل جملة من الجمل معنى ليس في الجمل الأخرى»[1] اهـ.

فمن حكمة التكرار في القصة القرآنية:

١ ـ أنها تدل على بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، حيث يبرز المعنى الواحد في صور مختلفة. فالقارىء لا يمل من القصة فإنه كلما قرأها وكررها في موضع آخر تجدد في نفسه معاني لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى.

٢ ـ الدلالة على قوة الإعجاز في القرآن حيث يرد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بها وهم أهل الفصاحة.

٣ ـ التكرار يدل على الاهتمام بها وتأكيدها خاصة أن قصص القرآن عبرة للنفس الإنسانية حيث يدور حول الصراع بين الحق والباطل.

---

(١) مجموعة فتاوى شيخ الإسلام: ١٩/ ١٦٧.

٤ ـ اختلاف المقامات والأموال التي تساق لأجلها القصة، فتختلف من موضع لآخر حسب الغاية التي تساق من أجلها[١].

وقصص القرآن فيها معاني بليغة وعظات وعبر تكفي عن القصص والحكايات الإسرائيلية المختلفة، وقد حصل في العهد الإسلامي قصص بعيدة عن الواقع والخيال، وكان لها شأن على غير ما كان في عهد الرسول ﷺ وصحابته.

أخرج ابن شيبة[٢] في المصنف عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لم يقص زمان أبي بكر ولا عمر وإنما كان القصص زمن الفتنة[٣].

كما أخرج عن نافع أنه قال: «لم يكن قاص في زمن النبي ﷺ ولا زمن أبي بكر ولا زمن عمر ولا في زمن عثمان»[٤].

ومن هذين النصين تبين لي أنه لم يكن للقص مجلس خاص ودرس خاص في الصدر الأول، وإلا فقد حصل من الرسول ﷺ أنه كان يأتي بالقصص في معرض حديثه أحياناً إما مبهمة الأسماء أو معلنة، مثال ذلك ما قصه ﷺ عن أصحاب الأخدود[٥].

وكقصة النفر الثلاثة الذين أواهم الغار.

وما قصه ﷺ من خبر الدجال كما تقدم في الفتن[٦].

وكما حصل للرسول ﷺ من أحداث، وهي قصص واقعية تقوي إيمان

---

(١) انظر مباحث في علوم القرآن ص ٣٠٨.

(٢) هو: عبدالله بن محمد بن القاضي أبي شيبة إبراهيم بن عثمان بن خواستي، صاحب المؤلفات (المسند، والمصنف، والتفسير) من أقران: أحمد، وإسحاق، والمديني في السن والمولد والحفظ، سمع منه عبدالله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما. حدّث عنه أبو داود وابن ماجة وهو صدوق ثقة، ت ٢٣٥ هـ، سير أعلام النبلاء: ١١/ ١٢٢.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٥٥٨ رقم (٦٢٤١).

(٤) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٥٦١ رقم (٦٢٥٣). وانظر سنن ابن ماجة: ٢/ ١٢٣٥، الأدب، باب القصص ٤٠ حديث: (٣٧٥٤).

(٥) تقدمت في صفحة ١٩٦.

(٦) تقدم في صفحة ٢٠٨.

المؤمن كقصة شق الصدر والإسراء والمعراج[1]، والهجرة.

وهذه القصص التي حصلت للرسول ﷺ تكون من الحكمة في دعوة المؤمنين ببيان سيرة الرسول ﷺ لأنها تورث في النفوس محبته واتباع نهجه والسير على طريقه، فيما شرع، فالقصص المنهي عنه هو ما اشتمل على الكذب، والوهم الذي لا حقيقة له، كالإسرائيليات التي تؤخذ للحرفة والمسألة وتغليب باطل على حق.

ما تقدم من الحكمة والموعظة الحسنة كله في دعوة المؤمنين الذين يقبلون الحق أو أناس خالي الذهن ليس عندهم شبه واعتراضات، أما إذا كان المدعوون غير مؤمنين ويدعون أنهم على حق إما لتعلقهم بعلم سابق، أو لجهلهم باعتمادهم على الشرف والجاه والغنى، فإن هؤلاء ينتقل معهم إلى أسلوب آخر وهو الجدال.

---

(١) انظر القصة كاملة في صحيح البخاري: ١/ ٩١ الصلاة باب كيف فرضت الصلاة، الحج: ٢/ ١٦٧ باب ما جاء في زمزم، وكتاب الأنبياء: ٤/ ١٠٦ باب ذكر إدريس.
صحيح مسلم: ١/ ١٤٨، الإيمان، باب الإسراء، مسند أحمد: ٥/ ١٤٣.

الفصل الثالث

أسلوب الجدل

لقد أمر الله سبحانه وتعالى بالجدال بالتي هي أحسن حيث قال سبحانه: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

والجدال بالتي هي أحسن الطريق التي تكون أدعى إلى الاستجابة عقلاً ونقلاً، وذلك بالاحتجاج بالأدلة التي يعتقدها الخصم فإن ذلك أقرب إلى حصول المقصود لأن المقصود ممنها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة والمشاتمة[(١)].

«والجدال يكون بإيراد المقدمات البرهانية التي لا يمكن لأحد أن يجحدها لتقرير المخاطب بالحق ولاعترافه بإنكار الباطل، فإنه يشترط في الجدل أن يسلم الخصم المقدمات وإن لم تكن بينة معروفة فإذا كانت بينة معروفة كانت برهانية وهذا من أحسن الجدل»[(٢)].

وبما أن أهل الكتاب يدعون أن عندهم علم وأنهم على دين سابق لذلك أمر الله سبحانه بجدالهم بالتي هي أحسن حتى يتبين لهم الحق وتتضح الحجج فإن قبلوا وإلا انتقل معهم إلى الجلاد.

قال ابن كثير رحمه الله في قوله سبحانه ﴿إلا الذين ظلموا﴾ «أي حادوا عن وجه الحق وعموا عن واضح الحجة وعاندوا وكابروا فحينئذ ينتقل من الجدال إلى

---

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٤/ ٢٥٥.

(٢) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٩/ ١٦٤ ـ ١٦٥.

الجلاد ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم»[1]. أ هـ.

وهذه الحال غالباً ما تكون من ذوي السلطة لا من الأفراد حتى لا تحدث الفوضى والضرر والفساد الكبير وفي دعوة أهل الكتاب بيان نماذج لجدالهم[2].

وبما أن الجدال إذا كان بغير حق وبغير دليل فإنه مذموم كما قال سبحانه: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾ [غافر: ٥].

وهذا من الجدل المذموم، إلا أن لخصم إذا أورد الحجج الباطلة فإنه يرد عليه ويجادل بحجج واضحة، فأما أن يقتنع أو تقوم عليه الحجة.

ومما ورد في السورة من ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

فرد الله عليهم مقولتهم هذه بما يحصل منهم حين الأذى، فقال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٠] فادعاءهم الإيمان باطل لعدم صبرهم على ما يأتيهم في سبيله، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى عن الكفار وما يدعون إليه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٢].

وقد رد الله عليهم أن هذا القول مجرد ادعاء ومخاصة، وإنكار للجزاء الذي يحصل للكفار وأتباعهم لأن الله أثبته في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، فبين كذبهم هنا بقوله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٦٢.

(٢) راجع ص: ٣٦٠ من هذا البحث.

ومن جدال الكفار الوارد في السورة جدالهم في إنكارهم الرسالة والقرآن حيث رد الله عليهم إنكارهم بما هو معلوم لديهم، وفي قرارة أنفسهم من أن الرسول كان أمياً لا يقرأ، ولا يكتب، ولم يكن له علاقة بأحد في أول حياته ليقال أنه علمه فقال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فقوله سبحانه: ﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ ولو كنت كذلك لكان هناك مجال لأن يشك شاك، ويدعى مدعي.

ثم أوضح الله دلالة هذا القرآن بأنه آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم كما قال سبحانه: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

ولكن المعاند يستمر في جداله ويورد الشبهة التي يحاول بها الغلبة والانتصار لمذهبه الفاسد، فطلبوا الآيات تعنتاً قال تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

أي لم تكفهم هذه الآيات الواضحات فبين الله عز وجل أن هذا ليس من خصوصيات الرسول فالرسول ما عليه إلا البلاغ والإنذار، أما إنزال الآيات فهو من خصوصيات الله سبحانه وتعالى ينزلها كيف يشاء، ومتى شاء.

كما رد الله عز وجل عليهم بأنه أنزل أعظم آية وهي هذا القرآن العظيم الذي أعجزهم أن يأتوا بمثله مع ما أوتوا من فصاحة وبلاغة، أليس يكفي هذا آية قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فإذا كان هذا لا يكفيهم فإن الله سبحانه يعلم كل ما في هذا الكون كما يعلم ما في نفوس هؤلاء وما تكنه صدورهم، كما يعلم نهايتهم أنها الخسارة والبوار، قال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

﴿ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

ثم تنتقل المجادلة مع هؤلاء المعاندين إلى إلزامهم بما يترتب على اعترافهم بقدرة الله - فهم اعترفوا بأنه خالق، مسخر، منزل المطر، محي الأرض، فهذا الاعتراف يلزمهم بأن يصرفوا التوحيد لله لا لأحد غيره، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١].

ثم الآية الأخرى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

ثم ينتقل إلى جدال من نوع آخر وهو الجدال بهذه النعم التي أنعم الله بها على هؤلاء المعاندين من نعمة الأمن التي لم تحصل لأحد غيرهم، ونعمة الإنجاء من البحر عند الدعاء، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فكان جزاء إن كانت مجادلتهم بالتهديد هذه المرة لأنهم عرفوا الحق فلما آمنوا أعرضوا عنه، قال تعالى: ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٦].
وبعد أن ذكرهم بهذه النعمة وجادلهم بالقيام بحقها ذكرهم بنعمة الأمن فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

لذلك جاء التهديد: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

ومن الجدال الوارد في السورة جدال الأنبياء لأقوالهم، فقد ورد عن إبراهيم أنه جادل قومه فقال الله عنه: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ

﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١٩﴾ [العنكبوت: ١٦ ـ ١٩].

كما جادل عن لوط حينما رأى ملائكة العذاب وهذا من رأفته ورحمته كما وصفه الله عز وجل، فقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ٧٥﴾ [هود: ٧٥].

فقال الملائكة: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾ [العنكبوت: ٣٢].

كذلك لوط جادل قومه في سبيل دعوتهم إلى لله وامتثال أوامره فقال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾ [العنكبوت: ٢٨].

ولكن قومه جادلوه بالمكابرة والمعاندة، حيث قال: ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وباستعراض ما ورد في السورة تبين لي أنه لا تعارض بين الأمر بالجدل والنهي عنه حيث أن الجدل ينقسم إلى قسمين: جدل ممدوح أو هو إيراد الأدلة والبراهين القاطعة لإقامة الحجة على المعاند ولقصد إظهار الحق.

ثانياً: جدل مذموم، وهو ما كان بغير أدلة وبراهين أو كان بأدلة وبراهين ولكن المقصود منه الغلبة، والإفحام والمراء بدون فائدة، كما يأتي في دعوة المؤمنين[1].

---

(١) يأتي في ص: ٣١٩ من هذا البحث.

الفصل الرابع

موانع قبول الدعوة

خاتمة لأساليب الدعوة:

باستعراض أساليب الدعوة الواردة في السورة من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، تبين أن الله سبحانه وتعالى دعى الخلق إلى توحيده والإيمان به بشتى الوسائل والأساليب التي تتناسب مع عقولهم وإدراكاتهم.

ومن استجاب ودعى إلى ما وجده من هذا الخير فهو من أحسن الناس وأفضلهم عند الله عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

لذلك من يقومون بالدعوة إلى الله لا بد أن يتصفوا بصفات تؤهلهم للقيام بهذا الأمر العظيم، كما سيأتي.

وقد استمرت الدعوة، ففي كل زمان يهيىء الله من يقوم بها ويدعوا إلى دينه، ويبين للناس أمور دينهم.

ومع أن العقل هو محل الإدراك الذي يدرك به الإنسان به ما يراد منه ويتفكر ويتعظ ويستفيد من الدعوة لذلك أمر الله بمالحافظة عليه وصيانته، فحرم الخمر وكلما يذهب العقل. وكما أمر باستعماله في ما خلق له، من عبادة الله وتوحيده، لذلك نفى العقل عن الذين لا يتدبرون ولا يتعظون بآيات الله، قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [البقرة: ١٧١] فنفى عنهم العقل، مع أنهم يحمون الديار والذمار، ويجلبون العيش لأهلهم وأولادهم في هذه الحياة الدنيا ولكن هذا لا يعني عنهم من الله شيئاً إذا لم يخلصوا العبادة لله، ولم يستخدموا العقل فيما خلق له، وأسباب

هذا الأعراض أن العقل له موانع تمنعه من قبول الحق والاستنارة به، فمما ورد في السورة من ذلك تزيين الشيطان كما قال سبحانه: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾ [العنكبوت: ٣٨].

فلما لم يحرسوا عقولهم بالعلم النافع والعمل الصالح لعب الشيطان بها وزين لهم الباطل.

ومن الموانع حب التعالي والتكبر والإفساد في الأرض كما حصل لفرعون وقارون وهامان، قال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ۝٣٩﴾ [العنكبوت: ٣٩].

وكذلك من الموانع حب الشرف والجاه كما حصل لكفار قريش(١)، وكذلك الحسد كما حصل لليهود كما في قصة حيي بن أخطب وأخيه(٢).

ومن موانع العقل كذلك حب الشهوة والغرق فيها حتى تؤدي بصاحبها أن يضعها في غير موضعها، كما حثل لقوم لوط، قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ [العنكبوت: ٢٩].

فإتيانهم الرجال هو لأجل الشهوة، وهي التي منعتهم من قبول الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝٨١﴾ [الأعراف: ٨١].

ومن الشهوة حب التمتع بالدنيا، قال تعالى: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٦٦﴾ [العنكبوت: ٦٦].

فعلى الداعية أن يواجه هذه الموانع ويعالجها ويصبر على أهلها، ولا ينتظر النتائج فإن هذا بيد الله سبحانه كما فعل الأنبياء والدعاة قبله.

---

(١) تقدم دليل على ذلك ص: ٢٠٦.

(٢) كما سيأتي في ص ٣٧٠.

الباب الثالث
الدعاة في السورة

وينقسم إلى مقدمة وستة فصول:

المقدمة: أهم صفات الدعاة.

الفصل الأول: نوح عليه السلام.

الفصل الثاني: إبراهيم عليه السلام.

الفصل الثالث: لوط عليه السلام.

الفصل الرابع: شعيب عليه السلام.

الفصل الخامس: محمد ﷺ.

الفصل السادس: ما أجمل ذكره من الأنبياء في السورة.

الباب الثالث
الدعاة في السورة

المقدمة:

الدعوة أمر جسيم وفضلها عند الله عظيم لا يقوم بها إلا الأكفاء من الخلق، لذلك اختار الله لها أفضل الخلق وهم الرسل، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج: ٧٥].

«والاصطفاء هو: الانتقاء والاختيار»[(١)].

ومن أهم الصفات التي ينبغي أن يتصف بها الداعية:

أولاً: الإخلاص لله عز وجل، وقد تقدم الكلام عليه وأنه مطلوب في كل عبادة الله عز وجل.

ثانيا: المتابعة للرسول ﷺ، فعلى الداعي أن يعتقد أنه وارث لنبيه محمد ﷺ في نشر سنته وهديه راجياً ما عند الله وهذا أحفز للدعوة والاستمرار فيها، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨] ولا تتحقق المتابعة إلا بالعلم..

ثالثا: العلم بشريعة الله التي يدعو إليها، والعلم بأحوال من يدعوهم، فقد قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ

---

(١) انظر لسان العرب: ١٤/ ٤٦٣ صفا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فإبراهيم يعلم عن قومه كذبهم وخلقهم الإفك، كما يعلم تفاهة المعبودات من دون الله، ومن قبل ذلك كله يعلم أن المستحق للعبادة هو الله وحده دون سواه.

وقد بعث الرسول ﷺ معاذاً إلى اليمين وأعلمه بحال القوم الذين سيقدم عليهم، وأنهم أهل كتاب وأعلمه كيف يدعوهم، فقال له: (إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فأدعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، فـءن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين الله حجاب)[1].

رابعاً: الصبر، فهو من أهم صفات الداعية إلى الله عز وجل فقد مكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وجميع الرسل صبروا على أذى قومهم وتحملوا كل ما يصيبهم في سبيل الدعوة لذلك لا بد مع الصبر من الحلم واللين والرفق لكي يعاود الدعوة، ويستمر مع المدعوين ولا ييأس من حالهم، فهذا إبراهيم عليه السلام بعدما خرج من النار سالماً لم يترك قومه لوم يقل لا فائدة منهم، بل استمر على دعوته لهم، قال تعالى عنه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

خامساً: الحكمة، وقد تقدم أنها أسلوب من أساليب الدعوة، لذلك لا بد

---

(١) صحيح البخاري: ٥/١٠٩ كتاب المغازي باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، واللفظ له. والتوحيد: ٨/ ١٦٤ باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ إلى التوحيد.
صحيح مسلم: ١/ ٥٠ ـ ٥١ الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين، سنن أبي داود: ٢/ ٢٤٢، الزكاة، والترمذي: زكاة.

للداعية أن يكون حكيماً يستعمل الأساليب المناسبة للحال والمقام، فالناس يختلفون في الفهم والعلم ولين الجانب وغلظة، فعلى الداعية أن يستعمل مع كل شخص ما يناسبه ويكون ادعى لقبوله وانقياده.

ومن الحكمة التدرج في الدعوة، وقبول ما عند المدعو من الحق والتدرج معه شيئاً فشيئاً حتى نتنشله من الباطل برفق.

ومن الحكمة التفريق بين الجاهل والمعاند.

ولينظر إلى حكمة الرسول ﷺ في دعوته، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه[1]، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه. دعوه» فتركوه حتى بال، ثم أن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، ءنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة وقراءة القرآن»[2] الحديث.

وفي رواية لأحمد: ثم يقول الأعرابي بعد أن فقه (فقام النبي ﷺ إلى - بأبي هو وأمي - فلم يسب ولم يؤنب ولم يضرب)[3].

وكذلك ما ورد عن معاوية بن الحكم رضي الله عنه قال: بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل امياه[4]، ما شأنكم تنظرون إليّ، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم، يصمتونني، لكني سكت فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن).

---

(١) كلمة زجر وهي اسم مبنى على السكون وأصلها ما هذا، ثم حذف تخفيفاً.

(٢) صحيح مسلم: ٢٣٧/١ الطهارة باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات. واللفظي له. مسند أحمد: ١٩١/٣، سنن ابن ماجة: ١٧٦/١ الطهارة باب الأرض يصيبها البول، عن أبي هريرة، كما رواه مختصراً البخاري، والنسائي، والدارمي، وأبو داود، والترمذي، وأحمد.

(٣) مسند أحمد: ٥٠٣/٢.

(٤) تقدم شرح غريبه وتخريجه ص: ٢١٥ - ٢١٦.

قال النووي[1]: «فيه بيان ما كان عليه رسول الله ﷺ من عظيم الخلق، الذي شهد الله تعالى له به، ورفقه بالجاهل، ورأفته بأمته، وشفقته عليهم وفيه التخلق بخلقه ﷺ في الرفق بالجاهل وحسن تعليمه واللطف به وتقريب الصواب إلى فهمه[2].

والأمثلة كثيرة...

سادساً: القدوة، فعلى الداعي أن يكون قدوة في فعله في خلقه في كل شيء يدعو إليه لأن عامة الناس يقتدون به ويظنون أن أي فعل يفعله أنه مأمور به وأن أي شيء يتركه يظنونه منهى عنه، فتهاون الداعي بطاعة الله ليس كتهاون غيره لأنه قدوة للناس، فمتى رأوه متهاوناً صاروا مثله أو أشد، لذلك قد يكون الشيء المستحب واجباً في حق الداعي، إذا توقف ظهور السنة على فعله إياه[3].

وقد قال تعالى عن شعيب: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

وقال سبحانه: ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: ٤٤].

وكما ورد من اقتداء الصحابة بالرسول ﷺ وأتباعهم لسنته، ومما ورد في ذلك ما كان في صلح الحديبية، فإن رسول الله ﷺ لما فرغ من قضية الكتاب، قال لأصحابه: (قوموا فانحروا ثم احلقوا) قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد دخل على أم سلمة فذكر لها ما لقى من الناس فقالت أم سلمة يا نبي الله أتحب ذلك، اخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعوا حالقك فيحلقك فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق

---

(١) تقدمت ترجمته ص: ١٥٣.

(٢) النووي على مسلم: ٥/٢٠.

(٣) مقال للشيخ محمد بن صالح العثيمين، في مجلة كليتي الشريعة وأصول الدين بالقصيم، ،دد ٢ سنة ٢، عام ١٤٠١ ـ ١٤٠٢ هـ ص: ١١٦.

بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً[1].

هذه أهم صفات الداعية التي ينبغي أن يتحلى بها حتى ينجح في دعوته ويفوز بما عند الله عز وجل.

وانظر إلى ما ورد عن بعض الدعاة في هذه السورة، فقد ورد ذكر عدد من الأنبياء عليهم السلام وهم الدعاة القدوة في هذه السورة وذكر حالهم مع أقوامهم بإجمال إلا إبراهيم عليه السلام، فقد ورد عنه بعض التفصيل، والأنبياء هم خيرة الدعاة إلى الله حيث بلغوا ما أنزل إليهم من ربهم ونصحوا الأمم فهم قدوة لنا نستنير بدعوتهم ونسير على منهجهم، وكانت دعوتهم متفقة جميعاً على توحيد الله وإخلاص العبادة له دون سواه، كما قال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ولكن يختلف أسلوب دعوتهم حسب طبيعة أقوامهم وما يتطلبه واقعهم فلننظر إلى السورة وما ورد فيها من هذه الأساليب النبوية المباركة.

---

(١) جزء من حديث صلح الحديبية الطويل، انظر تمامه في صحيح البخاري: ٣/ ١٨٢، كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد، مسند أحمد: ٤/٣٢٦ ـ ٣٣١.

الفصل الأول
نوح عليه السلام

ذكر الله عز وجل قصته في هذه السورة بإجمال وإيجاز وتبين منها موقفه مع قومه ولبثه فيهم وموقف قومه منه، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ١٤ ـ ١٥].

وتبين لي من قصة نوح عليه السلام مع قومه عدة فوائد منها:

١ ـ إن نوحاً عليه السلام رسول من عند الله لم يكن مفترياً ولا كاذباً وأنه أول رسول إلى أهل الأرض بعد أن عبدت الأصنام وانتشر الشرك في الأرض، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩].

فأمره قومه بإخلاص العبادة لله وحده يدل على أنهم أشركوا معه غيره.

قال ابن كثير: «إن الفساد لما انتشر في الأرض وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها، بعث الله عبده ورسوله نوحاً عليه السلام يدعوا إلى عبادة الله وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه، فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض»[1] كما ثبت في الصحيحين من حديث الشفاعة، (فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض)[2] الحديث.

---

(١) قصص الأنبياء: ١/١١٦.

(٢) هذا جزء من حديث الشفاعة وهو بتمامه في صحيح البخاري: ٥/٢٢٦ التفسير سورة الإسراء باب ذرية من حملنا مع نوح، سنن الترمذي: ٤/٦٢٢ صفة القيامة، باب ما جاء في الشفاعة، ابن ماجة: ٢/١٤٤٢ زهد باب ذكر الشفاعة.

٢ ـ الفائدة الثانية في قوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وهذا يدل على طول المصابرة في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل، لأن القصة مسوقة لذكر ما ابتلي به نوح عليه السلام من أمته، وما كابده من طول المصابرة.

والصبر من أهم صفات الدعاة إلى الله، فقصة نوح حثا لهم على الصبر، فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حيث ابتلوا بما أصابهم من جهة أممهم من فنون المكارة وصبروا عليها، فهم قدوة للدعاة إلى الله عز وجل، وما أحوج الدعاة إلى الصبر.

ولقد كان نوح عليه السلام مثلاً أعلى في الصبر، والحرص على جلب الخير لقومه، فليعتبر بذلك الدعاة الذين يغلب على نفوسهم اليأس، ولو لم يكن لنوح من الآيات الخلقية سوى هذه الآية لكفته دليلاً على تأييده من ربه وصدقه في دعوته[١].

٣ ـ ومن الفوائد أن نوحاً استعمل جميع أساليب الدعوة مع قومه، حيث أن الله لم يهلكهم إلا بعد ما تبين لهم الحق، وقد أنزل الله سورة في القرآن باسم نوح تبين دعوته لقومه في الليل والنهار والسر والجهر.

قال ابن كثير: «فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة في الليل والنهار والسر والجهار، بالترغيب تارة والترهيب أخرى»[٢].

وقال تعالى عنه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [هود: ٢٨].

قال ابن كثير: «وهذا تلطف في الخطاب معهم وترفق بهم في الدعوة إلى الحق»[٣].

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى: ﴿ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

---

(١) انظر دعوة الرسل إلى الله للعدوى ـ المقدمة (ن).
(٢) قصص الأنبياء لابن كثير: (١/١١٨).
(٣) انظر قصص الأنبياء: ١/١١٩.

أي ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم[1].

وهم أصحاب السفينة الذين قال الله عنهم: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [العنكبوت: ١٥].

وهم الناس الذين آمنوا بعه وغيرهم ممن أمر أن يحمل منهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠].

لذلك ذكر ابن كثير عن جمهور المفسرين أن ارتفاع السفينة ثلاثين ذراعاً، وكانت ثلاث طبقات كل واحدة عشرة أذرع، «فالسفلى للدواب والوحوش، والوسطى للناس، والعليا للطيور، وكان بابها في عرضها، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها»[2].

وكان نوح دعا على قومه فغرقوا ءلا من أمن لا ينافي صبره عليه السلام فإنه لما استقرأ حالهم بطول لبثه فيهم وأتاه الخبر من الله بقوله سبحانه: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود: ٣٦].

٤ ـ كما نستنتج من الآيات أن أصحاب السفينة كانوا قلة بالنسبة لقوم نوح، لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت: ١٤].

فقوله فأخذهم يدل على أنه الغالب من قومه هم الذين كذبوه، وقد نص الله على ذلك في سورة هود: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠].

ويؤخذ من ذلك نجاة المؤمنين من الهلاك ورحمة الله بهم، ونصره لهم مهما

---

(١) انظر قصص الأنبياء: ١/١٢١.

(٢) انظر قصص الأنبياء لابن كثير: ١/١٢٦.

طال الزمن، وتطاول العهد إذا استمروا على ما هم عليه، وقد دلل القرآن على ذلك بآيات وقصص كثيرة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ [الروم: ٤٧].

٥ ـ ومن الفوائد المهمة في الآيات الموجزة: هلاك من حاد عن الصراط المستقيم بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) ﴾ [العنكبوت: ١٤].

والطوفان هو الماء الذي أرسل عليهم[١].

ولم يهلكهم الله إلا حينما استمروا على ظلمهم «وهم ظالمون».

أما من ظلم ثم تاب فإن الله يتوب عليهم ورحمته وسعت كل شيء، فما أرسل الرسل وأنزل الكتب إلا لأجل أن يعود الناس إلى ربهم ويفيئوا إلى رشدهم ليهلك من هلك عن بينة ويحي من حيّ عن بينة.

وأهم النتائج التي تؤخذ من هذه القصة الموجزة:

١ ـ ثبوت رسالة نوح عليه السلام.

٢ ـ صبره في سبيل الدعوة إلى الله عز وجل وتحمله أذى قومه.

٣ ـ جهل قومه وتكبرهم حيث لم يستجيبوا لدعوته المباركة.

٤ ـ هلاكهم وقطع دابرهم.

٥ ـ نجاة المؤمنين بالله عز وجل سواء في الدنيا أو الآخرة.

٦ ـ الاعتبار والإتعاظ بما حصل لهؤلاء والبحث عن سبيل النجاة لمن أرادها.

---

(١) جامع البيان للطبري: ١٣٦/٢٠.

الفصل الثاني

ومن الدعاة في السورة. إبراهيم عليه السلام

لقد تحدث الله في سورة العنكبوت عن الفتنة والابتلاء، ونزلت في وقت كل رسول الله ﷺ، والمؤمنون يلاقون أشد البلاء، وقد بين الله فيها أن الذين من قبلنا فتنوا فكان منهم خليله إبراهيم عليه السلام الذي نحن بصدده، فكان هذا من التفصيل المجمل في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٣].

وكان خليل الرحمن من الصادقين حقاً مع شدة ما ابتلى به من عدم استجابة قومه له حتى أقرب الناس إليه وهو أبوه وما أصابه من الأذى في جنب الله حتى ألقى في النار عليه السلام، وفارق أهله ووطنه، صابراً محتسباً، وهذا من التسلية للرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم وتثبيت أقدامهم على الحق، واستمرارهم في الدعوة إليه.

وفي هذه السورة ذكر الله عز وجل دعوته قومه إلى توحيد الله وما فعل به قومه، وما جازاه الله به من أجر في الدنيا وثواب في الآخرة.

وبداية دعوته إلى التوحيد تدل على أن قومه كانوا أهل شرك ففي غير هذه السورة جادل قومه عن الكواكب وأنها لا تستحق العبادة، وفي هذه السورة جادل قومه: عن فساد عبادة الأصنام وأنها لا تنفع ولا تضر ولا تقي من الله شيئاً.

قال ابن كثير: «والظاهر أن موعظته هذه في الكواكب لأهل حران، فإنهم كانوا يعبدونها..

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام وهم الذين ناظرهم في عبادتها وكسرها عليهم، وأهانها وبين بطلانها[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فأول ما بدأ بقومه هو الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص الدين له ونبذ الشرك ورفضه، وسلك خليل الله أقرب الطرق في المناظرة والمحاجة لإقامة حجة الله ودحض الشرك وباطله وشبهه.

فهو بين أحقية الله في العبادة، وأنه هو المعبود المألوه وحده.

ولكن القوم على سخافة عقولهم وانحرافها عن الصراط المستقيم ظنوا أن هذه المعبودات خيراً لهم من غيرها، لذلك تنزل معهم إبراهيم إلى مستوى عقولهم ليبين لهم أن عبادة الله خير لهم، ولا يعني أن في معبوداتهم خيراً أو أن هناك مقارنة بل لا خير فيها البتة.

ومن المسالك التي سلكها إبراهيم عليه السلام في الدعوة إلى توحيد الله بيان تفاهة ما يعبد من دونه وحقارته، وأنه لا ينفع ولا يضر، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وذكر إبراهيم قومه بأقرب شيء إلى نفوسهم ونبههم عليه وهو (الرزق) وأن هذه المعبودات التافهة لا تستطيع أن تملك وتجلب لكم ما به قوام حياتكم، فما فائدتها، وما جدواها، فما لكم سبيل إلا أن تطلبوا الرزق من الله وحده لا من أحد غيره، وحقه عليكم تجاه هذه النعمة العظيمة أن تعبدوه وتشكروا له، فالمرجع إليه، وسيسألكم عن هذه النعمة، فما جوابكم، وأنتم قد عبدتم غيره، وإبراهيم عليه السلام مع حثه قومه بإخلاص العبادة لله وجههم أنه لا بد مع العبادة من اقتران

---

(١) قصص الأنبياء: ١/١٩٨.

التقوى، فإن العبادة قد تكون لله، ولكن إذا صاحبها خلو من التقوى فلا يمنعه ذلك من انتهاك الحرام إذا خلا به، والتطاول على الناس وظلمهم بقول المصطفى ﷺ: (أتدرون من المفلس، قالوا: المفلس فين من لا درهم ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام ووكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)[1].

فما عمل هذه الأعمال مع أنه يصلي ويصوم إلا لعدم التقوى في قلبه.

وفي ثنايا قصة إبراهيم بين الله تكذيب الأمم وجادلهم بالبعث فقال تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٨ ـ ٢٣].

واختلف المفسرون رحمهم الله هل هي من محاجة إبراهيم لقومه أو أنه خطاب لكفار قريش على لسان محمد ﷺ.

فقال قتادة[2]: وابن جرير: أنه من كلام محمد، واعتراض في قصة إبراهيم.

وقال ابن كثير: والظاهر من السياق أن كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام يحتج عليهم لإثبات المعاد»[3]، وعلى كل الحالين فإن ما ورد من تكذيب

---

(١) تقدم تخريجه في ص: ٢٢٨ من هذا البحث.

(٢) هو: قتادة بن دعامة بن عزيز السدوسي البصري، روى عن أنس بن مالك وسعيد بن المسيب، والحسن البصري، وغيرهم، صدوق، حافظ، عادل مفسر، محدث، ضرير، أكمه ولد سنة ٦٠ هـ وتوفي سنة ١١٢ هـ. سير أعلام النبلاء: ٥/٢٦٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/٦٥٠.

الأمم فإن كان من كلام إبراهيم، فقد كذب قبله قوم شعيب وصالح ونوح وكفى بقوم نوح أمه.

أما بالنسبة للدعوة للإيمان بالبعث فهذا مما اتفقت عليه جميع الشرائع فسواء كان من كلام إبراهيم لقومه فنحن مطالبون بالإيمان به والاعتبار والاتعاظ، أو كان من كلام محمد فإنه دعوة للإيمان بالله وباليوم الآخر وإجمال لمن كذب من الأمم باليوم الآخر بما فصل في غير هذا الموضع.

والقصص ما ذكر في القرآن إلا للعظة والعبرة كما تقدم، مع أن الرسول ﷺ دعى قومه إلى الإيمان بهذا الركن من أركان الإيمان وهو الإيمان باليوم الآخر.

ولكن بعد هذا الحوار وانقطاع الحجة لجأ القوم إلى القوة والمكابرة ودفع الحق بالباطل، قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت: ٢٤].

لقد ضاقوا بإبراهيم ذرعاً حينما دعاهم إلى الله وبين لهم أن آلهتهم لا تدفع عن نفسها ضراً ولا تجلب لها نفعاً حينما كسرها.

قال تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾[الأنبياء: ٥٧، ٥٨].

وهذا دليل عقلي على تفاهة تلك المعبودات.

قال ابن كثير: «وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون وهو ما حل بآلهتهم التي كانوا يعبدونها فلو كانت آلهة لدفعت عن نفسها من أرادها بسوء، لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾»[1] [الأنبياء: ٥٩].

فأخذتهم العزة بالإثم وتآمروا على صاحب هذه الدعوة المباركة، فأجمعوا أمرهم على إحراقه وهذا من أعظم البلاء، ولكن قوة التوكل والاعتماد على الله جعلت إبراهيم يتقبل هذا البلاء بصدر رحب.

قال ابن كثير: «وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة

---

(١) قصص الأنبياء: ١/ ٢٠٢.

وحوطوا حولها ثم أضرموا فيها النار فارتفع لها لهب إلى عنان السماء، ولم توقد نار قط أعظم منها ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه في كفة المنجنيق ثم قذفوه فيها فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وخرج منها سالماً بعد ما مكث فيها أياماً».

ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً فإنه بذل نفسه للرحمن وجسده للنيران، وسخا بولده للقربان، وجعل ماله للضيفان، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان»[1]. أهـ.

فمن قوة توكله واعتماده على الله أنه في حالة تقييدية يقول: (لا إله إلاّ أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك)[2].

وقد ورد أنه قال (حسبنا الله ونعم الوكيل) كما قال ابن عباس رضي الله عنه: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقى في النار، وقالها محمد حينما قيل له: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[3] [آل عمران: ١٧٣].

فإبراهيم لم يمسه أذى من النار، قال ابن عباس وأبو العالية[4]: لولا أن الله قال: «وسلاماً على إبراهيم» لآذى إبراهيم بردها[5].

وفي نجاته من النار آيات لقوم يؤمنون، كما قال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت: ٢٤].

فنجاة إبراهيم فيها من الآيات أن الله خالق الأسباب وقادر على سلبها فهو الذي جعل النار مادة للإحراق، وبقدرته سبحانه سلبها ذلك.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٥٢.
(٢) قصص الأنبياء: ١/ ٢٠٥.
(٣) صحيح البخاري: ٥/ ١٧٢ التفسير آل عمران باب أن الناس قد جمعوا لكم.
(٤) هو: رفيع بن مهران الرياحي البصري، حافظ، مفسر، مقرىء، أدرك زمن النبي ﷺ وهو شاب، وأسلم في خلافة الصديق، ودخل عليه وسمع عن عمر وعلي وعائشة وغيرهم، وقرأ على ابن عباس وعمر، وأبي، وزيد، ت سنة ٩٣ هـ. سير أعلام النبلاء: ٤/ ٢٠٧.
(٥) قصص الأنبياء: ١/ ٢٠٦.

قال الشوكاني: «أي دلالات واضحة وعلامات ظاهرة على عظيم قدرة الله وبديع صنعه، حيث أضرموا تلك النار العظيمة وألقوه فيها ولم تحرقه ولا أثرت فيه أثراً، بل صارت إلى حالة مخالفة لما هو شأن عنصرها من الحرارة والإحراق، وإنما خص المؤمنين لأنهم الذين يعتبرون بآيات الله سبحانه، وأما من عداهم فهم عن ذلك غافلون»[1].

فالآيات لا تملك هداية، وإنما هي أسباب، فمن طبع الله على قلبه فلا تفيده الآيات شيئاً، قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

وإبراهيم عليه السلام لما أظهره الله عز وجل ونصره واتضح التوحيد على يديه لكل من كان له قلب، أراد أن يقرر حقيقة ويعذر إلى الله عز وجل من قومه، فاستمر على دعوته لهم.

قال ابن سعدى[2] بعد ذكر الآيات: «أي لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو قومه وهم مستمرون على عنادهم»[3].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

فبين في هذه الحقائق أن هذه المعبودات من دون الله لم يكن عندهم دليل عليها، ولا حجة لهم فيها، وءنما هي لأجل المودة والصداقة بينكم في هذه الحياة الدنيا، على قراء نصب (مودة)، أما على قراءة رفعها فمعناه إنما اتخاذكم هذا لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط.

---

(١) فتح القدير: ٤/١٩٨.

(٢) هو عبد الرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر آل سعدى الناصري التميمي الحنبلي ولد في عنيزة، حفظ القرآن وهو في الرابعة عشر، جلس للتدريس وعمره ثلاثاً وعشرين سنة، له مؤلفات كثيرة منها: التفسير، وحاشية على الفقه، الدرة المختصرة في محاسن الإسلام، والقواعد الحسان لتفسير القرآن، ت: سنة ١٣٧٦ هـ بعنيزة. مشاهير علماء نجد: ٣٩٤.

(٣) تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦/ ٨٠.

ولكن هذه المودة سرعان ما تزول لزوال هذه الدنيا، فلم تكن مبنية على أساس قوي، وهو الحب في الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

وكما قال ﷺ: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[(٢)].

ولكن هؤلاء القوم ليسوا من هذا الطراز أن مودتهم مبنية على شفا جرف قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: ١٠٩].

لذلك يوم القيامة تنقلب المودة بينهم بغضاً وشنآنا، وينكرون بعضاً «ويتجاحدون ما كان بينهم»، ويلعن الأتباع المتبوعين وبالعكس، قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥] إن مآلكم ومرجعكم إلى الله في يوم القيامة، فيجازيكم على صنيعكم بالنار ولا أحد ينصركم في ذلك الموقف فأين المودة بينكم وأين أصنامكم التي اجتمعتم عليها وصرفتم عقولكم وأبدانكم في خدمتها.

وقوم إبراهيم عليه السلام لم يذكر الله عز وجل أنه أهلكهم بعذاب «بل ذكر

---

(١) سنن أبي داود: ٥/٦٠ السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، واللفظ له. مسند أحمد: ٣/٤٣٨ ـ ٤٤٠، سنن الترمذي: ٤/٦٧٠ صفة القيامة باب ٦٠، وقال: «هذا حديث حسن».

(٢) صحيح البخاري: ١/٩ كتاب الإيمان باب حلاوة الإيمان واللفظ له.
مسلم: ١/٦٦، الإيمان باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان الترمذي: ٥/١٥، الإيمان با ١٠، وابن ماجة، وأحمد، وابن كثير: ٣/٦٥٢.

اعتزاله إياهم وهجرته من بين أظهرهم» «فأما ما يذكر في الإسرائيليات أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض فشرب دمائهم وأكل لحومهم وأتلفهم عن آخرهم فهذا التوقف الجزم به على الدليل الشرعي ولم يوجد، فلو كان الله استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة»[1].

«وقد يكون سبب ذلك أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم وأحلمهم وأجلهم فلم يدع على قومه، ولم يكن الله ليجري عليهم بسببه عذاباً عاماً، ومما يؤيد ذلك أنه راجع الملائكة من إهلاك قوم لوط وجادلهم، ودافع عنهم وهم ليسوا قومه»[2].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود: ٧٤].

قال ابن جرير[3]: «فجادل إبراهيم الملائكة في قوم لوط أن يتركوا»[4].

وقال ابن كثير عند هذه الآية: «وذلك أنه كان يرجو أن يحيبوا أو ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا، ولهذا قال تعالى[5]: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: ٧٥].

ومع أن قوم إبراهيم لم يأتيهم عذاب يستأصلهم في الدنيا إلا أن الله توعدهم بالخسران على لسان خليله عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٧٠].

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/٦٥٢.
(٢) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.
(٣) تقدمت ترجمته في ص: ٤٩.
(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٠/١٤٧.
(٥) قصص الأنبياء: ١/٢٧٥.

وبعد هذا الجانب الهام من حياة إبراهيم في دعوته إلى الله، وصبره وتحمله لم يؤمن به إلا لوط وزوجه سارة، وقد ذكر ابن كثير عن السدى[1] أنه قال: «انطلق إبراهيم ولوط قبل الشام، فلقى إبراهيم سارة ـ وهي ابنة ملك حران ـ وقد طعنت على قومنها في دينهم، فتزوجها على أن لا يغيرها» رواه ابن جرير وهو غريب ثم قال: ثم المشهور أن إبراهيم عليه السلام لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجراً من بلاده[2].

ولوط كان مؤمناً موحداً ولكن لما رأى المعجزة الكبرى آمن لإبراهيم وصدق برسالته، لذلك قال تعالى: ﴿فآمن له﴾.

قال أبو السعود[3] في تفسيره: ﴿فآمن له لوط﴾ صدقه في جميع مقالاته لا في نبوته، وما دى إليه من التوحيد فقط، فإنه كان منزهاً عن الكفر وما قيل إنه آمن له حين رأى النار لم تحرقه ينبغي أن يحمل على ما ذكرنا أو على أن يراد بالإيمان الرتبة العالية منها، وهي التي لا يرتقي إليها إلا همم الأفراد الكمل ولوط هو ابن أخيه عليه السلام[4]». أ هـ.

وقد آمن مع لوط زوجة إبراهيم سارة، وكما ورد في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: منهن في ذات الله عز وجل، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقال بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي، فأتى سارة، قال: (يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك، وأن هذا سألني عنك

---

(١) السدى هو: إساعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة الإمام المفسر أبو محمد الحجازي ثم الكوفي الأعور السدي، أحد موالي قريش، ثقة، حدث عن أنس بن مالك، وابن عباس، وغيرهما، وقيل رأي أبا هريرة، والحسن بن علي، ت سنة ١٢٧ هـ. سير أعلام النبلاء: ٥/ ٢٦٤.

(٢) قصص الأنبياء: ١/ ٢١٣.

(٣) أبو السعود هو: محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، المولى، مفسر، شاعر، ولد بالقسطنطينية، وتولى فيها القضاء، والإفتاء، من كتبه: التفسير، وتحفة الطلاب، ورسالة في المسح على الخفين، وقصة هاروت وماروت، ت ٩٨٢ هـ.
شذرات الذهب: ٨/ ٣٩٨، الأعلام: ٧/ ٥٩.

(٤) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٧/ ٣٧.
وانظر روح المعاني: ٢٠/ ١٥٢.

فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني)[1]. الحديث..

وليس بين الآية ﴿فآمن له لوط﴾ وهذا الحديث تعارض قد يفهم من قوله «وأنه ليس اليوم مسلم غيري وغيرك، ولوط مؤمن بإبراهيم، وكأن المراد من هذا ـ والله أعلم ـ أنه ليس على وجه الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك، فإن لوطاً عليه السلام آمن به من قومه وهاجر معه إلى بلاد الشام»[2].

هجرته عليه السلام:

قال تعالى: ﴿فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي أنه هو العزيز الحكيم﴾ يحتمل عود الضمير على لوط لأنه أقرب مذكورين، ويحتمل عوده إلى إبراهيم، قاله ابن عباس والضحاك[3] وهو المكنى عنه بقوله ﴿فآمن له لوط﴾ أي من قومه[4].

وقد قال غالب المفسرن كقتادة وابن جرير الطبري: «أنهما هاجرا جميعاً».

وعلى كلا الحالين فقد هاجر إبراهيم قيل من كوفى وهي من سواد الكوفة إلى الشام ـ وكانت معه امرأته سارة ـ ولوط[5].

والدليل على هجرته ما ورد عن رسول الله ﷺ يقول: «لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مهاجر أبيكم إبراهيم ﷺ حتى لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها وتلفظهم أرضوهم وتقذرهم روح الرحمن»[6]. الحديث.

ولكن لماذا هاجر إبراهيم؟

---

(١) الحديث بتمامه في صحيح البخاري: ٤/١١٢ الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾ واللفظ له، صحيح مسلم: ٤/١٨٤٠ الفضائل باب من فضائل إبراهيم، أبو داود: ٢/٦٥٩، الطلاق باب في الرجل يقول لامرأته يا أختي، مسند أحمد: ٢/٤٠٣ ـ ٤٠٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/٦٥٣.

(٣) هو الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو محمد وقيل أبو القاسم صاحب التفسير، من أوعية العلم صدوق في نفسه، حدث عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري وابن عمر وأنس وغيرهم، ت سنة ١٠٢ هـ. سير أعلام النبلاء: ٤/٥٩٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/٦٥٣.

(٥) معالم التنزيل للبغوي: ٣/٤٦٥، وانظر البحر المحيط: ٧/١٤٩.

(٦) مسند أحمد: ٢/٨٤، واللفظ له، و ١٩٩، ٢٠٩، سنن أبي داود: ٣/٩، الجهاد باب في سكنى الشام، المستدرك: ٤/٤٨٦، مجمع الزوائد: ٥/٢٥١.

إنه لما آسى من قومه ومن عدم استجابتهم لداعي الله اختار الرحيل عنهم لأن المقام بينهم يقتضي أن يكون راضي عن فعلتهم، أو أن إقامته تكون هواناً ومذلة عليه، لذلك اختار الرحيل ـ فقال: «إني مهاجر إلى ربي» أي أن سبب هجرتي هو لأجل الله لا لأجل أحد سواه، حيث أمرني ربي وحيث أتمكن من عبادته عز وجل، فهجر مكان السوء وتركه، ومطلوب من المؤمن إذا لم يستطع إنكار السوء أن يهجره.

وقد عدد القرطبي[1] أنواع الهجرة، وقال: «إن هجرة إبراهيم خوف الإيذاء في بدنه أهـ[2] ولا أظنه كذلك لأنه لم يهاجر عنهم حينما هموا بإحراقه عليه السلام.

فالذي يظهر لي أن هجرته كانت لأجل إظهار عبادة الله عز وجل، وقد بين عليه السلام أن هذه الهجرة بأمر الله.

قال ابن كثير: ثم أخبر عنه بأنه اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء إظهار الدين والتمكن من ذلك، ولهذا قال: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾[3] [العنكبوت: ٢٦].

فإبراهيم مؤمن بالله وبأسمائه وصفاته فقرن هجرته بعزة الله وحكمته، فالله عزيز قادر على منعكم عني كما أنه قادر على هدايتكم، ولكن حكمته اقتضت أن لا تهتدوا، فله الأمر من قبل ومن بعد.

وهذه الهجرة التي سنها إبراهيم بأمر الله بقيت في أمة محمد ﷺ حينما بعث فهاجر هو وصحابته.

فعن أسماء بنت أبي بكر قالت: هاجر عثمان إلى الحبشة، فقال النبي ﷺ: «إنه أول من هاجر بعد إبراهيم ولوط»[4].

---

(١) هو: محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلس صالح متعبد من كبار المفسرين من كتبه (قمع الحرص بالزهد والقناعة)، والأسني في شرح أسماء الله الحسنى، والتذكار في أفضل الأذكار، كان ورعاً طارحاً للتكلف يمشي بثوب واحد، وعلى رأسه طاقية، ت ٦٧١. الأعلام: ٥/ ٣٢٢.

(٢) انظر الجامع لأحكام القرآن: ٥/ ٣٥٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٥٣.

(٤) الدر المنثور: ٥/ ١٤٤، تاريخ مدينة دمشق، القسم الأول السيرة ص ١٢٥، وذكره الأصبهاني في سير السلف: ٣٧/ ب، والطبراني في الكبير: ١/ ٩٠.

وتقدم الكلام على الهجرة وأنها عبادة من العبادات.

وبعد ما بين الله عز وجل دعوة إبراهيم لقومه وأذاهم له وصبره عليهم وحملهم عنهم، ومفارقة وطنه لأجل أمر الله، وعبادته جزاه اا بأحسن الجزاء عاجلاً وآجلاً، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وهذه سنة الله في خلقه أن يجزي المحسن على إحسانه، أما في الدنيا أو في الآخرة وهو الغالب، وإبراهيم عليه السلام جمع الله له بين الآيتين.

قال ابن كثير: «لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي وولد له ولد صالح نبي في حياة جده»[١].

وقال السدي[٢]: «إن المقصود بأجره في الدنيا هو الولد الصالح»[٣].

وذكر إسحاق وعقبة ولم يذكر إسماعل لشهرة أمره وعلو قدره، وهما المقصودان في البشرى بقوله تعالى: ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾، وقد دل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١]، فيعقوب ولد إسحاق[٤].

وقوله: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة﴾ هو نسله إسحاق ويعقوب وأنبياء بني إسرائيل وإسماعيل وخاتهم وهو محمد ﷺ.

وقد يرد سؤال على هذا، وهو أن لوطاً عليه السلام أرسل وهو ليس من ذرية إبراهيم، قيل إن المراد: النبوة من بعده أي ليس في زمنه أو أن هذا هو الغالب أن النبوة تكون في ذريته، أو لأن لوط آمن بإبراهيم وصدقه، فآصرة الدين أقوي من آصرة النسب. والثاني هو الراجح عندي.

= وفي مجمع الزوائد: ٩/ ٨١. مسند أبي يعلى.

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٥٥.

(٢) تقدمت ترجمته في ص: ٢٧٧.

(٣) معالم التنزيل للبغوي: ٣/ ٤٦٥.

(٤) انظر ابن كثير: ٣/ ٦٥٥، وانظر فتح القدير: ٤/ ٢٠١.

«والمقصود بالكتاب جنس الكتاب فيدخل فيه التوراة والزبور والإنجيل والقرآن»[1].

قال ابن كثير: «هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً، وجعله للناس إماماً، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب.

فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته[2].

وقال تعالى عما أتاه الله لخليله عليه السلام: ﴿وآتيناه أجره في الدنيا وأنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهنيء، والمنزل الرحب، والمورد العذب، والزوجة الحسنة، الصالحة، والثناء الجميل، والذكر الحسن، وكل أحد يحبه ويتولاه، كما قال ابن عباس، ومجاهد[3] وقتادة[4] وغيرهم مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه[5]، قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النجم: ٣٧].

ومما تقدم عن السدي أنه أخره في الدنيا الأولاد.

وأخبره الله تعالى باستمرار النبوة فيهم، وذلك مما تقر به عينه ويزداد به سروره.

وأخبر بفلاحه في الآخرة بقوله سبحانه: ﴿وإنه في الآخرة من الصالحين﴾ أي الكاملين في الصلاح المستحقين لتوفير الأجـر وكثرة العطاء من الرب سبحانه وتعالى»[6].

وذكر الله عز وجل لنا ذلك «حثا على الاقتداء بإبراهيم في الصبر على الدين الحق»[7].

---

(١) انظر البحر المحيط: ٧/ ١٤٩، والكشاف: ٣/ ١٨٩.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٥٥.
(٣) تقدمت ترجمته ص: ٢٠٣.
(٤) تقدمت ترجمته ص: ٢٧١.
(٥) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٥٥.
(٦) انظر فتح القدير: ٣/ ١٩٩.
(٧) أحكام القرآن للقرطبي: ١٣/ ٣٤٠.

الفصل الثالث

لوط عليه السلام

تقدم في قصة إبراهيم أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوطاً، وهو ابن أخته[1].

وذكر ابن كثير أنه ابن أخيه، «وهاجر معه من كوثى وهي من سواد من الكوفة إلى الشام»[2].

ثم أن لوطاً عليه السلام نزح بما له من الأموال الحزيلة بأمر الخليل له في ذلك إلى أرض الغور المعروف (بغور زغر) فنزل بمدينة سدوم، وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان، وكان أهلها أشراراً كفارا[3].

وقد بين الله في هذه السورة دعوته باختصار وصبره عليها، وتبين فيها صبر نبيه على البلاء والفتنة، كما أن قومه على العكس من ذلك.

ومعلوم أن كل نبي يبدأ دعوته بالتوحيد لله عز وجل والبراءة من الشرك، إلا أن لوطاً في هذه السورة بدأ دعوته بالنهي عن الفاحشة ولم يذكر الله عز وجل أنه دعا قومه إلى التوحيد، فما السر في ذلك؟.

أقول: قد بين الله سبحانه في غير هذه السورة أنه قام بهذا الواجب، قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الشعراء: ١٦١].

وصدق الله حيث يقول: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣٣٩.

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢٠/ ١٤٢.

(٣) انظر قصص الأنبياء: ١/ ٢١٩.

ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

ولكن لوطاً عليه السلام ركز على النهي عن الفاحشة التي انتشرت بين قومه، لأنها ما انتشرت هذه الشناعة إلا لعدم إيمانهم بالله وحكمته الذي جعل للحرث مكاناً، فكما أن للصلاح درجات كذلك للفساد درجات، فأولها أن يلم بالرذيلة، وهو يشعر بقبحها ويلوم نفسه عليها، وبعدها: أن يعاود إليها المرة بعد المرة مستخفياً، ويليها: «أن يصر عليها حتى يزول شعوره بقبحها، والرابعة: «أن يجهر بها ويكون قدوة سيئة» وأحطها: أن يفاخر بها أهلها ويحتقر من يتنزهون عنها، وهذه هي التي وصل إليها قوم لوط، ولا يصل إليها من يؤمن بالله واليوم الآخر[1] حيث أن الله وصف الذين تقبل توبتهم بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: ١٧].

فدل هذا على أنهم لا يؤمنون بالله، وأنهم يعبدون أهوائهم وشهوات نفوسهم لاستحلالهم ما حرم الله.

وقال في البحر المحيط: «ولم يأت في قصة لوط أنه دعا قومه إلى عبادة الله كما جاء في قصة إبراهيم وقصة شعيب لأن لوطاً كان من قوم إبراهيم وفي زمانه وسبقه إبراهيم إلى الدعاء لعبادة الله وتوحيده واشتهر أمره بذلك عند الخلق وسبقه إبراهيم إلى الدعاء لعبادة الله وتوحيده واشتهر أمره بذلك عند الخلق، فذكر لوط ما اختص به من المنع عن الفحشاء وغيرها، وأما إبراهيم وشعيب فجاءا بعد انقراض من كان يعبد الله، فلذلك دعوا إلى عبادة الله»[2].

أقول: ولا يعني ذلك أنه لم يدعو إلى التوحيد، فقد تقدم أنه دعا إلى التوحيد، ولكن بما أنه آمن بإبراهيم وصدقه فهو بلا شك سيدعوا إلى ما يدعو إليه ولكنه اختص بالنهي عن الفاحشة التي انتشرت في قومه دون غيرهم، لأنهم عبدوها وشرعوها ديناً من عند أنفسهم من دون الله، ولما كانت عقيدة التوحيد واضحة لديهم ذكرهم بها وأمرهم أنه يتجهوا إليها وينجوا بأنفسهم ولن ينجوا حتى يتركوا

(١) انظر دعوة الرسل إلى الله تعالى، محمد أحمد العدوي: ص ٦٦.
(٢) البحر المحيط: ٧ / ١٤٩.

شهوات أنفسهم وأهوائهم التي أعمت قلوبهم كما قال تعالى عنهم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر: ٧٢].

وهذه الفاحشة خطر عظيم على الأمة فهي سبب لانقراض النوع الإنسان وتقليل نسل الأمة وزوال الأخلاق وفساد المجتمع، وانتشار الأوبئة والأمراض الفتاكة، هذا وهي مجرد كونها فاحشة فكيف إذا صاحبها استحلال وتكذيب رسل الله ومخالفة دليل الفطرة، والمسلم لا ينظر إلى ما نشر وينشر مما ينتجه هذا الداء العضال من أمراض خبيثة، ولكن حسبه أنه مخالفة صريحة لأمر الله وترك الحرث الذي شرعه الله وتعرض لعقاب الله وأليم عذابه، كما قال تعالى حينما ذكر ما حل بقوم لوط، قال سبحانه: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ [هود: ٨٣].

وقد قال ﷺ: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[(١)].

وما ذلك إلا لشناعة هذا العمل، فانتشار هذا الوباء علناً بين أفراد الأمة يدل على انسلاخ الإيمان من قلوبهم، قال ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[(٢)].

كما أنه أمر منافي للأخلاق وطبائع النفوس، هم صاحبة قضاء شهوته ولذته ولا يسأل عن النتائج الدنيوية والأخروية منهمكاً فيه دون حياء أو خجل، وهذا واضح من قصة قوم لوط حيث كانوا يقطعون السبيل لأجلها ويريدون أن يعتدون على ضيوف نبيهم ليقضوا شهوتهم، ومع فعلهم هذا. قد جمعوا منكرات عظيمة كما قال تعالى عنهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي

---

(١) سنن أبي داود: ٤/٦٠٧ حدود باب فيمن عمل عمل قوم لوط.
سنن الترمذي: ٤/٥٧ حدود باب ما جاء في حد اللوطي.
سنن ابن ماجة: ٢/٨٥٦ باب من عمل عمل قوم لوط.
سنن الدارقطني: ٣/١٢٤ الحدود، الحاكم: ٤/٣٥٥، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وبنحوه في مسند أحمد: ١/٣٠٠.

(٢) صحيح البخاري: ٤/١٥٢، الأنبياء: ٥٤، واللفظ له. سنن أبي داود: ٥/١٤٨، الأدب باب في الحياء، ابن ماجة: ٢/١٤٠٠، الزهد باب الحياء، مسند أحمد: ٤/١٢١، ١٢٢، ٢٧٣.

نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

فهم جمعوا مع الفاحشة السبق إليها، فعن عمرو بن دينار[(١)]: «ما نزل ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط»[(٢)] أهـ مع قطعهم السبيل بإتيانهم من يمر على ديارهم حتى ولما وقفهم نبي الله لوط على هذه النتائج والفضائح ودعاهم إلى الاستقامة لم يكن ردهم إلا إلجاج والتكذيب والعناد ـ لتمكن هذا المرض من سويداء قلوبهم.

ولكن لوطاً كان صابراً في دعوتهم مشفقاً عليهم مكرراً النهي لهم والوعيد عليهم يدل على ذلك ردودهم عليه المختلفة فكان من جوابهم كما ذكر الله في الأعراف، إن قالوا: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٨٢﴾ [الأعراف: ٨٢].

وقوله سبحانه عنهم في النمل: ﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ۝٥٦ فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ [النمل: ٥٦].

كذلك ردهم عليه في هذه السورة وتكذيبهم لوعيد الله حيث أنه كان يقول لهم أن الله يعذب على هذه الفعلة وهم يقولون أنه لا يعذب ولا يصدقون بعذاب الله أصلاً، فلما ألح عليهم قالوا: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٩﴾ [العنكبوت: ٢٩].

وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ولهذا استنصر عليهم نبي الله[(٣)] لما علم منهم ما علم من عدم استجابتهم له وخبث طويتهم وتغلغل الشر فيهم والرسول لا يدعوا على قومه إلا إذا يأتي منهم ومن استجابتهم وأن عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا

---

(١) عمرو بن دينار الجمحي مولاهم المكي الأثرم ولد سنة ٤٥ هـ، وسمع من ابن عباس وجابر بن عبدالله وابن عمر، وأنس بن مالك، وغيرهم، حالظ، مقدم، مجتهد، ت سنة ١٢٦ هـ. سير أعلام النبلاء: ٥/ ٣٠٠.

(٢) جامع البيان للطبري: ٢٠/ ١٤٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٥٦.

كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ [نوح: ٢٧].

ولجوء لوط إلى ربه بالدعاء والتضرع يقطع دابر الفساد يدل على توكل لوط على ربه واعتماده عليه وعبوديته له لعلمه أنه لا ناصر إلا الله سبحانه وتعالى مهما تعددت الأسباب فسببها هو الله سبحانه وتعالى، فقال تعالى عنه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

فلما سمع الله سبحانه دعائه استجاب لدعوته وأجابه إلى طلبه.

وعندما جاء الهلاك وصلت الفتنة للفريقين ذراها، فريق الصابرين المخلصين وهم لوط ومن معه، وفريق الفجرة المعاندين وهم قومه.

ولما جاءت بوادر القضاء على الفساد وقطع دابره لم يكن لوط يعلم بها لأول وهلة فاستمر بدعوة قومه ودفاعه عمن ظنهم من البشر وهم أضيافه وكانوا في مجيئهم فتنة للفريقين، وذلك بأن كان هؤلاء الأضياف ملائكة قيل هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل[1]، فأتوا أولاً لإبراهيم وبشروه وأخبروه بمهمتهم كما تقدم في دعوة إبراهيم ص ٣٦٠، ثم أتوا إلى لوط على هيئة شباب حسان[2]، فاغتر لهذه البلية العظيمة لما يعلم من افتتان قومه بالفاحشة فخاف على ضيوفه. لم يتركوا ضيوف لوط كما كانوا يأتون في مجالسهم، والمنكر قيل إنه الظراط، وقيل إتيان الفاحشة في مجالسهم، وقيل الخذف بمن مر بهم لما ثبت عن رسول الله ﷺ حينما سألته أم هانىء عن هذه الآية، قال: (كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم)[3].

قال ابن كثير: «وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ويأتون في ناديهم ـ وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم ـ المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه حتى قيل إنهم كانوا يتظارطون في مجالسهم ولا يستحون من مجالسيهم، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون»[4].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ١/ ٢٧٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٥٧.
(٣) انظر جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢٠/ ١٤٥.
(٤) قصص الأنبياء: ١/ ٢٧٤.

وروى عن ابن عباس أنه قال: «إن قوم لوط كانت فيهم ذنوب غير الفاحشة، منها أنهم يتظالمون فيما بينهم ويشتم بعضهم بعضاً، ويتظارطون في مجالسهم ويخذفون ويلعبون بالنرد، والشطرنج، ويلبسون المصبغات[1] ويتنافرون بالديكة ويتناطحون بالكباش ويطرفو[2] بالحناء وتتشبه الرجال بلباس النساء، والنساء بلباس الرجال، ويضربون المكوس عى كل عابر، ومع هذا كله كانوا يشركون بالله، وهم أول من ظهر على أيديهم اللوطية والسحاق»[3].

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٢٩] أي اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة»[4].

قال ابن كثير: وذكر قتادة[5] أنهم وردوا عليه وهو في أرض له يعمل فيها فتضيفوه فاستحيا منهم، وانطلق أمامهم وجعل يعرض لهم في الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون في غيرها، فقال لهم فيما قال: «والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلاً، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات قال: وكانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

قال السدي[6]: «خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فأتوها نصف النهار، فلما بلغوا سدوم لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها، وكانت له ابنتان: اسم الكبـرى (ريثا)، والصغرى (زغرتا)، فقالوا لها: يا جارية، هل من منزل؟، فقالت لهم: نعم مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، فرقت[7] عليهم من قومها فأتت أباها فقالت: يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هي

---

(١) أي الثياب المصبوغة بالصبغ أو العصفر، وغير ذلك، لسان العرب: ٨/٤٣٧ صبغ.
(٢) أي يصبغون أطراف أصابعم بالحناء، يقال: طرفت الجارية بنانها إذا خضبت أطراف أصابها بالحناء)، لسان العرب: ٩/٢١٧ طرف.
(٣) أحكام القرآن للقرطبي: ١٣/٣٤٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم: ٣/٦٥٧.
(٥) تقدمت ترجمته في ص: ٢٧١.
(٦) تقدمت ترجمته في ص: ٢٧٧.
(٧) الفرق بالفتح الخوف والجزع. لسان العرب: ١٠/٣٠٥ ـ فرق.

أحسن منهم، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً فقالوا: خل عنا فالتصف الرجال[1].

فجاء بهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت، فخرجت امرأته فأخبرت، قومها، فقالت: إن في بيت لوط رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود: ٧٧].

فأي بلية أعظم من هذه البلية، التي نزلت عليه حتى قال: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود: ٧٧] أي شديد بلاؤه، ولكن لوطاً عليه السلام لا زال صابراً متحسباً قائماً بحق الضيافة، فلما جاءه القوم يريدون ضيوفه دافع عنهم، وكان من دفاعه حينما جاءه قومه ما قصة الله علينا في سورة الحجر، فقال سبحانه؛ ﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون، واتقوا الله ولا تخزون﴾، فرد عليه القوم أن قالوا له: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الحجر: ٧٠].

ففدى ضيوفه ببناته بالتزويج، والمقصود بهن نسائهم لأنهن بناته شرعاً لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد، لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب: ٦].

وفي بعض القراءات: «وهو أب لهم» وقوله ﴿هن أطهر لكم﴾ أي بالتزويج[2].

قال مجاهد[3]: «لم يكن بناته، ولكن كن من أمته وكل نبي أبو أمته، وروى ذلك عن قتادة[4] وغيره[5].

---

(١) قصص الأنبياء: ١/ ٢٧٦.
(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن: ١٢/ ٨٤ ـ ٨٥.
(٣) تقدمت ترجمته في ص: ٢٠٣.
(٤) تقدمت ترجمته ص: ٢٧١.
(٥) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٧٠١.

قال ابن كثير: «ذكر المفسرون وغيرهم أن نبي الله لوط عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباء، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال ما قال: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود: ١١]. لأحللت بكم النكال»[1].

فلما لم ينتهوا عن فسوقهم ولم يصبروا في المحنة والابتلاء حينما علموا بالضيوف الحسان، أرسل الله عليهم عذابه الذي لا يرد، فذكر أن جبريل عليه السلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه، فطمست أعينهم حتى قيل أنها غارت بالكلية، ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن، ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شأن[2] أ. هـ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ [القمر: ٣٧ ـ ٣٨]. فنزل بهم عند ذلك العذاب قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣٤]. وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم، وبعد ذلك أرسل عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد.

وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد[3].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥].

كما أخبر الله بهلاكهم وجميع من خالف أمر الله، فقال سبحانه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟

---

(١) قصص الأنبياء: ١/٢٧٩ ـ ٢٨٠.
(٢) قصص الأنبياء: ١/٢٨٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/٦٥٧.

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وهم قوم لوط الذين أمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود والعرب تسمى الريح العاصف التي فيها الحصى الصغار أو الثلج والبرد والجليد حاصباً»[١].

فصارت هذه عبرة وعظة، وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه ودليلاً على رحمته بالمؤمنين في إنجائه إياهم من المهلكات وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور.

والله تركها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة وخشي الرحمن بالغيب وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فانزجر عن محارم الله، وترك معاصيه وخاف أن يشابه قوم لوط[٢].

وليس هذا ببعيد عن بعض المجتمعات التي لا تدين لله، لا تحد فيها إلا التميع والانحلال، واتخاذ الأخدان من الرجال، والاعتداء على الأطفال جنسياً، مما ينشر في الجرائد والمجلات، وقد نشرت جريدة العالم الإسلامي[٣] هذا الخبر:

«أوضحت إحصائية صدرت عن جمعية تهتم بالأطفال في بريطانيا أن واحد من كل ستة أطفال موجودين في رعاية الجمعيات الاجتماعية في البلاد، معرض للاعتداء الجنسي، وأن ٥١٠٠ طفل من ٣٩ ألف طفل يعانون من خطر الاعتداء الجنسي وهذا يحصل على أيدي المربين الذين يخونون الأمانة» أهـ.

وقد أباحت محكمة الجنايات الكندية تعاشر الذكور معاشرة الأزواج، واعتبرت ذلك علاقة مشروعة وقد احتفل ٢٥٠٠ ألفان وخمسمائة شخص في تورنتو بمناسبة مرور الذكرى العشرين لإنشاء حركة تحرير الوطنيين[٤].

فأين هم من هذه العبرة والعظة التي قال الله عنها: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢٠/ ١٥٠.

(٢) قصص الأنبياء: ١/ ٢٧٤.

(٣) أخبار العالم الإسلامي تصدر عن رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، السنة ٢٤، العدد ١١١٧، ص ١.

(٤) نفس المصدر، عدد ١١٣٩، ص ٤.

مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٣]. -

وقد جعل الله عقوبتهم عبرة وعظة في طريق مسلوك معروف[1] كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الحجر: ٧٦].

وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات: ١٣٧ - ١٣٨].

ومن الآيات والعبر في هذه القصة أن القرابة والنسب لا تنفع صاحبها بدون الدين والتعبد لله وحده إذ لو كانت تنفع لنفعت امرأة لوط حيث كانت من أقرب الناس إليه وألصقهم به، ولكنها هلكت مع الهالكين لمخالفتها أمر العزيز الحكيم، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣٣].

ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال إنها خرجت مع زوجها وبنتيها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة التفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديماً وحديثاً، وقالت: «واقوماه، فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم، وكانت عيناً لهم على من يكون عند لوط من الضيفان»[2] فانظر كيف يهلك الظالم من بين الناجين.

---

(١) قصص الأنبياء: ١/ ٢٨٢.
(٢) قصص الأنبياء: ١/ ٢٨٢.

الفصل الرابع

شعيب وقومه

بين الله لنا في هذه السورة أمر شعيب مع قومه جينما وجدهم على غير هدى من إشراكهم بالله وبخسهم حقوق الناس، وكان موقفهم منه الاستهزاء والسخرية، وقبل البدء في إيراد القصة وما فيها من العبر أريد أن أنبه أنه مر في قصة إبراهيم عليه السلام أن كل الأنبياء بعده من عقبة وكان لوط ليس من عقبة وبينت ذلك.

أما شعيب فقد قال عطاء[1] وابن إسحاق[2] وغيرهما أن نسبه يرجع إلى إبراهيم، فهو من عقبة[3] لأن مدين من سلالة إبراهيم عليه السلام[4]، وإن لم يكن عقبة فإن النبوة في ذرية إبراهيم على الأغلب.

وشعيب يقال «إنه خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته، وحزالة عظته»[5].

وهذه صفة مميزة للدعاة إلى الله عز وجل ينبغي أن يحرصوا عليها ليبلغوا دعوة ربهم إلى من يدعونهم على الوجه المطلوب.

وقد كان أول ما دعى قومه إليه هو عبادة الله جل وعلا كما قال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى

---

(١) هو عطاء بن أبي رباح قيل اسمه أسلم أبو محمد القرشي مولاهم المكي، حدث عن عائشة وأبي هريرة وابن عباس وحكيم بن حزام وغيرهم، كان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث عالماً بمناسك الحج، ت ١١٥ هـ. سير أعلام النبلاء: ٥/ ٧٨.

(٢) هو محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار أبو عبدالله القرشي المطلبي، صاحب السيرة، روى عن أنس، وسعيد بن المسيب، روى له مسلم في المتابعات، واستشهد به البخاري، ت ١٥٢ هـ. سير أعلام النبلاء: ٧/ ٣٣.

(٣) معالم التنزيل للبغوي: ٢/ ١٨٠، انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٧/ ٢٤٨.

(٤) جامع البيان للطبري: ٨/ ٢٣٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٧٠، وقصص الأنبياء: ١/ ٢٨٩، معالم التنزيل للبغوي: ٢/ ١٨٠.

﴿ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦﴾ [العنكبوت: ٣٦].

فكان أول ما دعاهم إليه هو التوحيد وقد حصل بينه وبينهم جدال فقد جادلهم ووعظهم في الله كما قصه الله علينا في سورة الأعراف، وهود، والشعراء، وغيرها فمن جداله لهم في سورة الأعراف قوله سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ [هود: ٨٤].

فبدؤه عليه السلام بالتوحيد يدل على تغلغل الشرك في قومه، وأعراضهم عن الله مع ما نصبه الله عز وجل لهم من الأدلة والبراهين الواضحة وكذلك البينة التي جاءهم نبيهم بها.

ومما دعى شعيب قومه إليه هو الإيمان باليوم الآخر، كما في الآية الأولى من الصفحة يقول: «أرجو بعبادتكم إياه جزاء اليوم الآخر، وذلك يوم القيامة»(١)، وبلا شك أن من آمن باليوم الآخر وما فيه من عرض وحساب وجزاء فإنه سيعمل ما يرضي الذي قدر هذا اليوم وأمر للإيمان به.

لذلك عقب شعيب بعده بالنهي عن الفساد في الأرض بقوله: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦﴾ [العنكبوت: ٣٦]. لأن من أفسد في هذه الحياة الدنيا وأقام على معصية الله فإنه لا يرجوا ما عند الله ولا يطمع بجنته ولم يخف من ناره.

ومن الفساد الذي اشتهر عن قوم شعيب ما قصه الله علينا في الأعراف حيث قال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ

---

(١) انظر جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢٠/١٤٨.

غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٨٥، ٨٦].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: ٨٤، ٨٥].

ففي هذه الآيات بين الله أنواع المفاسد التي نهى شعيب قومه عنها فبعدما خصصها عمم على جميع الفساد في الأرض وأنه مما نهى الله عنه.

قال القرطبي[1]: «وهو لفظ يعم دقيق الفساد وجليله».

قال ابن عباس: «كانت الأرض قبل أن يبعث الله شعيباً رسولاً يعمل فيها بالمعاصي وتستحل فيها المحارم وتسفك فيها الدماء، قال: فذلك فسادها فلما بعث الله شعيباً، ودعاهم إلى الله صلحت الأرض وكل نبي بعث إلى قومه فهو صلاحهم»[2] أهـ.

قال ابن جرير[3]: يقول ولا تعملوا في أرض الله بمعاصيه وما كنتم تعملونه قبل أن يبعث الله إليكم نبيه من عبادة غير الله والإشراك به وبخس الناس في الكيل[4] والوزن» أهـ.

قال ابن كثير: «وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك، حولها غيضة[5] ملتفة بها، وكانوا من

---

(١) تقدمت ترجمته ص: ٢٧٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٧/٢٤٨.
(٣) تقدمت ترجمته ص: ٤٩.
(٤) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٨/٢٣٨.
(٥) الغيضة جمع غياض، وهي الشجر الملتف ويطلق على مغيض الماء الذي ينبت فيه الشجر. لسان العرب: ٧/٢٠٢ غيض.

أسوأ الناس معاملة يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيهما يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص»[1] اهـ.

فأرسل الله إليهم نبيه شعيب وهو منهم نسباً كما قال سبحانه: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ فأخوته فيهم أخوة نسب، فوعظهم بالله ورغبهم ورهبهم، وذكرهم بمن قبلهم من الأمم.

كما قال سبحانه عنه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: ٨٩] إلى غير ذلك من الأساليب التي سلكها معهم مما بينه الله في كتابه.

ولكن القوم لم يرعووا ولم يفيقوا مما هم فيه من الغطرسة والتكبر والتجبر في الأرض بإفسادها والاعتداء على أهلها، فكان ردهم لنبي الله رداً شنيعاً حيث كذبوه وجادلوه بالحجج الواهية والتنقص والاستهزاء التي قصها الله علينا في الأعراف وهود والشعراء فكان عاقبتهم الهلاك والدمار، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، كما في العنكبوت والأعراف، وفي هود قال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: ٩٤].

وفي سورة الشعراء: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩].

قال ابن كثير: «وقد جمع عليهم أنواعاً من العقوبات وصنوفاً من المثلات وأشكالاً من البليات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات وظله أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات، ولكنه تعالى أخبر عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها»[2] أهـ.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير: ١/٢٨٩.

(٢) قصص الأنبياء: ١/٢٩٨.

الفصل الخامس

دعوة محمد ﷺ

لقد كان الحديث في أول السورة عن الابتلاء والفتنة، وأن الإيمان الحقيقي لا يتحقق إلا بالصبر عليها ولمجاهدة في الله عز وجل وكان خير من صبر وامتثل وجاهد هو رسولنا ﷺ.

وقد ورد في هذه السورة ما يدل على أمره بالدعوة ﷺ حيث قال تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فتلاوة الكتاب تتضمن تلاوة لفظه والعمل بأحكامه والدعوة إليه.

قال ابن كثير: «ثم قال تعالى آمراً رسوله والمؤمنون بتلاوة القرآن وهو تلاوته وإبلاغه للناس»[1]. فمعنى تلاوته أتباعه بامتثال ما يأمر به واجتناب ما ينهى عنه والاهتداء بهداه وتصديق أخباره وتدبر معانيه وتلاوة ألفاظه.. فإقامة الدين من تلاوة الكتاب ومن ذلك إقامة الصلاة وذكر الله، فهذا من عطف الخاص على العام[2].

وقد امتثل ﷺ، فقام بالدعوة خير قيام، فامتثاله ﷺ من باب الدعوة بالقدوة الحسنة، فقد كان قدوة للناس ﷺ بالعمل بما يأمره الله عز وجل به كيف لا وقد «كان خلقه القرآن»[3].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٦٠.

(٢) انظر تيسير الكريم الرحمن: ٦/ ٩١.

(٣) إشارة إلى جزء من حديث طويل عن عائشة في صحيح مسلم: ١/ ٥١٢، صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل، طبقات ابن سعد: ١/ ٣٦٤، مستدرك الحاكم: ٢/ ٣٩٢، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه مسند أحمد: ٦/ ٩١ ـ ١٦٣، سنن أبي داود: ٨٨٢، الصلاة باب في صلاة الليل.

وقد ثبت عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (كان النبي ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي يتأول القرآن)[1].

وقد قال الله عز وجل عنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

ومن امتثاله ﷺ لأمر الله عز وجل قيامه بالدعوة إليه حينما أمر بذلك، «فقد جاهد في الله حق جهاده وشرع في ذلك من حين بعث إلى أن توفاه الله عز وجل، فإنه لما نزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ [المدثر: ١ ـ ٤] شمر عن ساق الدعوة وقام في ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، ولما نزل عليه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر: ٩٤]. صدع بأمر الله لا تأخذ في الله لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجن والإنس»[2].

وقد كانت الدعوة سرية في بداية أمرها إلى ثلاث سنوات من مبعثه ﷺ، ثم أمر بالجهر بالدعوة، فامتثل ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزل ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صعد النبي ﷺ الصفا فجعل ينادي: (يا بني فهر يا بني عدي ـ لبطون قريش ـ حتى اجتمعوا فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاءه أبو لهب وقريش، فقال النبي ﷺ: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي، قالوا: ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا، فنزل قول الله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد: ١ ـ ٢])[3].

---

(١) صحيح البخاري: ١/١٩٩ الأذان باب التسبيح والدعاء في السجود، والتفسير: ٦/٩٣ ـ سورة ﴿إذا جاء نصر الله﴾، صحيح مسلم: ١/٣٥٠ الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود، سنن أبي داود: ١/٥٤٦ الصلاة باب في الدعاء في الركوع والسجود، سنن ابن ماجة: ١/٢٨٧ إقامة الصلاة.

(٢) زاد المعاد في هدى خير العباد: ٣/١٢.

(٣) صحيح البخاري: ٦/١٦ التفسير سورة الشعراء، واللفظ له.

وبنحوه في صحيح مسلم: ١/١٩٢ الإيمان باب قوله تعالى: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾، مسند أحمد: ١/٣٠٧.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فقال: (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا غني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغنى عنك من الله شيئاً)[1].

فهذان النصان وغيرهما تدل على قيام المصطفى ﷺ بالدعوة وإخلاصه فيها، وبدأه بمن أمر الله بالبدأ بهم، وهم أقاربه كما قال سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وقد بدأ بأهم شيء وهو التوحيد والإخلاص لله عز وجل بقوله؛ اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئاً).

ولكن هذا النداء منه ﷺ خالف ما اعتاد عليه القوم وهو لم يجاملهم لقرابتهم أو لسبب آخر، ومعظمهم أحس بأن هذا خطر عليه وعلى مركزه بين الناس[2].

فنابذ رسول الله ﷺ العداء، ومن أسلم معه وهذا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ١، ٢].

فقد فتن الرسول ﷺ في دينه وأهله.

قال ابن إسحاق[3]: «ثم أن قريشاً اشتد أمرهم للشقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله ﷺ ومن أسلم معه منهم فأغروا برسول الله ﷺ سفهاءهم فكذبوه وآذوه ورموه بالشعر والسحر والكهانة والجنون ورسول الله ﷺ مظهر لأمر الله لا يستخفي به مبادلهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم وفراقه إياهم على كفرهم»[4].

---

(١) تقدم تخريجه ص: ٢٣٣.

(٢) كما تقدم بيان ذلك عند الكلام عن امتناع بعض الكفار عن إجابة محمد ﷺ في ص: ٢٥٨ من هذا البحث.

(٣) صاحب السيرة، تقدمت ترجمته ص: ٢٩٢.

(٤) السيرة النبوية: ١/٣٠٨.

ومع ذلك هو مستمر على دعوته، وقد حدث ﷺ عن بعض ما لقى من قومه.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد، قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي علي ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال: يا محمد، فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»[1].

وقد بين الله عز وجل هذا الإيذاء في كتابه الكريم بعدة آيات منها قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ [الحجر: ٦].

والرسول مستمر في دعوته مع تكذيب قومه له، فعن ربيعة[2] بن عباد الديلي وكان جاهلياً قد أسلم قال: رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذى المجاز يقول: (يا أيها الناس قولوا لا إله إلاّ الله تفلحوا)، ويدخل في فجاجها والناس متقصفون[3] عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً وهو لا يسكت يقول: (أيها الناس قولوا لا إله إلاّ الله تلفحوا)، إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه ذا غديرتين[4] يقول إنه صابىء كاذب، فقلت: من هذا، قالوا: عمه أبو لهب، قلت[5]: إنك

---

(١) صحيح البخاري: ٨٣/٤ بدأ الخلق باب إذا قال أحدكم: آمين. واللفظ له. صحيح مسلم: ١٤٢٠/٣ الجهاد باب ما لقى النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين.

(٢) وهو من بني الديلي بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، مدني، روى عنه ابن المنكدر وأبو الزناد، وزيد بن أسلم، عمر طويلاً، توفي بالمدينة أيام الوليد بن عبد الملك. أسد الغابة: ٦١/٢، الإصابة: ٤٦٩/٢.

(٣) القصف الكسر والدفع الشديد لفرط الزحام، وانقصفوا عليه أي تتابعوا. لسان العرب: ٢٨٣/٩ - ٢٨٤ ـ قصف ـ.

(٤) الغدائر، الذوائب، وأحدتها غديرة، وقيل كل عقيصة غديرة، لسان العرب: ١٠/٥ غدر.

(٥) أي الراوي عنه وهو أبي الزناد كما في المسند.

كنت يومئذ صغيراً، قال: لا والله إني يومئذ لأعقل»[1].

وقد أوذي أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا في مكة.

فكان ﷺ يمر على آل ياسر، وهم يعذبون، فيقول: (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)[2].

وقد تقدم حديث[3] خباب بن الأرت الذي هو سبب نزول أول آيات هذه السورة.

ولما اشتد أذى المشركين للرسول ﷺ وأصحابه أذن الله لهم بالهجرة، قال تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

فأمر الرسول ﷺ بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وذلك في السنة الخامسة من البعثة[4].

قال ابن إسحاق[5]: «فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب وأنه لا يقدر على أن يمنعهم بما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة في الإسلام[6].

وكان عدد المهاجرين إلى الحبشة ثلاثة وثمانون رجلاً[7].

وقد قرنها رسول الله ﷺ بهجرة إبراهيم ولوط عليهما السلام كما تقدم[8].

---

(١) المسند: ٣/٤٩٢، وقد روى بعدة ألفاظ متقاربة في نفس الصفحة، مجمع الزوائد: ٦/٢٢، وانظر الإصابة: ٢/٤٦٩، وأسد الغابة: ٢/٦٢، وانظر السنن الكبرى: ١/٧٦، ٦/٢١، وانظر الحاكم: ٢/٦١٢ وهما عن طارق بن عبدالله المحاربي.

(٢) المستدرك: ٣/٣٨٨، معرفة الصحابة، مجمع الزوائد: ٩/٢٩٣، الحلية: ١/١٤٠.

(٣) الحديث في ص: ١٦٤ من هذا البحث، السيرة النبوية: ١/٣٤٢.

(٤) انظر السيرة النبوية لابن هشام: ١/٣٤٤، البداية والنهاية: ٣/٦٦.

(٥) تقدمت ترجمته ص: ٢٩٢.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام: ١/٣٤٤، وانظر البداية والنهاية: ٣/٦٦، زاد المعاد: ٣/٢٣.

(٧) السيرة لابن هشام: ١/٣٥٣.

(٨) تقدم في ص: ٢٧٨.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «أول من هاجر من المسلمين إلى الحبشة بأهله عثمان بن عفان، فقال النبي ﷺ: «صحبهما الله أن عثمان لأول من هاجر إلى الله بأهله بعد لوط» وفي رواية (بعد إبراهيم ولوط)[1].

وقد حاول المشركون ردهم فلم يفلحوا[2]، فاشتد أذاهم للرسول ﷺ، قال ابن إسحاق[3]: (فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم، وبني المطلب على أن لا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة ثم تعاهدوا، وتواثقوا على ذلك ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة تأكيداً على أنفسهم)[4] أهـ.

وكان من أمره ﷺ بعد ذلك ما كان في استمراره في الدعوة إلى الله عز وجل، وصبره على أذى قومه، وتحمله لهم حتى أذن الله له بالقتال حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾ [البقرة: ١٩٣]. حتى لا يفتن مؤمن عن دينه ويعبد الله ولا يعبد سواه، عند ذلك أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة، وأقام بمكة ينتظر أن يأذن الله له بالخروج والهجرة إلى المدينة، وقد وصلها المسلمون قبله وانتشر فيها الإسلام، فنزلت أكثر آيات الأحكام فيها، وقد واجه الرسول ﷺ في المدينة أهل الكتاب، فدعاهم إلى الإسلام، وجادلهم بالتي هي أحسن كما قال تعالى: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

---

(١) انظر الدر المنثور للسيوطي: ٥/ ١٤٤.
(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٣٥٦ _ ٣٥٧، وزدا المعاد: ٣/ ٢٤.
(٣) تقدمت ترجمته ص: ٢٩٢.
(٤) السيرة النبوية لابن هشام: ١/ ٣٧٥.

فمن مما ورد من دعوته ﷺ لأهل الكتاب ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كتب لأهل خيبر: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ صاحب موسى وأخيه والمصدق لما جاء به موسى، ألا أن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة، وأنكم لتجدون ذلك في كتابكم: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٩].

وإني أنشدكم بالله وأنشدكم بما أنزل عليكم وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاهم من فرعون وعمله، ألا أخبرتموني هل تجدون فيما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد، فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦] فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه)[1].

وقد كتب إلى كسرى وقيصر، وغيرهما يدعوهم إلى الإسلام، وقد آمن بعض أهل الكتاب بدعوته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت: ٤٧].

كما سيأتي في دعوة أهل الكتاب.

وقد امتن الله عز وجل على رسوله ﷺ وعلى أمته بما يغني عن أهل الكتاب، وما عندهم ـ بهذا القرآن العظيم ـ الذي لا لبس فيه ولا مراء، كما قال سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا

---

(١) ابن هشام: ١٩٣/٢، أعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين ص: ٨٩، نصب الراية للزيلعي: ٤١٩/٤.

ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٩].

وقد قال ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[(١)].

وقد ورد في الحديث القدسي: (إنما بعثتك لأبتليك، وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظاناً)[(٢)].

وقد تقدم الكلام عن فضل القرآن.

وقد بين الله تعالى أنه أكبر معجزة للرسول ﷺ حينما طلب الكفار المعجزات، وبين أن مهمة الرسول ﷺ هي الإنذار والإبانة، وقد قام بها خير قيام ﷺ وقد تقدم بيان شيء قليل مما قام به ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

فهذا القرآن الذي جذب مسامعهم وعجزوا أن يأتوا بمثله أو بسورة أو بعض سورة من مثله، كما تحداهم الله بفصاحته وبلاغته مع ما اشتهر به القوم من الفصاحة والبيان، ولكن: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

ومع الموقف المخزي ممن حارب الله ورسول، فإن رسولنا ﷺ موجه من ربه، فهو الذي أدبه ممتثل لما في كتابه كما تقدم، لذلك كان موقفه أن استكفى بالله واعتمد عليه سبحانه، وما ذلك إلا لالتحام علمه بالله كما قال ﷺ عن نفسه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع النبي ﷺ شيئاً فرخص فيه فتنزه عنه قوم فبلغ ذلك النبي ﷺ، فخطب فحمد الله، ثم قال: (ما بال أقوام يتنزهون عن شيء

---

(١) صحيح البخاري: ٦/ ٩٧، فضائل القرآن باب كيف نزل الوحي، واللفظ له، والاعتصام: ٨/ ١٣٨، صحيح مسلم: ١/ ١٣٤، الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ. مسند أحمد: ٢/ ٣٤١، ٤٥١.

(٢) جزء من حديث في مسلم: ٤/ ٢١٩٧، الجنة باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار. مسند أحمد: ٤/ ١٦٢.

أصنعه، فوالله أني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية)[1].

ولقد آمن بعلم الله الذي يعلم السر وأخفى، وعلم حال هؤلاء القوم فوكل الأمر إليه سبحانه، قال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

ولكن القوم استمروا في جهلهم وتمادوا في غيهم فطلبوا العذاب العاجل إن كان محمداً صادق فيما يقول، قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وسيأتي بيان ذلك في دعوتهم ص: ٤٣٣.

---

(١) صحيح البخاري: ٩٦/٧ كتاب الأدب، باب من لم يواجه الناس بالعتاب. واللفظ له.
صحيح مسلم: ١٨٢٩/٤ الفضائل باب علمه ﷺ.
المسند: ٤٥/٦، ١٨١.

الفصل السادس

بقية الأنبياء الوارد ذكرهم في السورة

لقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة أقوام بعض الأنبياء الذين كذبوا رسلهم، وما فعل الله بهم من الهلاك والدمار بإيجاز، فقال سبحانه: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۠ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: ٣٨].

فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن.

وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر، قريباً من وادي القرى، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً وتمر عليها كثيراً[1].

فلم يرد في السورة دعوة هؤلاء الأنبياء لأقوامهم وجدالهم لهم ولكن هذا الخطاب لأمة محمد ﷺ ليتعظوا ويعتبروا ولا يقعوا فيما وقع فيه القوم.

وكذلك ذكر الله عز وجل موسى مشيراً أنه جاء قومه بالبينات الواضحة وكان من أوضحها إبطال سحرهم الذي اشتهروا به، وخدعوا به الناس، وكان ممن عارضه وتكبر على دعوته وعدم الاستجابة له «قارون صاحب الأموال الجزيلة ومفاتيح الكنوز الثقيلة، وفرعون ملك مصر في زمان موسى عليه السلام، ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله»[2]، فكان عاقبتهم ومن كفر بالله ورسله ما سيأتي تفصيله. قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/٦٥٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/٦٥٨.

الباب الرابع
المدعوون في السورة

وينقسم إلى أربعة فصول:

الفصل الأول: المؤمنون.

الفصل الثاني: المنافقون.

الفصل الثالث: الكفار.

الفصل الرابع: أهل الكتاب.

الباب الرابع
المدعوون في السورة على اختلاف أصنافهم

لقد أرسل الله رسله إلى الناس يدعونهم إلى عبادته وحده دون سواه ـ حين ساد الشرك، وفشى الظلم وكثر الجهل ـ.

وتختلف قابلية الناس لدعوة التوحيد حسب ما في نفوسهم من جهل وظلم سابق.

فمنهم من يؤمن ويصدق لأول وهلة يسمع فيها داعي الله ـ ومنهم من يكون على دين سابق فيتعصب له دون فكر أو رية.

ومنهم من يكون جاهلاً يظن أن الدين سيسلبه ملكه وجاهه فيكابر ويعاند.

والقرآن يخاطب كل قوم بما يناسبهم.

وقد ورد في السورة بيان لبعض حال المؤمنين ـ والمنافقين ـ والكفار، وأهل الكتاب، وهو ما سيتضح في هذا الباب إن شاء الله.

الفصل الأول

المؤمنون

القرآن كله دعوة للمؤمنين المستجيبين لله ولرسوله والمؤمنون بمحكم القرآن، ومتشابهه، والمعتبرون بقصصه وأمثاله الذين يتلونه حق تلاوته، فعندما تحدى الله المشركين به عند تعنتهم في طلب المعجزات، بين أن فيه رحمة وذكرى للمؤمنين، قال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وهذا من الحكمة في دعوتهم، فمما ورد في السورة عن حالهم أن الله عز وجل يجزيهم بأحسن الجزاء، قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٧].

فمن صح إيمانه عند ابتلاء الله له. لم يرتد وواصل عمره في الأعمال الصالحة فإن الله يكفر عنه ما سلف من الآثام حتى الشرك، قال ﷺ: «الإسلام يجب ما قبله»(١).

وزيادة على ذلك يجزي بأحسن الجزاء.

فهذا فضل من الله وكرم منه جل وعلا ترغيباً في الإقبال عليه وفي الحديث القدسي: (يقول الله تعالى: (أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وأن تقرب إلى بشير تقربت إليه ذراعاً وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني بمشي أتيته هرولة)(٢).

---

(١) مسند أحمد: ٤/١٩٩ ـ ٢٠٥ ـ ٢٠٥ عن عمرو بن العاص حينما أراد أن يسلم وبنحوه في مسلم: ١/١١٢ الإيمان باب كون الإسلام يهدم ما قبله.

(٢) تقدم تخريجه ص: ١٢١.

ومن جزاء المؤمنين دخولهم في الصالحين كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۝٩﴾ [العنكبوت: ٩].

فهذه الآية جاءت بعد نهي الله عن طاعة الوالدين في الشرك «فهذا بيان أن المرء إنما يحشر مع من أحب أي حباً دينياً»[1].

فإن من آمن وعمل الصالحات يدهل في زمرة الصالحين، ويدهل في مدخل الصالحين، وهو الجنة[2]، وهو من الصالحين.

فالمقصود بالصالحين أي الذين سبقوه.

وقد بين الله سبحانه نوع الأجر الذي يؤتيه الله الصالحين فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٥٨﴾ [العنكبوت: ٥٨].

وهذه الآية جاءت بعد ذكر الموت فمن جاءه الموت وهو مطيع لله عامل بمرضاته جازاه بأحسن الجزاء بإسكانه في المنازل العالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء، وعسل، ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا ماكثين فيها نعمت أجراً على أعمالهم[3]. يؤيد ذلك ما روى عن أبي مالك الأعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حدثه أن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل والناس نيام[4].

ففي هذا الحديث بيان لبعض الأعمال الصالحة التي تكون سبباً في دخول الجنة، وهذا من بيان السنة لمجمل القرآن.

ومن ترغيب الله لعباده أنه وعد الذين يجاهدون لله وفي الله أنه يهديهم السبيل ويكون معهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٣/٦٤٦.
(٢) انظر فتح القدير للشوكاني: ٤/١٩٣.
(٣) انظر تفسير القرآن العظيم: ٣/٦٦٩.
(٤) تقدم تخريجه ص: ٢٢٢.

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فالجهاد من الأعمال الصالحة ومن أجل العبادات كما تقدم ص: ١٧٦ فجزاء من قام به خالصاً لله، أن لا يضل في الدنيا لهدايته السبيل ولا يشقي في الآخرة لدخوله الجنة.

قال ابن تيمية رحمه الله: «لفظ الهدى إذا أطلق تناول العلم الذي بعث الله به رسول والعمل به جميعاً فيدهل فيه كل ما أمر الله به كما في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ والمراد طلب العلم بالحق والعمل به جميعاً»[1] أهـ.

فالهداية هنا هي الهداية الخاصة، وهي هداية التوفيق والإلهام التي هي من الله سبحانه وتعالى.

أما هداية الدلالة والإرشاد فإن الله عز وجل جعلها بجميع الخلق حيث أرسل لهم الرسل، وأنزل لهم الكتب.

ومن هذه قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٧].

وقوله سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد جمعت (السبل) مع أن سبيل الله واحد، وذلك لأن الجهاد متعدد فالجهاد في الله لأجل العلم، أو لأجل قتال الكفار، أو لأجل دعوتهم بالقول، أو غير ذلك، فهذه سبل متعددة وكلها يجب أن تكون لله.

فمن قام بأي نوع من أنواع الجهاد، فإنه يوفق إلى سبيله، وكل نوع من أنواع الجهاد لا بد أن يكون موافقاً لما شرع الله، فالعلم لأجل الدنيا أو الجهاد لأجل حرية أو قومية، فإنه ليس لله فلا ينفع صاحبه، وقد يقول قائل إن من جاهد فهو مهتد فما الفائدة في هدايته السبيل؟.

فيقال إنه لا يعرف جميع الهدى، وقد يظل فهداية السبيل تكون بالتثبيت أو

---

(١) مجموع الفتاوى: ١٦٦/٧.

بزيادة الهدى، كما قال سبحانه: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ ﴾ [مريم: ٧٦].

وقيل لنوفقنهم لإصابة الطريق المستقيمة، هي التي توصل بها إلى رضا الله عز وجل[1]، ولا مانع من اجتماع كل هذا الخبر ـ لأن الله مع من جاهد في سبيله، فيحصل له كل خير وفلاح في الدنيا والآخرة.

وهذه المعية التي ذكرت هنا، قال العلماء إنها النصر والمعونة في الدنيا، والثواب والمغفرة في الآخرة[2].

قال ابن القيم: «وعلق سبحانه الهداية بالجهاد فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فإنه من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد»[3].

وقد ثبت عن المصطفى ﷺ أنه قال: «أن الله تعالى يقول: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره إساءته»[4].

ومن جاهد لله ولأجل الله فهو محسن فتحصل له الهداية والمعية فمنهم المحسنون، فالمحسنون هم الذين يحسنون أعمالهم لأجل الله، ويحسنون إلى خلق الله بدون من أو أذى...

كما أمرهم الله عز وجل بتعليم الجاهل، والرفق بالعاجز، وجميع وجوه الإحسان التي أمر الله بها، هذا بالنسبة للخالق سبحانه، فهو أن تحسن عبادتك له

---

(١) معالم التنزيل للبغوي: ٣/ ٤٧٥.
(٢) معالم التنزيل للبغوي: ٣/ ٤٧٥، وانظر جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢١/ ١٥.
(٣) الفوائد: ص ٥٠.
(٤) صحيح البخاري: ٧/ ١٩٠، الرقاق باب التواضع، واللفظ له.
مسند أحمد: ٦/ ٢٥٦.

كما أمرك، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

قال القرطبي[1]: «والحسن من صحح عقد توحيده وأحسن سياسة نفسه وأقبل على أداء فرائضه، وكفى المسلمين شره»[2].

وهذا مستلزم للجهاد، فهذا من عطف العام على الخاص، فإن الجهاد خاص أي أنه جزء من الإحسان.

ومما ورد عن المؤمنين في السورة اعتبارهم بالآيات، وقد تقدم أن أول الآيات من السورة نزلت في شأن الذين فتنوا من المؤمنين في أول الإسلام، وصبروا على ذلك حتى كانت لهم العقبى في الأولى والأخرى، وما ذلك إلا ليعتبر المؤمنون.

كما بين سبحانه أن الآيات والعبر التي في قصص الأولين لا يستفيد منها إلا المؤمنون، فبعد أن ذكر نجاة إبراهيم من النار قال سبحانه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [العنكبوت: ٢٤].

يقول تعالى ذكره «إن في إنجائنا لإبراهيم من النار وقد ألقى فيها وهي تسعر وتصييرها عليه برداً وسلاماً لأدلة وحججاً لقوم يصدقون بالأدلة والحجج إذا عاينوا ورأوا»[3].

وإنما خص المؤمنين لأنهم الذين يعتبرون بآيات الله سبحانه «وأما من عداهم فهم عن ذلك غافلون»[4].

وبعد أن ذكر الله قصة لوط قال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ولقد أبقينا من فعلنا بهم آية يقول: عبرة

---

(١) تقدمت ترجمته ص: ٢٧٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٤١٥/١.
(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن: ١٤١/٢٠.
(٤) فتح القدير: ١٩٨/٤.

بينة وعظة لقوم يعقلون عن الله حججه ويتفكرون في مواعظه، وتلك الآية البينة هي عند عفو آثارهم ودروس معالمهم»[1].

وتذكير الله لنا في مساكن عاد وثمود، إنما هو للعبرة والعظة حيث قال سبحانه: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وهذا من ترهيب المؤمنين. وبعد أن بين سبحانه خلقه للسموات والأرض بالحق بين أن الذي ينتفع بذلك هم المؤمنون، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٤] أي في ذلك حجة لمن صدق بالحجج إذا عاينها، (والآيات إذا رآها)[2].

«وخص المؤمنين لأنهم الذين ينتفعون بذلك»[3]، فإن المؤمن إذا تدبر خلق السموات والأرض رأى فيها قدرة الله عياناً مما يدعوه للإذعان والتسليم.

ومما ميز الله به العلماء من المؤمنين في هذه السورة، عقلهم الأمثال. قال تعالى ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت»: ٤٣].

فالعالمون «هم العالمون بالله وآياته»[4].

كما روى عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال: (العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه)[5].

فما يفهم الأمثال ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه[6] سواء مما يتلى عليهم أو يشاهدونه.

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢٠/١٤٩.
(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢٠/ ١٥٤.
(٣) فتح القدير: ٤/ ٢٠٤.
(٤) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢٠/ ١٥٤.
(٥) معالم التنزيل للبغوي: ٣/٤٦٨.
(٦) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٦٠.

وعن عمرو[1] بن مرة قال: «ما مررت بآية من كتاب الله إلا أعرفها إلا أحزنني لأني سمعت الله تعالى يقول: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فمن يقعل الأمثال التي يضربها الله فهو من أهل العلم الحقيقي الذين وصل العلم إلى قلوبهم فيعرفون أنها أهم من غيرها لاعتناء الله بها وحثه عباده على تعقلها، وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها.

أما من لم يعقلها مع أهميتها فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم لأنه لم يعرف المسائل المهمة فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأخرى»[2].

فما ذكره الله عز وجل من الآيات في السورة إنما هو عبرة للمؤمنين، وما قصة الله عز وجل من قصص الماضيين وما فعل الله بهم ما هو إلا ترغيب للمؤمنين في سلوك طريق الناجين وترهيب لهم عن سلوك طريق الهالكين...

ومما ورد عن المؤمنين في السورة حثهم على العمل بطاعة الله:

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه بتلاوة الكتاب والأمر للرسول ﷺ أمر لأمته ما لم يرد ما يخصصه»[3].

قال تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وتلاوة الكتاب على معنيين كما تقدم، فالتلاوة اللفظية وقد تقدم فضلها إذ كانت خالصة لله.

والتلاوة المعنوية هي العمل بما فيه من إقامة شرع الله بين المسلمين بإرشاد ضالهم وتعليم جاهلهم، والسعي في مصالحهم، وهذا من النصيحة لهم كما

---

(١) تقدمت ترجمته ص: ٢٤٢.

(٢) انظر تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦/ ٨٩.

(٣) انظر التمهيد في أصول الفقه: ١/ ٢٧٦.

قال ﷺ: (الدين النصيحة، قلنا: لمن؟، قال: لله ولكتابه ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم)[1].

ومن إقامة شرع الله بينهم التأمر بينهم بالمعروف والتناهي عن المنكر وهو من تلاوة الكتاب وهو الذي يميزهم عن غيرهم، وحصلت لهم الخيرية به بشهادة القرآن، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقد بين ﷺ وجوبه على كل فرد من أفراد الأمة فقال: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[2].

ولا يقوم بهذا العمل إلا من ألزم نفسه بطاعة الله وأمرها بما أمر الله به ونهاها عما نهى الله عنه، لذلك جعل الله الصلاة من أسباب القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال جل وعلا: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥].

والمعروف كل ما أمر به الشارع وحث عليه فمنه ما ذكر في هذه السورة كالتوحيد، والإيمان، وتلاوة القرآن وإقام الصلاة والذكر، والهجرة، والجهاد،

---

(١) صحيح مسلم: ١/ ٧٤ الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة.
سنن أبي داود: ٥/ ٢٣٣ الأدب باب في النصيحة.
سنن النسائي: ٧/ ١٥٦ النصيحة للإمام في كتاب البيعة، وهو عن تميم الداري، إلا عند الترمذي فهو عن ابن جرير، سنن الترمذي: ٤/ ٣٢٤ البر، باب ما جاء في النصيحة، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) صحيح مسلم: ١/ ٦٩ الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان سنن أبي داود: ١/ ٦٧٧ الصلاة باب الخطبة يوم العيد.
سنن الترمذي: ٤/ ٤٦٩ الفتن باب ما جاء في تغيير المنكر وقال: هذا حديث حسن صحيح.
مسند أحمد: ٣/ ١٠ ـ ٢٠.
سنن النسائي: ٨/ ١١١ الإيمان، تفاضل أهله.
سنن ابن ماجة: ١/ ٤٠٦، إقامة الصلاة باب ما جاء في صلاة العيدين.

وبر الوالدين، وقد تقدم الكلام عليها.

ومن المنكرات التي ورد التحذير منها في هذه السورة الشرك أو الكفر بالله واليوم الآخر، والنفاق، واللواط، وقطع الطريق، والإفساد في الأرض.

كما أن من إقامة شرع الله الدعوة إلى دينه بتبيين محاسن الإسلام ومساوىء الكفر والفسوق والعصيان.

وقد بين الله شيئاً من ذلك في هذه السورة فقال سبحانه: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝٤٦﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وهذا جزء من الدعوة وقد أمر الله بها عموماً مقرونة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال سبحانه: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤].

فإذا قام المسلمون بهذا الأمر فإن الله قد وعدهم بالخير العميم والهداية وعدم الضلال، ومعيته لهم بالمعية الخاصة كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٦٩﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وإذا تركوه حصل لهم الذل والخذلان كما قال ﷺ: (إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم)[1].

ولذلك أمر الله بالهجرة لإقامة شرعه والدعوة إليه، كما قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [العنكبوت: ٥٦].

وقد أخبر المصطفى ﷺ بوقوع الفتن بين المسلمين، كما قال ﷺ: (ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير

---

(١) سنن أبي داود: ٣/ ٧٤٠ البيوع باب في النهي عن العينة واللفظ له.
السنن الكبرى للبيهقي: ٥/ ٣١٦ البيوع، الكنى للدولابي: ٢/ ٦٥ وبنحوه في المسند: ٢/ ٢٨، وحلية الأولياء: ١/ ٣١٤.

من الساعي من تشرف لها تتشرفه فمن وجد فيها ملجأ أو معاذاً فليعذبه)[1].

ومن ذلك ما يظهر بين المسلمين من آونة إلى أخرى من يدعو إلى حزبية أو أشخاص معينين يوالي فيهم ويعادي فيهم أو يقاتل لأجلهم، ولو كان لهم مخالفات صريحة لكتاب الله أو سنة رسوله ﷺ من تأويل للنصوص وأتباع للمتشابه وابتداع في دين الله، فما موقف المسلمين من ذلك؟.

لقد بين ﷺ موقف المسلمين من ذلك، وهو إن كان لهم إمام فيجب عليه إيقاف هؤلاء على حدهم، والأخذ على أيديهم كما حصل منه ﷺ حينما وقف، لليهود في مسألة الرجم وبين لهم الحق فيها بما يوجد في التوراة[2].

وكالذي سأل عن الساعة فقال له: (ماذا أعددت لها)[3].

وقد نهى ﷺ الصحابة عن الأخذ من أهل الكتاب والتعلم منهم، فعن عبدالله بن الحارث الأنصاري رضي الله عنه قال: دخل ابن الخطاب على النبي ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة، فقال: هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك، فتغير وجه رسول الله ﷺ، فقال عمر: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، فسرى عن رسول الله ﷺ، وقال: (لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم أنا حظكم من النبيين وأنتم حظي من الأمم)[4].

فانظر إلى شدة إنكار الرسول الله ﷺ وحرصه على حفظ الدين من أن يدخل فيه شيئاً مما تستحسنه الأهواء، وانظر إلى سرعة استجابة صحابته وامتثالهم لأوامره. ومن ذلك ما فعله أبو بكر رضي الله عنه مع مانعي الزكاة حيث حاربهم وجعلهم مرتدين عن الإسلام.

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري: ٨/٩٢ كتاب الفتن باب ٩، صحيح مسلم: ٤/٢٢١٢ الفتن باب نزول الفتن كمواقع القطر، مسند أحمد: ٢/٢٨٢.

(٢) انظر القصة في صحيح البخاري: ٨/٢٢، ٣٠، الحدود باب الرجم في البلاط، وكتاب التوحيد: ٨/٢١٣، باب ما يجوز من تفسير التوراة، صحيح مسلم: ٣/١٣٢٦ الحدود باب رجم اليهود كما أخرجها أحمد وأبو داود وابن ماجة ومالك والطيالسي.

(٣) جزء من حديث في صحيح البخاري: ٤/٢٠٠ مناقب أصحاب النبي ﷺ باب مناقب عمر رضي الله عنه، والأدب: ٧/١١٢ ما جاء في قول الرجل ويلك، صحيح مسلم: ٤/٢٠٣٢ البر باب المرء مع من أحب كما أخرجه الترمذي وأحمد.

(٤) تقدم في ص: ١٣٩.

ومن ذلك ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالرجل الذي يسأل عن متشابه القرآن، فعن سليمان[1] بن يسار قال: «إن رجلاً من تميم يقال له صبيغ[2] بن عسل قدم المدينة، وكانت عنده كتب، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه، فبعث إليه وقد أعد له عراجين[3] النخل، فلما دخل عليه جلس، فقال له عمر رضي الله عنه من أنت؟، فقال: أنا عبدالله صبيغ، فقال عمر رضي الله عنه وأنا عبدالله عمر، ثم أهوى إليه فجعل يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجه، فجعل الدم يسيل على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي كنت أجد في رأسي»[4].

ولما ساق الآجري[5] هذه القصة، وسبب ضرب عمر له قال ولأنه راع يجب عليه تفقد رعيته في هذا وفي غيره»[6].

ومن ذلك ما فعله علي رضي الله عنه مع الخوارج حينما قتلهم[7].

وقال يوماً سلوني فقام ابن الكواء[8] فقال ما السواد الذي في القمر، فقال قاتلك الله سل تفقهاً ولا تسأل تعنتاً، إلا سألت عن شيء ينفعك في أمر دينك أو

---

(١) هو: أبو عبدالله المدني، مولى أم المؤمنين ميمونة الهلالية، ولد في خلافة عثمان سنة ٣٤ هـ، حدث عن جمع من الصحابة منهم زيد بن ثابت، وابن عباس، وأبي هريرة، وحسان، وعائشة، وغيرهم.
من أوعية العلم، ثقة، مأمون، فاضل، عابد، كثير الحديث، ت سنة ١٠٧ هـ. «سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٤٤».

(٢) ويقال صبيغ بن سهل الحنظلي، وقيل بعد هذه القصة نفاه عمر إلى البصرة، ونهى عن مجالسته حتى تاب، وكان سيداً في قومه وبعد هذه القصة صار وضيعاً. الإصابة: ٣/٤٥٨.

(٣) العرجون العذق عامة، وقيل العذق إذا يبس واعوج، وقيل أصل العذق الذي يعوج وتقطع منه الشماريخ. لسان العرب: ١٣/ ٢٨٤ عرجن.

(٤) سنن الدارمي: ١/ ٥١ مقدمة باب من هاب الفتيا، وانظر الإصابة: ٣/٤٥٨ الشريعة للآجري: ص ٧٣.

(٥) هو محمد الحسين بن عبدالله البغدادي الآجري، ديناً، ثقة، صدوق، صاحب سنة واتباع، له كتب منها: الشريعة، والرؤية، والغرباء، والأربعين الثمانين، توفي سنة ٣٦٠ هـ، وعمره ثمانون سنة. سير أعلام النبلاء: ١٦/ ١٣٣.

(٦) الشريعة: ٧٤.

(٧) انظر مسند أحمد: ١/٨٦، ٨٨، ١٠٧، ١١٣، ١٣٩، ومسند الطيالسي: ١/ ٢٤ حديث ١٦٥.

(٨) هو عبدالله ابن أوفى اليشكري من بكر بن وائل. من قادة الخوارج ورجع إلى علي بعد مناظرة ابن عباس لهم. انظر البداية والنهاية: ٧/ ٢٨١.

أمر آخرتك، ثم قال: ذلك محو الليل»[1].

أما إذا لم يكن للمسلمين إمام أو كان لهم إمام لا يهتم بمثل هذه القضية، فعلى المسلم سلوك ما سلكه سلف الأمة من ترك الجدل والخصام، وعليه توضيح شرع الله للناس بدون الجدل والخصام، فقد نهى عنه ﷺ وقال: (ما ضل قوم بعد هدى إلا أوتوا الجدل)[2]، ثم قرأ: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ [الزخرف: ٥٨].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (سيكون أقوام يجادلونكم بمتشابه القرآن، فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله)[3].

وقال الحسن[4]: «المؤمن لا يداري ولا يماري ينشر حكمة الله عز وجل فإن قبلت حمد الله عز وجل، وإن ردت حمد الله عز وجل»[5].

وقيل للإمام مالك رحمه الله: «الرجل يكون عالماً بالسنن يجادل عنها، قال لا، ولكن يخبر بالسنة، فإن قبل منه وإلا سكت»[6].

وقد أورد ابن رجب رحمه الله منهج السلف في عدم المراء والجدل ثم قال: «وما تكلم من تكلم وتوسع من توسع بعدهم باختصاصه بعلم دونهم ولكن حباً للكلام، وقلة ورع»، كما قال الحسن وسمع قوماً يتجادلون: «هؤلاء قوم ملوا العبادة وخف عليهم القول، وقل ورعهم فتكلموا»[7].

ثم أورد أقوال بعض السلف ثم قال: «وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا

---

(١) الشريعة: ٧٤.

(٢) مسند أحمد: ٥/ ٢٥٢، ٢٥٦، سنن الترمذي: ٥/ ٣٧٨، التفسير الزخرف وقال: هذا حديث حسن صحيح.
سنن ابن ماجة: ١/ ١٩، مقدمة باب اجتناب البدع والجدل، الحاكم: ٢/ ٤٤٨، وقال: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) الشريعة: ٧٤.

(٤) هو: الحسن البصري.

(٥) الشريعة: ٧٤.

(٦) بيان فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب ص ١٤٢.

(٧) بيان فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب ص ١٤٣.
والشريعة للآجري ص: ٥٨.

دوظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين فهو أعلم ممن ليس كذلك وهذا جهل محض، وانظر إلى أكابر الصحابة وعلمائهم كأبي بكر وعمر وعلي ومعاذ وابن مسعود وزيد بن ثابت كيف كانوا»[١].

وإذا كثر الخصام والجدال بين الناس حصل الهوى فعند ذلك كل يريد أن ينتصر لنفسه فيضطرهم ذلك إلى الكذب، فعن عمرو بن قيس[٢] قال: قلت للحكم[٣]: «ما اضطر الناس إلى هؤلاء، قال: الخصومات»[٤].

وقد نهى ﷺ عن (قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال، ومنع وهات، وعقوق الأمهات ووأد البنات)[٥].

ولما ساق الآجري[٦] بعض الأدلة والآثار على ذم الخصام والجدل قال: «فاسلكوا طريق من سلف من أئمتكم يستقم لكم الأمر الرشيد وتكونوا على المحجة الواضحة إن شاء الله تعالى»[٧] أهـ.

وصدق الإمام مالك حينما قال: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»[٨].

هذا بالنسبة للجدل المذموم، أما الجدل الممدوح فهو إيضاح الحق لمن يريده بدون إظهار غلبة أو تشفي كما تقدم في أساليب الدعوة ص: ٣٣٠.

---

(١) فضل علم السلف على الخلف: ص ١٤٤.

(٢) هو: الكوفي الملائي، البزاز، الحافظ، ثقة، مأمون، أثنى عليه الثوري، وقال: هو الذي أدبني وعلمني قراءة القرآن. (سير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٥٠).

(٣) هو الحكم بن عتبة، أبو محمد الكندي، مولاهم الكوفي، ولد سنة ٤٦ هـ، صاحب عبادة وفضل، ثقة، ثبت، فقيه، صاحب سنة واتباع، ت سنة ١٢٥ هـ. (سير أعلام النبلاء: ٥/ ٢٠٨).

(٤) الشريعة للآجري ص: ٥٨.

(٥) جزء من حديث في صحيح البخاري: ٧/ ١٨٤ الرقاب باب ما يكره من قيل وقال والاعتصام: ٨/ ١٤٣، باب ما يكره من كثرة السؤال واللفظ له.

صحيح مسلم: ٣/ ١٣٤٠، ١٣٤١، الأقضية باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، سنن الدارمي: ٢/ ٢١٩، الموطأ: ٢/ ٩٩٠، المسند: ٢/ ٣٢٧.

(٦) تقدمت ترجمته ص:

(٧) الشريعة ص: ٧٥.

(٨) اقتضاء الصراط المستقيم: ٢/ ٧٥٤، الشفاء للقاضي عياض: ٢/ ٨٨، وذكر في الصارم المنكى لابن عبد الهادي ص ٣٥٠.

الفصل الثاني

القسم الثاني من أقسام المدعوين في السورة
المنافقـون

قال بعض العلماء أن المنافقين لم يظهروا إلا في المدينة بعد أن أعز الله الإسلام وأهله[1].

قال ابن كثير رحمه الله: «وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق، بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستكرهاً وهو في الباطن مؤمن... فلما تقدم رسول الله ﷺ المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج قل من أسلم من اليهود مثل عبدالله بن سلام رضي الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله قال عبدالله بن أبي بن سلول وقد عزموا أن يملكوه عليهم فجاءهم الخير واشتغلوا عنه، بقي في نفسه من الإسلام وأهله فقال: هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته، ونحلته وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب»[2].

لذلك اختلف العلماء في هذه السورة هل هي مكية أو مدنية أو بعضها مكي وبعضها مدني.

ومن قال إنها مكية، هو ابن عباس، وعبدالله بن الزبير[3]، والحسن[4]، وعكرمة[5]،

---

(١) انظر جامع البيان عن تأويل القرآن: ١/ ١١٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٧٤.

(٣) الدر المنثور: ٥/ ١٤٠.

(٤) هو الحسن البصري.

(٥) هو: أبو عبدالله القرشي مولاهم المدني البربري الأصل، حافظ مفسر، ثقة، حدث عن كبار الصحابة، كابن عباس، وعائشة، وأبي هريرة، وابن عمر، ت سنة ١٠٥ هـ. سير أعلام النبلاء: ٥/ ١٢.

وعطاء[1]، وجابر[2]، وقتادة[3].

وفي القول الآخر لابن عباس وقتادة هو قول يحيى[4] بن سلام أنها مكية إلا عشر آيات من أولها فإنها نزلت بالمدينة في شأن من كان من المسلمين بمكة»[5] وبهذا قال الشعبي[6][7].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «نزلت بين مكة والمدينة»[8].

والذي يظهر لي أن السورة كلها مكية كما قاله ابن عباس وابن الزبير لإسناد ذلك عنهما كما في الدر، وهو أكثر قول التابعين، والذين فتنوا من المسلمين كانوا بمكة، والظاهر أن قصة سعد كانت بمكة، أو أن الآيات التي فيها ذكر من فتنوا المراد بهم ضعاف الإيمان، «أو أن هذا من الأخبار بالغيب»[9]. فالله يعلم ظهور المنافقين في المدينة قبل أن يظهروا، ومكة لم يكن فيها نفاقاً، وإنما كان فيها ضعاف الإيمان، فمن الناس من آمن بظن أن المطلوب منه القول فقط، فمن ضعف إيمانهم أنهم إذا فتوا لأجل مصالحهم ارتدوا على أعقابهم، وهذا ما يدل على قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

---

(١) تقدمت ترجمته ص: ٢٩٢.

(٢) هو أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي اليحمدي، مولاهم، البصري، الكوفي، كان عالم أهل البصرة في زمانه، من كبار تلامذة ابن عباس، ت ٩٣ هـ. (سير أعلام النبلاء: ٤/ ٤٨١).

(٣) تقدمت ترجمته ص: ٢٧١.

(٤) يحيى بن سلام ابن أبي ثعلبة الإمام العلامة أبو زكرياء البصري، نزيل المغرب بإفريقية، صدوق، ثقة، ثبتا، عالماً، بالكتاب والسنة، وله معرفة باللغة العربية، ولد سنة ١٢٤، وتوفي بمصر سنة ٢٠٠ هـ رحمه الله. «سير أعلام النبلاء: ٩/ ٣٩٦».

(٥) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣٢٣، وانظر جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢٠/ ١٣٣، زاد المسير: ٦/ ٢٥٣.

(٦) هو: عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار، من أقيال اليمن، الهمداني الشعبي، رأى علياً وصلى خلفه ومسع من بعض كبار الصحابة منهم ابن عمر، وكان حافظاً وما كتب شيئاً، ت سنة ١٠٤ هـ، «سير أعلام النبلاء: ٤/ ٢٩٤».

(٧) معالم التنزيل: ٣/ ٤٦٢.

(٨) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ٣٢٣، وانظر فتح القدير: ٤/ ١٩١.

(٩) انظر روح المعاني للألوسي: ٢٠/ ١٤٠.

ولم يظهر للمنافقين شوكة وذكر إلا في المدينة.

والله سبحانه لما بين في أول السورة أنه لا بد من الفتنة والابتلاء بين الذين يصبرون عليها وجزاءهم، كما بين الكفار الذين لم يدعو الإيمان أصلاً ثم بين الذين ادعوا الإيمان وأن حقيقتهم تظهر عند الابتلاء، فقال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٠، ١١].

فهذه الآية ﴿ومن الناس...﴾ نزلت في أناس كانوا يؤمنون بألسنتهم فإذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم افتتنوا.

وقيل: «نزلت في المؤمنين الذين أخرجهم المشركون إلى بدر فارتدوا»[(١)].

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «كان قوم من أهل مكة أسلموا وكانوا يستخفون بإسلامهم فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم فأصيب بعضهم وقتل بعض، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا، فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [النساء: ٩٧] إلى آخر الآية، قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية أن لا عذر لهم فخرجوا. فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة فنزلت فيهم هذه الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا وايسوا من كل خير ثم نزلت فيهم: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ [النحل: ١١٠] فكتبوا إليهم بذلك: «أن الله قد

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ٣٩٦، وانظر جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢٠/ ١٣٢.

جعل لكم مخرجاً، فخرجوا فأدركهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقتل من قتل»[1].

قال الشوكاني: «والظاهر أن هذا النظم من قوله ﴿ومن الناس من يقول﴾ إلى قوله ﴿وقال الذين كفروا﴾ نازل في المنافقين لما يظهر من السياق ولقوله: ﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ فإنها لتقرير ما قبلها وتأكيده»[2] أهـ.

ومن خلال هذه النقول تبين أن المنافقين لم يظهروا وتكون لهم شوكة إلا في المدينة، أما مكة فإن فيها من أسلموا قديماً وتزعزع إسلامهم بسبب فتنة المشركين لهم فلما انتصر المسلمون ببدر أظهروا الإسلام، يدل على ذلك قول المسلمين: «كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا» وكتابتهم لهم أن لا عذر لكم...

ومن خلال سبب النزول تبين لي أن بعض ضعاف الإيمان الذين نزلت بهم هذه الآيات فقد تابوا إلى الله عز وجل وذلك أن الذين لم يقتلوا في بدر خرجوا من مكة وتبعهم المشركون وقاتلوهم، وهذا من رحمة الله بعبادة إذا حاربوه وبارزوه بالعداوة ثم رجعوا إليه فقبل منهم وتجاوز عنهم وهذا فضل منه وكرم جل وعلا، وفتح الباب أمام عبادة الظالمين لأنفسهم أن يرجعوا إليه ويرجون رحمته ويخافون عذابه، قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقد ورد ذكر النفاق في السورة، يقول تعالى: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [العنكبوت: ١١].

وسأبين قسمي النفاق لكي يتضح من أي القسمين النفاق الوارد في السورة.

فالنفاق في الشرع هو: «إظهار الإسلام وإبطال الكفر»، والمنافق اسم إسلامي لم يعرف في الجاهلية وهو من دخل في الإسلام بلسانه دون قلبه»[3].

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢/١٣٣.

(٢) فتح القدير: ٤/١٩٤.

(٣) المزهر في علوم اللغة للسيوطي: ١/٣٠١.

وقد جاءت نصوص عامة بإطلاق النفاق، وبعضها يطلق على أعمال تقع من المؤمن، فمثلاً قوله ﷺ: (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عادن غدر، وإذا خاصم فجر)[1].

لقد اتفق العلماء رحمهم الله تعالى على أن النفاق ينقسم إلى قسمين، وهذا ما ورد عن الترمذي رحمه الله حيث قال عن الحديث: «هذا حديث حسن صحيح، وإنما معني هذا عند أهل العلم نفاق العمل وإنما كان نفاق التكذيب على عهد رسول الله ﷺ»، هكذا روى عن الحسن البصري شيئاً من هذا أنه قال: «النفاق نفاقان: نفاق العمل ونفاق التكذيب»[2]. أهـ.

وقال ابن كثير: «النفاق هو: إظهار الخير وأسرار الشر وهو أنواع اعتقادي: وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي: وهو من أكبر الذنوب»[3].

ويدل على ذلك الحديث المتقدم..

واستدل بعض العلماء على هذا التقسيم بخوف الصحابة على أنفسهم من النفاق لأنه ليس عندهم شك في إيمانهم لأن الشك كفر[4]، وإنما يخافون على أنفسهم من نفاق العمل، كما أثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه يقول لحذيفة رضي الله عنها: «أنشدك بالله أمن القوم أنا»[5] فإنه لم يرد بذلك نفاق الكفر، وإنما أراد نفاق العمل[6].

وعن ابن أبي مليكة[7] قال: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٥٥.

(٢) سنن الترمذي: ٥/ ٢٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٧٤، وانظر صحيح مسلم بشرح النووي: ٢/ ٤٦.

(٤) انظر الشريعة للآجري ص ١٣٦، الإيمان لابن تيمية ص ٤١٠.

(٥) الزهد لوكيع: ٣/ ٧٩١، وبنحوه في مساوىء الأخلاق للخرائطي: ١/ ٢٧ ب ٢٨/ ١، البداية والنهاية: ٥/ ١٩، وانظر فتح الباري: ١/ ٩٠، وروى أنه قال ذلك لأم سلمة. انظر مناقب أمير المؤمنين عمر، لابن الجوزي ص: ١٦٠، ومسند عمر بن الخطاب ص: ٩٠.

(٦) فتح الباري: ١/ ٩٠.

(٧) هو: عبدالله بن عبيد الله بن أبي مليكة، زهير بن عبدالله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن كعب بن لؤي، حدث عن كبار الصحابة كعائشة، وأسماء، وأبي محذورة، وابن =

يخاف النفاق على نفسه ما منهم أحد يقول أنه على إيمان جبريل وميكائيل»[1].

وعندي أنهم يخافون من نفاق الاعتقاد وهذا من شدة خوفهم ووجلهم من الله عز وجل وليس شكاً في إيمانهم وذلك لأن عمر سأل حذيفة عن الذين عدهم له رسول الله ﷺ ولا يصلي عليهم، والرسول لم ينهي عن الصلاة على عصاة الموحدين وإنما من خرج من ذلك.

وكذلك ما يدل على خوف المؤمن على نفسه مهما كانت حالة ما ورد عن ابن مليكة المتقدم، وما ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة﴾[2]، قالت عائشة: هم الذين يشربون الخمر، ويسرقون، قال: لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون، ويصلون، ويتصدقون، وهم يخافون أن لا يقبل منهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات)[3].

وعلى هذا التقسيم فالذي يظهر أن النفاق الوارد في السورة هو من القسم الأكبر وهو النفاق الاعتقادي، لأن الله عز وجل ذمهم على نفاقهم فقوله: ﴿آمنا﴾ أتى بها على صيغة الجمع ولم يأتي بها على صيغة المفرد، هذا يدل على مجرد ادعائهم، فالمنافق لم يؤمن في الحقيقة وإنما ضم صوته إلى صوت المؤمنين لأجل مصلحة في نفسه بدون عمل، فلو سئل ما دورك في هذا الإيمان ـ من عالم بحقيقته وسلوكه ـ لم يجد جواباً، مثال ذلك: كالرقيق الذي عند سيده يقول اشترينا بضاعة كذا وكذا وهو في الحقيقة لم يشتر شيئاً.

وكون نفاقهم اعتقادي لعدم صبرهم على البلاء وإيثارهم العاجل على الآجل فيصدهم الأذى من الناس عن دينهم واعتقادهم، لأن قولهم بألسنتهم لم يواطىء ما في قلوبهم، وهذا لسوء تقديرهم وفساد تفكيرهم، وإلا كيف يقارنون بين عذاب

= عباس، وكان عالماً مفتياً صاحب حديث واتقان، ثقة، ولي القضاء لابن الزبير، والآذان، ت سنة ١٢٧ هـ.

سير أعلام النبلاء: ٥/ ٨٨.

(١) صحيح البخاري: ١/ ١٧، الإيمان باب خوف المؤمن أن يحبط عمله.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

(٣) سنن الترمذي: ٥/ ٣٢٧، التفسير باب ومن سورة المؤمنون، واللفظ له مسند أحمد: ٦/ ١٥٩.
تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٣٩٧.

الله الدائم الذي لا راد له، وهو من غضب الله سبحانه على من عصاه وبين عذاب الناس المنقطع الذي يمكن أن يرد بالأسباب ويترتب عليه ثواب عظيم، فهل هناك وجه للمقارنة.

ولكن القوم لا يؤمنون بعذاب الله أصلاً أو أن إيمانهم على غير مراد الله، وهم مذمومون على كل الحالين.

يقول الله عز وجل عنهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [البقرة: ٨، ٩].

وقد حذرنا الرسول ﷺ منهم فقال: (إن أخوف ما أخاف عليكم بعدي كل منافق عليم اللسان)(١).

كما أنهم يأتون بأفعال المؤمنين مما يغر المؤمنين بهم، فقد قال ﷺ: (أكثر منافقي أمتي قراءها)(٢).

فهم يقرأون القرآن، ولكن لا ينفعهم شيئاً، لأنهم لا يعملون به.

وكذلك الله عز وجل فضحهم بقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٠].

فالاستفهام للإنكار، والآية فيها تشنيع عليهم فعلهم، وذم لهم، وتحذير للمؤمنين أن يقعوا بما وقعوا فيه، لأنه الذي خلقهم ويعلم حالهم وما تكنه صدورهم، والله عز وجل مجازيهم على فعلهم هذا لأنه عالم بحالهم وبما يستحقون.

قال سبحانه: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [العنكبوت: ١١].

---

(١) مسند أحمد ١/٢٢ ـ ٤٤ ـ صفة المنافقة للفريابي: ٥٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند: ٢/١٧٥، ٤/١٥٥. خلق أفعال العباد للبخاري: ١٢١، التاريخ الكبير له: ١/١/٢٥٧، صفة المنافق للفريابي: ٥٦.

والله سبحانه وتعالى حينما أنزل هذه الآيات تتلى فالمنافقون يسمعونها لأنهم يأتون مجالس الرسول ﷺ ويسمعون الآيات تتلى، فإذا سمعوا ذلك افتضحوا، وقد أخبر الله عنهم بقوله: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون: ٤].

والمنافقون حينما يخافون من عذاب الناس،لأنهم يتبعون أهوائهم، وأهوائهم تدعوهم إلى الراحة والدعة في هذه الدنيا، فعن الحسن قال: «المنافق يعبد هواه، لا يهوى شيئاً إلا ركبه»[1].

المنافقون اليوم:

من النفاق الاعتقادي المشاهد اليوم تجد من يزعم أنه من المسلمين، ولكنه يوالي أعداء الله ويطلب منهم المساعدة، حتى في الأمور الشرعية ويعجب بآرائهم، وإذا نهى عن ذلك تعلل بالمصالح والسياسة دون أن يعمل شيئاً في المستقبل لصالح الإسلام والمسلمين.

ومن صور النفاق من تجده بين المسلمين يصلي ويصوم، فإذا خلا بنفسه أو مع أصحابه يبدل ذلك بترك الصلاة أو التثاقل عنها وخاصة صلاة العشاء والفجر حيث لا يعرفه أحد والاشتغال بما حرم الله من اللهو والمزامير لأنها تنبت النفاق في القلب.

وهو بين المسلمين ترى عليه السكينة والالتزام، وإذا تكلم معهم وإذا هو بارع متقن كما قال تعالى عن المنافقين: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [المنافقون: ٤].

ومن صور النفاق وأخطر من يكون من المسلمين وبين أظهرهم ويدعى أنه

---

(١) صفة المنافق، الفررريابي ص: ٦١.
ذم الهوى لابن الجوزي ص ٢١-٢٢.

يعمل لأجل مصالحهم وهو يدبر المكائد لهم ويخبر بأسرارهم حتى يزعزع كيانهم ويفسد ذات بينهم ينطبق عليهم قوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ [البقرة: ١٢].

ومنهم من ظهر وعلم به المسلمون أمثال يهود الدونمة[1] وما تحويه المحافل الماسونية، وأندية الروتاري، وغيرها، ومنهم من لا زال مستتراً بنفاقه، نسأل الله أن يفضحهم ويقوي شوكة المسلمين لقطع فتنتهم.

---

(١) انظر يهود الدونمة بكامله.

الفصل الثالث

القسم الثالث من أقسام المدعوين في السورة

الكفار في السورة

تقدم أن السورة مكية أو أكثرها، والكفر كان على أشده في مكة عند بعثة الرسول ﷺ، لذلك فالحديث عن الكفر وأهله في السور المكية كثير، فيه بيان لحالهم وما هم عليه ومناقشتهم، والتنزل معهم على قدر عقولهم وافتراضاتهم، وما ذلك إلا لدعوتهم إلى توحيد الله فإن أجابوا وإلا قامت عليهم الحجة.

ومما ورد عنهم في هذه السورة ظنهم أنهم قادرون على إعجاز الله سبحانه وأنه غير قادر عليهم، فنفى الله هذا الظن، قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤].

فالاستفهام للتوبيخ والإنكار.

قال ابن جرير[١]: «أم حسب الذين يشركون بالله فيعبدون معه غيره وهم المعنيون بقوله: ﴿الذين يعملون السيئات أن يسبقونا﴾ يقول أن يعجزونا فيفوتونا بأنفسهم فلا نقدر عليهم فننتقم منهم لشركهم بالله»[٢].

قال ابن عباس: «يريد الوليد بن المغيرة وأبا جهل والأسود والعاص بن هشام ـ وعتبة ـ والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي معيط، وحنظلة بن أبي سفيان، والعاص ابن وائل»[٣]. أو قول ومع أنها نزلت في هؤلاء فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما قال ذلك المفسرون والأصوليون»[٤].

---

(١) تقدمت ترجمته في ص: ٤٩.

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢٠/ ١٣٠.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٣/٣٢٦، وانظر زاد السير: ٦/٢٥٦.

(٤) انظر البرهان: ١/ ٣٢، والاتقان: ١/ ٨٥.

وصورة السبب وما يماثلها كلها تندرج فيما تعنيه الآية، وقد جاءت هذه الآية بعد ذكر الفتنة وأنها لازمة للمؤمنين، وهذا لا يبيح للكفار أن يفتنوهم، وما يحصل منهم من السيئات، ومنها فتنة المؤمنين فإن الله ليس بغافل عنها، فكما أن الفتنة حاصلة للمؤمنين فإن العذاب حاصل للكافرين، وهو الفتنة الحقيقية التي لا مخرج منها، لذلك نفى الله عليهم حسبانهم وبين أن هذا حكم سيىء، فإن الله لا يعجزه ولا يفوته شيء فحكمهم في صفات الله أنه مسبوق وهو القادر على كل شيء، حكم جائر، وتسمية هذا حكماً تهكماً بهم وأنهم ليسوا أصحاب أحكام فيطاعون.

وبين الله سبحانه أن من كلف بشيء ولم يأت به يعذب سواء في الحال أو في الاستقبال، وخاصة من لم يأتي بالتوحيد لله، أما غيره فتحت مشيئة الله، ومن قال إن هذا من الله ترهيب لأن الله لو أراد التعذيب ما كان عاجزاً عن العذاب عاجلاً ولم يؤخره، فيقال إن الذي يعذب عاجلاً هو من يخاف الفوت إذا أخره، أما الله فإنه لا يفوته شيء، وأما الإمهال فلا يفضي إلى الإهمال»[1].

ومما ورد عنهم في السورة ادعائهم أنهم يتحملون آثام من تبعهم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٢].

وقد كذبهم الله سبحانه وتعالى وبين أن التبعة عليهم وأنهم سيحملون آثامهم التي عملوها بأنفسهم وآثام من أضلوا ممن تبعهم، فقال تعالى: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

وكما قال تعالى: ﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل: ٢٥].

وكما قال ﷺ: (من سن في الإسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعمل بها بعده كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم

(١) انظر التفسير الكبير للرازي: ٢٥/ ٣٠.

شيء)[1].

ثم وبخهم الله بقوله: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٣] وسؤالهم هذا سؤال توبيخ وتقريع[2] والإفتراء: أما الكذب على الله وأما إنكار البعث، وأما زعمهم تحملهم خطايا غيرهم[3].

فأمر التحمل ليس بأيديهم، لذلك قال تعالى: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾، لا قليل ولا كثير.

فهذا التحمل لو رضي به صاحبه فإنه لا يفيد شيئاً، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ونفى التحمل في قوله: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ وإثباته في قوله ﴿وليحملن أثقالهم...﴾.

فالنفي في الأول المقصود به النفي الذي يخفف عن صاحبه المحمول عنه فإنه ليس مخفف عنه شيء.

والإثبات المقصود به أن إضلالهم هذا إثم، فعليهم تبعته من الآثام يوضح ذلك آخر الحديث المتقدم وهو قوله (ولا ينقص من أوزارهم شيء).

ومما ورد عنهم في السورة دعوتهم إلى الإيمان باليوم الآخر، وإيراد الأدلة النقلية فلم يقروا بها لأن الأصل عندهم فاسد فلم يؤمنوا بمن جاءت عن طريقه وهم الرسل، فاعتمدوا على عقولهم القاصرة، ومع ذلك فإن الله سبحانه ناقشهم على مستوى عقولهم، فأورد الشبه التي جاؤوا بها ونقضها في عدة مواضع من كتابه

---

(١) جزء من حديث في صحيح مسلم: ٢/ ٧٠٥ الزكاة باب الحث على الصدقة، والعلم: ٤/ ١٠٥٩ باب من سن سنة حسنة أو سيئة واللفظ له، سنن الترمذي: ٥/ ٤٣ العلم باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى فاتبع كما رواه النسائي وابن ماجة والدارمي وأحمد: ٢/ ٥٢٠.

(٢) معالم التنزيل للبغوي: ٣/ ٤٦٣.

(٣) انظر زاد المسير: ٦/ ٢٦١، فتح القدير: ٤/ ١٩٤.

الكريم كما دلل لهم على البعث بما يشاهدونه ويحسونه في هذا الكون، فمما ورد في السورة من ذلك: -

١ - القدرة على الإعادة وأنها أهون من البدأ، فإن بدأ خلق الأكوان من العدم، فإعادتها أهون من باب أولى، قال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٩].

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه أنه قال: (شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني، ويكذبني وما ينبغي له، أما شتمه فقوله أن لي ولداً، وأما تكذيبه فقوله: ليس يعيدني كما بدأني)[1].

ومن الخلق الذي يقدر الله على إعادته الإنسان، فليتأمل في عجيب صنع الله وخلقه لأن دليل النفس أكمل، وإحاطته بها أشمل وأتم، فإذا ما أهمل الإنسان النظر في نفسه وجهلها، ولم يعلمها كان ذلك مما يدعوا إلى الإنكار عليه والعجب من إهماله، وهذا فيه إنكار على المشركين مجادلتهم في البعث وكفرهم به، والحال أن في أنفسهم دليلاً ناطقاً على قدرة الخالق المبدع سبحانه على البعث.

قال ابن تيمية بعد أن ساق الأدلة على أن الإعادة هي إعادة الأجسام وإن تغيرات النشأة كما قال سبحانه: ﴿ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الواقعة: ٦١، ٦٢] قال: أي خلقكم للبعث بعد الموت من حيث لا تعلمون، كيف شئت، وذلك أنكم علمتم النشأة الأولى كيف كانت في بطون الأمهات، وليست الأخرى كذلك... فعلم أن النشأتين نوعان تحت جنس، يتفقان، ويتماثلان ويتشابهان من وجه، ويفترقان ويتنوعان من وجه آخر، ولهذا جعل المعاد هو المبدأ وجعل مثله أيضاً، فباعتبار اتفاق المبدأ والمعاد، فهو هو، وباعتبار ما بين النشأتين من الفرق فهو مثله، وهكذا كل ما أعيد فلفظ الإعادة يقتضي المبدأ والمعاد سواء في ذلك إعادة الأجسام أو الأعراض كإعادة الصلاة وغيرها. كأن يقال للرجل أعد كلامك، ويعيد الدرس، فالكلام هو الكلام وإن كان صوته الثاني غير صوته الأول وحركته بل قد قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ

(١) صحيح البخاري: ٤/ ٧٣ بدأ الخلق باب (١)، واللفظ له، ومسند أحمد: ٢/ ٣١٧.

﴿بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وكان رسول الله ﷺ إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً... وبهذا تزول الشبهات الواردة على هذا الموضوع، كقول من قال الإعادة لا تكون إلا مع إعادة ذلك الزمان، ونحو ذلك مما يمنع إعادته في صريح العقل وإنما يعاد بالإتيان بمثله...

والإعادة التي أخبر الله بها هي الإعادة المعقولة في هذا الخطاب وهي الإعادة التي فهمها المشركون والمسلمون عن رسول الله ﷺ، وهي التي يدل عليها لفظ الإعادة، والمعاد هو الأول بعينه، وإن كان بين لوازم الإعادة ولوازم البدأة فرق فذلك الفرق لا يمنع أن يكون قد أهيد الأول وليس الجسد والثاني مبايناً للأول من كل وجه، كما زعم بعضهم. أو أن النشأة الثانية كالأولى من كل وجه كما ظن بعضهم، وكما أنه سبحانه خلق الإنسان ولم يكن شيئاً كذلك يعيده بعد أن لم يكن شيئاً»[1] أهـ.

حتى أن بعض المنكرين يوردون شبهة بعيدة لا يفهم منها إلا العناد والتعنت، وهي لو أن السباع أكلت إنساناً وصارت أجزاء المأكول في أجزاء الآكل، فإن أعيد فأجزاء المأكول أما أن تعاد إلى بدن الآكل فلا يبقى للمأكول أجزاء تخلق منها أعضاؤه، وأما أن تعاد إلى بدن المأكول منه فلا يبقى للآكل أجزاء.

ورد هذه الشبهة أن الله قادر على كل شيء محيط علمه بكل شيء، فقول الله سبحانه ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

يدل على أن الله يعلم كل شيء من خلقه فكل تفيد العموم، فهو يعلم مما اختلط من المأكول بالآكل فيفصله عنه بعلمه وقدرته ويجعل كل جزء إلى صاحبه.

يقول ابن تيمية: «فالإنسان الذي صار تراباً ونبت من ذلك التراب نباتاً أخر أكله إنسان آخر، والإنسان الذي أكل إنسان أو حيوان، وأكل ذلك الحيوان إنسان آخر، ففي هذا كله قد عدم هذا الإنسان وهذا الإنسان وصار كل منهما تراباً كما كان قبل أن يخلق ثم يعاد هذا ويعاد هذا من التراب وإنما يبقى عجب الذنب منه خلق ومنه يركب»[2] أهـ.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٣٥٢.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٧/ ٢٥٦.

وصدق الله الذي علمه محيط بما في السموات والأرض حيث يقول: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٥٢].

ومن الأمور المقررة للبعث في هذه السورة لفت نظر المنكرين إلى خلق الأكوان التي هي أكبر من خلق الناس ـ مثل السموات والأرض وذلك أنه إذا كابر المنكر بعد إقامة الدليل بإظهار واقع التساوي بين الإعادة والبدء فقال: الإعادة أشد من البدء مصراً على هذا التوهم، أتاه الجواب القرآني ينقله إلى ما هو أكبر منه في تصوره من ابتداء خلق الإنسان وإعادته إلا وهو خلق السموات والأرض إذ من المعلوم بالبداهة الحسية أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس في ابتدائهم أو في إعادتهم[1] كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١].

ولذلك أمر الله بالسير في الأرض والنظر في مخلوقاته والاستدلال بها على قدرته سبحانه على البعث، قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠].

فالمجادلون في أمر البعث والمنكرون له قد علموا أن الله سبحانه هو الذي خلق السموات والأرض واعترفوا بذلك كما حكى الله عنهم ذلك في كثير من كتابه الكريم حيث قال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [العنكبوت: ٦١].

والسموات والأرض ما هما في كبر أجرامهما وعظم أحكامهما وشدة أجزائهما، وسعة أرجائهما، وكثرة ما فيهما من عجائب الخلق أيستبعدون ما هو أدنى من ذلك، قال الله سبحانه: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

ومما ورد عنهم في السورة بيان حال من كان قبلهم من الكفار:

---

(١) صراع مع الملاحدة ص: ٢٠١.

فالله سبحانه بين لعباده حال من كان قبلهم وأنهم متفقون على الكذب، **فقال** سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣] وهذا يدل على أن في من كان قبلنا مكذبين كما قال سبحانه: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٨].

فالآية دليل على اتفاق الكفار على تكذيب الرسل وأن ذلك لا يضر الله شيئاً ولا ينقص من ملكه شيئاً، ولكن النقص والضرر حاصل على من كذب الرسل فيما دعوا إليه من عبادة الله والبراءة مما سواه، كما حصل للأمم من قبلكم: «فحل بها سخط الله ونزل بها منه عاجل عقوبته فسبيلكم سبيلها فيما هو نازل بكم بتكذيبكم»[1].

ومما ورد عنهم ذكر تفاهة معبوداتهم.

والله سبحانه وتعالى بين الكفار تفاهة معبوداتهم وأنها لا تغني منه شيئاً، فقال سبحانه عن خليله إبراهيم حينما دعا قومه: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فالأصنام لا تملك من الرزق مثقال ذرة، لذلك جاء رزقاً منكراً ـ بالنسبة لها ـ أما إضافته إلى الله فجاء معرفاً (الرزق) لأن جميعه من سبحانه «ومعلوم أن النكرة في سياق النفي تقتضي العموم ـ أما في الإثبات فلا بد من التعريف»[2].

وقد تقدم توضيح الآية في دعوة إبراهيم ص: ٣٥٢.

ومما بينه الله سبحانه وتعالى عن تفاهة تلك المعبودات كذلك ما ورد عن إبراهيم في دعوته لقومه يقول الله سبحانه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢٠/١٣٨.
(٢) انظر تلقيح الفهوم ص: ٣٩٨.

﴿مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥].

ففي هذه الآية بيّن لهم حقيقة هذه العبارة، وأنها لا لشيء إنما للاجتماع والتواد فيما بينهم وإلا فهي أوثان ـ والأوثان لا تنفع نفسها فكيف يرجى منها أن تنفع غيرها.

ولكن هذا الاجتماع والتواد الذي لم يكن لله ولأجله ينقلب ويتغير إلى بغض وشنآن، ويجحد بعضكم بعضاً، ويلعن بعضكم بعضاً أي يلعن الأتباع المتبوعين والمتبوعون الأتباع»[(١)] كما قال سبحانه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧].

هذا وإن كانت الآيات لقوم إبراهيم إلا أنها تحذير وإنذار لمن يسلك مسلكهم من هذه الأمة، فإن مصيره كمصيرهم، وهو النار ولا أحد منقذهم منها، وهذا من ترهيبهم وإنذارهم من مغبة ما هم فيه من الكفر.

ومما بينه الله سبحانه وتعالى عن تفاهة معبوداتهم قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: ٤١].

قال ابن كثير: «هذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت فإنه لا يجدي عنه شيئاً، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء»[(٢)] أهـ.

ولما بين الله سبحانه تفاهة تلك المعبودات رهبهم وبين أنه عالم بهم وبحالهم وحال من يدعونه وأنه لن يغنيهم من الله شيئاً، فهل من رجوع إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ [العنكبوت: ٤٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/ ٦٥٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٥٩.

جزاء من استمر على تلك المعبودات:

وبعد ما بين الله سبحانه تفاهة تلك المعبودات من دونه بين عاقبة من يتخذها من دونه أولياء ممن هلك من الأمم الماضية، كما بين إبراهيم لقومه تفاهة أصنامهم، قال: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٥]. كما حصل لقوم نوح حيث أغرقوا - وكذلك فرعون وقومه وغيرهم، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فالله عز وجل دعا الناس جميعاً إلى دينه بما بينه لهم من حال المشركين وحقيقة المنافقين، واستقامة المؤمنين، وحسد الكتابيين، وغير ذلك في كتابه الكريم وما أعز الله به هذا الدين وخذل أعداءه مما جعل الناس يعرفون حقيقة هذا الدين فأقبلوا عليه كما قال سبحانه بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾﴾ [سورة النصر: ٣].

فكان منهم دعاة مخلصين كما أن هذه الدعوة باقية إلى يوم الدين فإن من تدبر هذا القرآن العظيم وفهم ما فيه من الذكر الحكيم في كل زمان ومكان، فإنه لا بد أن يكون في نفسه شيء مما هو فيه، فإن أراد الله به خيراً هداه إلى صراطه المستقيم، وإن أراد به غير ذلك ولاه وما تولى ومأواه جهنم وبئس المصير.

لذلك بعض الناس لم تنفع فيه هذه الآيات والمواعظ شيئاً ككفار قريش فقد كذبوا بالقرآن والرسول وتعنتوا في طلب المعجزات وتحدوا في نزول العذاب كما سيأتي تفصيله مع ما وضحه الله لهم من الآيات البينات.

ومما ورد عنهم في السورة تكذيبهم بالقرآن والرسول.

لقد تقدم في إنكار البعث أنه ناتج عن إنكار الرسالة وإنكار القرآن كذلك، لذا سأعرض في هذا الموضوع موقف المشركين من القرآن وكيف أن الله سبحانه وتعالى دحض حججهم وردهم على أعقابهم، فقد بين الله سبحانه وتعالى أنهم يؤمنون به في الحقيقة ولكنهم ينكرونه مكابرة، ومعاندة، لأن الجحود لا يكون إلا بعد المعرفة، كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت: ٤٧].

يقول الطبري[1] في تفسيره، يقول تعالى ذكره: «وما يجحد بأدلتنا وحججنا إلا الذي يجحد نعمنا عليه، وينكر توحيدنا وربوبيتنا عن علم منه عناداً لنا.

وروى عن قتادة: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ قال: «إنما يكون الجحود بعد المعرفة»[2].

ومن الأدلة على معرفته أنهم أعجبوا به واعترفوا أنه ليس من كلام البشر كما حدث للوليد بن المغيرة حينما جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن وكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فقال له: يا عم أن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه فإنك أتيت محمداً تتعرض له لما قبله، فقال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وكاره، قال: وماذا أقول؟، فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزها وبقصيدها مني، والله ما يشبه الذين يقول شيئاً من هذا، والله أن لقوله الذي يقول حلاوة وأن عليه لطلاوة، وأنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وأنه ليعلوا، وما يعلى، قال: ألا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فقال: ﴿هذا سحر يؤثر﴾ بأثرة عن غيره فنزلت: ﴿ذرني ومن خلقت وحيدا﴾ الآيات كلها[3]. المدثر.

فهذه الرواية وغيرها تدل على أنه عرف أنه ليس من كلام البشر ولكنه عاند

---

(١) تقدمت ترجمته ص: ٤٩.

(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢١/ ٤.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٤٧٥، وساق روايات أخرى. مستدرك الحاكم: ٢/ ٥٠٦، ٥٠٧، والصحيح المسند من أسباب النزول ص ١٦٧، انظر سيرة ابن هشام: ٢٨٨١.

وكابر فأطلق عليه سحراً إرضاء لقومه، وكذلك ما حدث لبعض زعماء قريش في استماعهم القرآن، فقد أخرج ابن إسحاق[١] قال: حدثني محمد[٢] بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوجعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه «فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا»[٣].

فهذه الحادثة تدل على أن هذا القرآن قد أحدث في أنفسهم شيئاً وأنهم وجدوا فيه شيئاً قد شدهم إليه حيث أنهم عادوا ثلاث مرات بعد اتفاقهم على عدم العود، وبقية هذه الحادثة يدل على ما وجدوا من صدق هذا القرآن حيث أن بعضهم آمن كأبي سفيان، وبعضهم جحد كأبي جهل، والجحود يكون بعد العلم كما تقدم وبقية الحادثة «أن الأخنس بن شريق لما أصبح أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟، فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به كذلك»[٤].

---

(١) تقدمت ترجمته ص: ٢٩٢.

(٢) هو محمد بن مسلم بن شهاب بن عبدالله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، روى عن ابن عمر وجابر شيئاً قليلاً وأنس بن مالك، عالم بالسنة ثبت، حجة، ت ١٢٤ هـ. سير أعلام النبلاء: ٥/٣٢٦.

(٣) سيرة ابن هشام: ١/٣٣٧.

(٤) السيرة لابن هشام: ١/٣٩٧.

فهذا أبو سفيان يقر بما فيه، ويتبين تأثيره عليه من خلال هذه الإجابة، ولكن قد يكون سبب الجحود طلب الشرف والرفعة والحسد للرسول ﷺ، وهذا ما حدث لأبي جهل بن هشام حينما جاء الأخنس وقال له: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمد؟، فقال: ماذا سمعت، تنازعنا ونحن بنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرس رهان؟، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى تدرك مثل هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه[1].

وهؤلاء الزعماء من قريش وغيرهم لما رأوا من شدة تأثير القرآن على النفوس تعاهدوا أن لا يعودوا لأجل أن لا يقتدى بهم غيرهم، وحاولوا معارضة القرآن بكل وسيلة كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

ولكن لم يستطيعوا ذلك، فقد أثر القرآن على الناس بأسلوبه وفصاحته التي هزت المشاعر، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم أعقل أبوي إة وهما يدينان الدين ولم يمر علينا يوم إلا علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار، بكرة وعشية، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره، فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، فيقف عليه نساء المشركين، وأبنائهم، يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرىء القرآن فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين»[2].

والكفار على وجه العموم أنكروا القرآن وقالوا إنه مختلق مكذوب جاء به محمد من عند نفسه، واستعان على تجميعه وتصنيفه بقوم آخرين.

وقد بين الله سبحانه مقولتهم هذه بقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾ [الفرقان: ٤].

---

(١) السيرة لابن هشام: ١/ ٣٣٧.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ١٢٢، الصلاة باب المسجد يكون في الطريق، بهذا اللفظ، ومطولاً في: ٣/ ٥٨، الكفالة باب جوار أبي بكر في عهد النبي ﷺ وعقده: ٤/ ٢٥٤، ومختصراً في: ٣/ ١٠٢ المظالم باب أفنية الدور، سيرة ابن هشام: ٢/ ١٣.

وقد نقض الله سبحانه هذه الدعوى بأمرين هما:

١ ـ أن محمداً ﷺ رجل أمي لا يكتب ولا يقرأ، فكيف ظهر عليهم فجأة بهذه المعلومات، قال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فلا يعقل أن يكون هذا النظام العام الشامل الذي يعجز البشر عن مثله أنه يأتي به رجل أمي لم يتعلم من أحد ولم يجالس أهل الفلسفة والمنطق، فلا شبهة لهم في ذلك فهو من عند العزيز الحكيم[١].

٢ ـ أنه لو كان من عند محمد ومن استعان به من المفكرين، فإنكم يا أهل قريش أرباب فصاحة وبيان، فلو استعنتم بأهل الكتاب، وما لديهم من أخبار وقصص لكنتم أقدر من محمد، فدليل على أن محمد لم يأتي به من عند نفسه حيث تحداهم الله بأن يأتوا بمثل هذا القررن فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور منه فعجزوا ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة فتحدى الله سبحانه عموم الثقلين ليقطع لجاجهم ومكابرتهم في كل زمان ومكان، قال سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقد تقدم في قصة الوليد بن المغيرة أنه ادعى أن القرآن سحر والحقيقة أن هناك فرقاً كبيراً بين المعجزة والسحر ومن أهم الفوارق وأوضحها أن ما يختص بالسحر والكهانة فإنه لا يخرج عن مقدور الإنس والجن، أي يمكنهم التوصل إليه بطريق من الطرق التي يتعلمونها كما أن نهاية الساحر الخذلان والبوار ووجود من يعارضه وينتصر عليه في هذه الدنيا، أما بآيات الله أو بسحر أقوى منه[٢].

أما المعجزة فإنها ليست في مقدور أحد وإنما هي بإرادة الله بقوله ﴿كن﴾ ونهاية صاحبها الفوز بالدنيا والآخرة وفشل من يعارضه و لا ينكر هذا وغيره إلا مكابر مثل من ينكر العلوم الضرورية، لذلك لم يلتفت الرسول ﷺ إلى قولهم ولا

---

(١) انظر مناهج الجدل ص ٢٨٦.

(٢) انظر النبوات لابن تيمية: ٢٥٩ ـ والفتاوى: ١١/ ٣١١، ومجموعة الرسائل والمسائل (قاعدة في المعجزات والكرامات: ٥/ ٣) تعليق محمد رشيد رضا ـ دار الباز ـ مكة.

أحد من أصحابه وذلك علماً منهم أن الكفار قد عرفوا الآيات فجحدوها، وقد بين الله سبحانه براءة الرسول من ذلك كما يعرفونه هم بالخبرة، قال سبحانه: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون: ٦٩].

والسحر ليس من علوم البداهة بل لا بد من تعلمه من أربابه، والرسول ﷺ لم يتعلم على يد ساحر حتى أنه كان لا يعرف القراءة والكتابة وهم يعرفون ذلك عنه، قال الله سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨][١].

فمهما ادعى مدعي أنه ﷺ جلس إلى عالم أو تعلم منه فإنه لا يستطيع أن يقدم برهاناً على هذا البهتان إلا ما يجده في نفسه من وحي الشيطان.

يقول ابن تيمية: فإن محمداً ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحاله كان أمياً من قوم أميين، مقيماً بمكة، ولم يكن عندهم من يحفظ التوراة ولا الإنجيل ولا الزبور، ومحمد ﷺ لم يخرج من بين ظهرانيهم ولم يسافر قط إلا سفرتين..، ولم يجتمع قط بعالم أخذ عنه شيئاً، لا من علماء اليهود والنصارى، ولا من غيرهم لا بحيري ولا بغيره ولكن كان بحيري الراهب لما رآه عرفه لما كان عنده من ذكره ونعته، فأخبر أهله بذلك وأمرهم بحفظه من اليهود»[٢].

وقد أورد الكفار عدة شبه للطعن في هذا القرآن الكريم والتشكيك في صحة رسالة سيد المرسلين، وقد ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ورد عليها رداً مفحماً ولكن: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾ [الكهف: ١٧].

والرد عليهم واضح في كتاب الله عز وجل وآياته في الأنفس والآفاق ولكن القوم لم يقفوا عند هذا الحد، بل طلبوا الآيات تعنتاً.

فمما ورد عنهم في السورة طلبهم إنزال الآيات تعنتاً.

اقتضت حكمة الباري جل وعلا أن يرسل الرسل ويؤيدهم بالآيات الواضحة

---

(١) انظر معالم الدعوة في القصص القرآني: ١/٣٤٦.

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ١/١٩٧.

ليتبين الصادق من الكاذب ممن ادعوا الرسالة كما قال سبحانه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ١٨٤﴾ [آل عمران: ١٨٤].

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ٧٠﴾ [التوبة: ٧٠].

ففي هاتين الآيتين وغيرهما يبين الله سبحانه إنزاله الآيات ولكن المكذبين للرسل يعرضون عن تلك الآيات مع أنه ليس فيها خفاء أو ضعف في الحجة والبرهان، ولكنها الرغبة عن الحق أما عناداً أو استكباراً عن قبول الحق أو التقليد الأعمى بما كان عليه الآباء والأجداد ومع وضوح الآيات التي يأتي بها الرسل عليهم الصلاة والسلام وكونها لا تخفى على أحد إلا أن الكفار لا يكتفون بها في الاستدلال على صدق الرسل، وما جاؤوا به، ولكنهم يطلبون منهم آيات حتى لكأن الرسل لم يأتوا بشيء من الآيات، فهذا يدل على أن الكفار عندما يطلبون آيات فإنهم لا يريدون الاهتداء بعد الاستجابة لمطالبهم، وإنما يطلبونها لمجرد التعنت.

وموقف كفار قريش من القرآن كما تقدم ثم طلبهم من محمد ﷺ إنزال الآيات لهو أصدق دليل على ذلك، قال سبحانه عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥٠﴾ [العنكبوت: ٥٠].

فكيف يطلبون إنزال الآيات من محمد ﷺ وقد أنزل الله لهم من الآيات الحسية والمعنوية ما يكفي ويشفي كانشقاق القمر[١] - والإسراء والمعراج[٢] - وحنين الجذع[٣] - ونبع الماء من بين أصابعه[٤] - وأكبر آية هي إنزال القرآن الكريم كما سيأتي.

---

(١) انظر صحيح البخاري: ٤/ ٢٤٣.
(٢) انظر صحيح البخاري: ٤/ ١٦٨.
(٣) انظر صحيح البخاري: ٤/ ١٧٣.
(٤) انظر صحيح البخاري: ٤/ ١٧٠.

فالآيات والمعجزات ليست بيد الرسول ﷺ وإلا فهو حريص على هدايتهم وكان يتمنى أن ينزل بعض ما طلبوا لعلهم يهتدون، ولكن الله العليم الحكمي بيّن له أنهم لن يهتدوا حيث قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنعام: ٣٤ ـ ٣٥].

وإذ نزلت الآيات وأنكروا كان ذلك سبباً لهلاكهم وهي سنة الله في الأمم الماضية كما قال سبحانه عن قوم صالح: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩].

فبين الله سبحانه في هذه الآية أن عدم إرسال الآيات هو عدم تصديقهم لها حيث كذب بها من قبلهم فكان ذلك سبب هلاكهم كما قال سبحانه عنهم: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٧].

وقد روى الإمام أحمد[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: «إن شئت أن تستأني بهم وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم»، قال: لا بل أستأني بهم فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء: ٥٩].

فتبين من هذا أن الآيات من عند الله وأنه حجب مطالبهم لسبب وأنزل آيات أخرى أوضح في الدلالة وهو القرآن، ولكن الرسول ﷺ ليس بيده من إنزال الآيات

---

(١) أحمد: ١/٢٥٨، الطبري في التفسير: ٥/١٠٨، الحاكم في المستدرك: ٢/٣٦٢، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، مجمع الزوائد: ٧/٥٠، أسباب النزول للواحدي: ٣٣٣.

شيء كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠].

ووجهه أنه ليس من شرط الرسالة إظهار المعجزة وإنما المعجزة التوقف في الرسالة، ولهذا علم وجود رسل: كشيث وإدريس وشعيب ولم يعلم لهم معجزة، وكان في بني إسرائيل أنبياء لم تعرف نبوتهم إلا بقول موسى أو غيره، فليس على النبي إلا النذارة»[1].

فمهمة الرسول التبليغ والإنذار، وإنزال الآيات يكون بعلم الله، وحكمته وليس لأحد أن يقترح عليه شيئاً سبحانه فهو سبحانه الذي يأذن للأنبياء أن يأتوا بالآيات فهم لا يأتون بها من عند أنفسهم كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد: ٣٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [غافر: ٧٨].

القرآن في نفسه معجزة كافية:

فالكفار حينما طلبوا الآيات التي تدل على صدق الرسول ﷺ بين الله سبحانه وتعالى لهم أن لديهم آيات واضحات تدل على صدق الرسول وما جاء به وإن كان مما لم يقترحوه، وذلك هو القرآن الكريم حيث قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١].

يقول ابن كثير رحمه الله: «ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم وسخافة عقلهم حيث طلبوا آيات تدل على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، الذي هو أعظم من كل

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٢١/ ١٠.

معجزة، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته بل عن معارضة عشر سور من مثله بل عن معارضة سورة منه.

أولم يكفهم آية إنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ونبأ ما بعدهم وحكم ما بينهم»[1] أهـ.

وساق حديثاً عن الإمام أحمد رحمه الله وهو قول النبي ﷺ: (ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)[2].

فهذا القرآن الذي لم يكفيهم بما فيه من إعجاز وبلاغة وفصاحة وأخبار بالمغيبات، وشريعة صالحة لكل زمان ومكان فأي شيء يريدون؟، وقد تحداهم الله به وأعجزهم أن يأتوا بشيء على منواله، وهذا التحدي نفسه من معجزات القرآن الخالدة إلى يوم القيامة لأنه أعجز أهل اللسان وفحول البيان وقت نزول القرآن عن الإتيان بسورة من مثله، فإن من سواهم من المتأخرين أولى بالعجز لاستيلاء العجمة على ألسنتهم»[3]... وهذا التحدي من الله سبحانه وتعالى ما زال قائماً على كل كافر وملحد ينال من القرآن أن يوافينا بسورة من مثل سورة حاوية معانية ومشتملة على الفصاحة والبلاغة والإعجاز، وإلا مكابراً مع العجز الفاضح وما أخسها من صفة، وما أقبحها من فعلة»[4].

وقد ذكر العلماء رحمهم الله تعالى وجوهاً عديدة في إعجاز القرآن ذكر بعضها الشيخ مناع القطان، ثم قال: «والحقيقة أن القرآن معجز بكل ما يتحمله هذا اللفظ من معنى فهو معجز في ألفاظه وأسلوبه، والحرف الواحد منه في موضعه من الإعجاز الذي لا يغني عنه غيره في تماسك الكلمة، والكلمة في موضعها من الإعجاز في تماسك الجملة، والجملة في موضعها من الإعجاز في تماسك الآية وهو معجز في بيانه ونظمه، يجد فيه القارىء صورة حية للحياة والكون والإنسان،

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/٦٦٦.

(٢) صحيح البخاري: ٦/٩٧ فضائل القرآن باب كيف نزول الوحي (١)، و ٨/١٣٨ الاعتصام باب قول النبي ﷺ: (بعثت بجوامع الكلم). صحيح مسلم: ١/١٣٤ الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، مسند أحمد: ٢/٣٤١، ٤٥١.

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم: ٢/٢٩.

(٤) صفوة المفاهيم والآثار: ١/٤١.

وهو معجز في معانيه التي كشفت الستار عن الحقيقة الإنسانية ورسالتها في الوجود.

وهو معجز بعلومه ومعارفه التي أثبت العلم الحديث كثيراً من حقائقها المغيبة ـ وهو معجز في تشريعاته وصيانته لحقوق الإنسان وتكوين مجتمع مثالي تسعد الدنيا على يديه»[1] أهـ.

ومعلوم أن القرآن أعظم معجزة جاء بها الرسول ﷺ وفيه ما يغني عن كل معجزة لمن كان يريد الحق والاهتداء إلى الصواب، فإن المشركين كانوا إذا طلبوا آيات من رسول الله ﷺ جاءت إلا حالة أحياناً من الله سبحانه، على القرآن لبيان أنه يغني عن كل آية حسية يطلبونها وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠ ـ ٥١].

ومع هذا الإعجاز والتحدي إلا أن القوم لم يقتصروا على ذلك بل حاولوا التحدي فطلبوا استعجال العذاب.

فمما ورد عنهم في السورة: استعجالهم العذاب.

لقد كان إصرار الكفار على تكذيب محمد وما أنزل عليه قد أعمى بصائرهم مما جعلهم يبحثون عن أساليب متعددة للعناد والتكذيب، حيث صموا آذانهم، وأغلقوا عقولهم وأبصارهم عن تدبر كل آية تأتيهم فإذا لم يستطيعوا دفع الحجة وغلبتهم لجأوا إلى الأساليب الملتوية كما تقدم في طلبهم إنزال الآيات، وفي هذه المرة يطلبون العذاب العاجل لينزل بهم، حينما أنذروا به وحذروا منه كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِى وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [العنكبوت: ٢٣].

وكما قال رسول الله ﷺ: (أيها الناس: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد)[2].

---

(١) مباحث في علوم القرآن: ص ٢٦٢.

(٢) جزء من حديث تقدم تخريجه ص: ٢٣٣.

وما كان هذا منهم إلا على جهة التعجز والتكذيب والاستهزاء بالعذاب الذي كان يتوعدهم به الرسول ﷺ[1]، فهم يزعمون أنه كاذب فيما يخوفهم به من بأس الله وعقابه[2]، وطلبهم هذا يدل على أنهم لا يتبعونه وإن كان هو الحق المنزل من عند الله، «وهذا طلب غريب يصور حالة من العنادة الجامح الذي يؤثر الهلاك على الإيمان للحق حتى ولو كان حقاً.

إن الفطرة السليمة حين تشك تدعو الله أن يكشف لها عن وجه الحق وأن يهديها إليه، دون أن تجد في هذا غضاضة، ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة، تأخذها العزة بالإثم، حتى تؤثر الهلاك والعذاب على أن تخضع للحق، عندما يكشف لها واضحاً لا ريب فيه...»[3].

وما هذا إلا لشدة الجهل والحماقة، وإلا فقد بين الله سبحانه وتعالى فظاعة ذلك العذاب وفداحته فلا يستعجله إلا جاهل، مثلهم، فأين هم من قول الحق سبحانه: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [هود: ٨].

وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يونس: ١٠].

والآيات في ذلك كثيرة جداً.

ولكن ترى المشركين وصل بهم الحد إلى منتهى العناد والمكابرة فأبوا أن يذعنوا لسلطان الله، ويستسلموا لبرهانه، فقد كان له تأثير في نفوسهم عندما سمعوا حججه وآياته، فما كان من عنادهم إلا أن يستعجلوا العذاب ويحددوه وهذا من أدلة إمعانهم في الكفر والشقاء حيث يستعجلوا ما لا خير لهم فيه ويقترحوا أنواعه وتحديده حيث قال الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٢].

---

(١) البحر المحيط: ٧/٢٥٦.
(٢) أضواء البيان: ٣/٧٩.
(٣) في ظلال القرآن: ٣/١٥٠٥.

وهذا مما جعل غيرهم يستهجن طلبهم هذا وخروجه عن الفطرة السليمة لأنه كان الأولى بأولئك المشركين يأن يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا لإتباعه.. ولكن العناد الجامح الذي استولى عليهم جعلهم يؤثرون الهلاك على الإذعان للحق، ويفضلون عبادة الأصنام على إتباع محمد ﷺ الذي دعاهم إلى عبادة الله وحده...

وهكذا النفوس عندما تنغمس في الأحقاد، وتتمادى في الجحود وتنقاد للأهواء والشهوات، وتأخذها العزة بالإثم ترى الباطل حقاً والحق باطلاً، وتؤثر العطاب وهي سادرة في باطلها على الخضوع للحق والصواب.

الحكمة من تأخير العذاب:

ومع عنادهم هذا وعتوهم إلا أن رحمة الله وحكمته اقتضت عدم تعجيل العقاب لهم وتأخيره إلى أجل مسمى قيل إنه يوم القيامة وقيل: أجل الحياة إلى الموت أو أجل الموت إلى حين البعث، وقيل مدة أعمارهم وقيل يوم بدر[1]، وعلى أي حال فإن الله سبحانه «وعد رسوله ﷺ أن لا يعذب قومه ويستأصلهم، وأن يؤخر عذابهم»[2].

وتأخير العذاب لحكم عظيمة وغايات جليلة قد نعلمها وقد لا نعلمهغ، فمما نعلمه من تلك الحكم ـ استدراج الظالمين ليزدادوا عتواً وفساداً.

ـ امتحان المؤمنين ليزدادوا إيماناً وثباتاً.

ـ تخلف امنافقين الذين لا يطيقون الصبر والثبات لتنكشف حقيقتهم ويتبين أمرهم.

ـ استبقاء من يعلم الله فيهم خيراً من أولئك المنحرفين حتى يتبين لهم الرشد من الغي فيثوبوا إلى الهدى، وهذا واضح من هداية الله سبحانه وتعالى لبعض الناس الذين كانوا ألد أعداء للدعوة في بدايتها.

ـ استخراج الذرية الصالحة من ظهور هؤلاء المعاندين تعبد الله سبحانه وتعالى كما قال رسول الله ﷺ لملك الجبال (بل استأنى بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبد الله).

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٦/ ٢٨٠.

(٢) انظر تفسير البغوي: ٣/ ٤٧١.

كما أخرج البخاري ومسلم رحمهما الله أن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟، قال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد، فقال: وذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً)[(1)].

وبعد فإن في ذلك درس وعبرة للدعاة ليكونوا حريصين مشفقين على من يدعونهم إلى الله لا تأخذهم العجلة والغيرة، فإن الله سبحانه وتعالى أغير على دينه كما قال رسول الله ﷺ: (يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يرى عبده أو أمته يزني، يا أمة محمد: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً).

فالله أحكم وأرحم من عباده حيث أخر العذاب عنهم لحكم عظيمة كما تقدم وكما بين سبحانه في قوله عز وجل: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فمن حكمة الله وعدله أنه لم يعذب أمة محمد عذاب استئصال ما دام نبيهم بين أظهرهم، فقد ظهر من أمته من يعبد لله فلو أهلكوا لما حصل من ذريتهم من يحمل راية الإسلام ويجاهد في سبيل الله وهذا من رحمة الله سبحانه بهذه الأمة كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: (إن الله عز وجل إذا أراد رحمة أمة من عباده، قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطاً وسلفاً بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حي، فأهلكها وهو ينظر، فأقر عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره)[(2)]، أما بالنسبة لاستغفارهم فمعناه نفى الاستغفار عنهم أي لو كانوا ممن يؤمن ويستغر من الكفر

---

(١) صحيح البخاري: ٤/ ٨٣ كتاب الخلق باب إذا قال أحدكم آمين.
صحيح مسلم: ٣/ ١٤٢٠، الجهاد باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين.
(٢) صحيح مسلم: ٤/ ١٧٩١ الفضائل باب إذا أراد الله تعالى رحمة أمة قبض نبيها قبلها.

لما عذبهم كقوله سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [هود: ١١٧].

ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون ولا يتوقع ذلك منهم، وقيل معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر وهو المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف»(١).

وقيل إن الاستغفار هو قولهم في الطواف (غفرانك).. وقيل ما كان في أصلابهم ممن يستغفر الله»(٢).

وهذا يدل على حلم الله سبحانه وتعالى وحكمته ورحمته حيث أمهل هؤلاء المعاندين إلى الأجل المسمى لتلك الحكم التي تقدمت وإلا فهو سبحانه معذبهم لا محالة ممن استمر على عناده وكفره كما قال جل وعلا: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥٤].

وبعد هذا التعنت في طلب الآيات والتحدي في استعجال العذاب أخبر الله عنهم أنهم يعترفون بربوبيته ويشاهدون نعمه العظيمة عليهم من الإنجاء من الغرق والأمن في الحرم.

فذكرهم الله بذلك، رحمة بهم لعلهم يرجعون أو تقوم عليه الحجة فيسلط عليهم ما يستحقون،

فمما ورد عنهم في السورة اعترافهم بالربوبية وإنكار الألوهية:

لقد كان من الأساليب التي سلكها القرآن في دعوة الكفار ليخلصوا العبادة لله وحده هو تقريره اعترافهم بربوبية الله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة من كتابه.

ففي سورة العنكبوت قوله سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وفي آية أخرى في نفس السورة يقول سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

---

(١) الكشاف: ٢/ ١٢٤.

(٢) فتح القدير: ٢/ ٣٠٤.

فالإقرار بأن الله خالق كل شيء وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال: هو توحيد الربوبية الذي لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم (إلا الدهرية المنكرون للصانع)[1] بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

ولكن طائفة من الناس اعتقدت أن هذا التوحيد يكفي وأنه هو الذي بينه القرآن ودعت إليه الرسل ونزلت به الكتب، ولكن هذا ليس بصحيح إذ لو كان كذلك لما نعى الله على كفار قريش كفرهم حيث كانوا يقرون بهذا التوحيد كما دلت عليه الآيات السابقة، ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم، فهم مقرون بالصانع، وأنه ليس للعالم صانعان، ولكن اتخذوا هؤلاء شفعاء[2]، كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر: ٣].

وقد بين لله سبحانه وتعالى لنا في تلك الآيات التي نحن بصددها موقف المشركين وتصوراتهم المتناقضة حيث يقرون بخلق الله للسموات والأرض وتسخيره للشمس والقمر وآنزال الماء من السماء وإحياء الأرض، وما يتضمنه هذا من بسط الرزق لهم أو تضييقه عليهم، ثم هم بعد ذلك يشركون بالله في العبادة، وهذا تناقض عجيب يعجب الله منه في هذه الآيات ﴿فأنى يؤفكون﴾ أي كيف يصرفون عن الحق إلى هذا التخليط العجيب[3].

ومعلوم أنه ليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف وغيرهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٢٣٠.

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية: ص ٧٨.

(٣) انظر في ظلال القرآن: ٥/ ٢٧٥٠.

وذلك لو أقر رجل بما يستحقه الرب تعالى من الصفات، ونزهه عن كل ما عنه، وأقر بأنهوحده خالق كل شيء ـ لم يكن موحداً بل ولا مؤمناً حتى يشهد أن لا إله إلا الله وحده هو الإله المستحق للعبادة ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له. . . ومشركوا العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء وكانوا مع هذا مشركين[1]، قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

والله سبحانه وتعالى قرر في هذه الآيات وغيرهاأنه الإله المستحق للعبادة حيث أن المشركين اعترفوا بأنه مستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر وتسخير الليل والنهار، وأنه الخالق الرازق لعباده، ومقدر آجالهم واختلافها، واختلاف أرزاقهم. . . فإذا كان الأمر كذلك فلم يعبدوا غيره؟، ولم يتوكلوا على غيره؟، فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الألوهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان المشركون يعترفون بذلك كما كانوا يقولون في تلبيتهم (لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك)[2].

وهذا عجيب من أهل مكة وغيرهم لم يعبدوا الله مخلصين مع علمهم بأنه حالقهم ورازقهم فكيف يصرفون عن توحيد الله وتعظيمه.

ولا عظمة فوق عظمة خالق الذرات، والأرض والسموات فكيف يشركون عبادة خالق الموجودات ويشتغلون بعبادة أخس المخلوقات[3] وبلا شك أن هذا انتكاس عن الفطرة لذلك أمر المصطفى ﷺ بحمد الله سبحانه على هذه النعمة، وهي نعمة العبادة لله وحده والبراءة من التناقض والتهافت، حيث لم يعملوا بعلمهم، فلذلك وعدهم الله من الذين لا يعقلون حيث لم تهدهم عقولهم إلى الحق كما قال سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل: ١/ ٢٢٥.
(٢) صحيح مسلم: ٨٤٣/٢ الحج باب التلبية.
(٣) انظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٢١/ ١٤ ـ بتصرف ـ.

ومعرفة المشركين بربوبية الله سبحانه وتعالى معرفة حق فلم ينكر الربوبية إلا شرذمة قليلة يقوم إنكارها على محض المكابرة والعناد، وكثيراً ما يزول هذا العناد عند التعرض للشدائد، فيعود الإيمان إلى نفوس المعاندين والمكابرين، فيجأرون إلى الله ضارعين كما بينه الله سبحانه في آيات كثيرة من كتابه وفي سورة العنكبوت كما قال سبحانه: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

«وقد ذكر محمد[1] بن آسحاق أن عكرمة[2] بن أبي جهل لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فاراً منها، فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة، فقال أهلها: يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء فإنه لا ينجي ها هنا إلا هو، فقال عكرمة: «والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره، فإنه لا ينجي في البر أيضاً غيره، اللهم لك علي عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رؤوفاً رحيماً»[3].

الامتنان عليهم بالنعم:

وكذلك من الأساليب التي سلكها القرآن في دعوة الكفار، الامتنان عليهم بالنعم كما قال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

فبعد أن ذكر الله المشركين حين يشتد بهم الخوف إذا ركبوا في الفلك ونحوه لجؤوا إلى الله وحده مخلصين له العبادة، ذكرهم في هذه الآية حين الأمن في حصنهم الحصين وهو مكة التي يأمن من دخلها من الشرور والأذى يكفرون به ويعبدون معه سواه، وتلك حال من التناقض لا يرضاها لنفسه عاقل فإن دعاؤهم إياه حال الخوف مع الإخلاص، ما كان إلا ليقينهم بأن نعمة الحياة منه لا من سواه، فكيف يكفرون به حين الأمن، وهم يوقنون بأن الأصنام حين الخوف لا

---

(١) تقدمت ترجمته ص: ٢٩٢.

(٢) هو المخزومي، استشهد في اليرموك. أسد الغابة: ٣/ ٥٦٧. وتقدم في ص ٣٢١.

(٣) تفسير ابن كثير: ٣/ ٦٧١، وأسد الغابة: ٣/ ٥٦٨.

تجديهم فتيلاً ولا قطميراً؟[1].

وبلا شك أن مكة كانت ولا تزال بلداً أمناً لوجود البيت الشريف فيها، فقبائل العرب متفقة على احترام البيت وتعظيمه لنسبته إلى الله، حتى أن من دخله يأمن على نفسه لا من الاعتداء عليه وإيذائه فقط، بل يأمن أن يثأر منه ومضى على هذا عمل الجاهلية على اختلافها في المنازع والأهواء والمعبودات وكثرة ما بينها من الأحذاد والأضغان[2].

وقال قتادة[3] في قوله: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ قال: كان هذا في الجاهلية، كان الرجل لو جر كل جريرة على نفسه ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يطلب»[4].

وقال ابن كثير: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ يعني: حرم مكة، إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء، وكذلك كان الأمر في حال الجاهلية، كما قال الحسن البصري وغيره: «كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول فلا يهيجه حتى يخرج»[5] أهـ.

وعن ابن عباس قال: «من عاذ بالبيت «أعاذه البيت ولكن لا يؤوي ولا يطعم ولا يسقي، فإذا خرج أخذ بذنبه».

وقال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقوله تعالى: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾ ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [سورة قريش: ١ ـ ٤].

وحتى أنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها وتنفيره عن أوكاره وحرمة

---

(١) تفسير المراغي: ١١/ ٢١.
(٢) تفسير المنار: ٤/ ٨.
(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢/ ١٢، وفتح القدير: ١/ ٣٦٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم: ١/ ٥٧٤.
(٥) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢/ ١٣.

قطع شجرها وقلع حشيشها كما وردت بذلك الأحاديث والآثار، ومن ذلك ما ثبت عن رسول الله ﷺ يوم الفتح حيث قال: (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وأنه لم يحل القتل فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، ولا يعضد شوكة ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه)[1]. . . الحديث. . .

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح)[2].

وبلا شك أن هذه نعمة عظيمة وإجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فالنعمة لا بد لها من شكر لمنعها، ومن شكرها معرفتها والاعتراف بأنه هو مسديها، فالنعم تدوم وتزداد بالشكر كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٧].

فالشكر استعمال المواهب والنعم فيما وهبت لأجله، فالذين يقولون إننا لا نقدر على فهم هذا الدين وإنما علينا اتباع آبائنا وأجدادنا، فأولئك كافرون بنعمة العقل كما قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وكذلك الذين يتخذون وسطاء بينهم وبين الله تعالى لأجل التقرب إليه زلفى بغير ما شرعه الله منالدين، فقد احتقروا نعمة الله.

فالله سبحانه وتعالى ذكر كفار قريش بهذه النعمة التي خصهم بها دون سائر الناس، مع كفرهم بنعمته، وإشراكهم في عبادته.

---

(١) صحيح البخاري: ٤/٧٢ الجزية باب إثم الغادر والفاجر، وانظر: ٣/١٣، و ١/٣٥، صحيح مسلم: ٢/٩٨٧ حج باب تحريم مكة وصيدها.
كما أخرج الترمذي وابن ماجة وأحمد بألفاظ متقاربة.

(٢) صحيح مسلم: ٢/٩٨٩ الحج باب النهي عن حمل السلاح بمكة، واللفظ له، أحمد: ٣/٣٤٧.

قال الطبري: «أفلم ير هؤلاء المشركون هذه النعمة فيشكروا الله عليها وينزجروا عن كفرهم بالله، وإشراكهم معه ما لا ينفعهم ولا يضرهم، فالله حرم على الناس دخول بلدهم بغارة أو حرب آمناً يأمن فيه من سكنه فآوى إليه من السبيء والخوف»[١] أهـ.

ومثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص: ٥٧].

فلما جعل الله الحرم آمناً وأكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى مقبلين على عبادة الأوثان، فبقاء هذه الحالة مع الإيمان أولى.

ن فإن درجة الشهادة أعلى وأجل، ومضرة التخطف أهون من العقاب الدائم، إلا أنه تعالى احتج عليهم بما هو معلوم من عادة العرب، وهو أنهم كانوا لا يتعرضون لساكن الحرم، والأمر البين للحس أولى بإقحام الخصم، فلذلك قدمه الله سبحانه»[٢].

وقد بين الله سبحانه وتعالى لهم في هذه السورة وغيرها عن أسبب الهلاك الحقيقة وهي البعد عن الله والأعراض عن اتباع رسله كما تقدم في دعوات بعض الأنبياء ولكن النظرة السطحية والتصور المحدود هو الذي أوحى لقريش هذه الشبهة حيث خافوا على مكانتهم بين العرب، وإلا فهم يعلمون أنه حق كما تقدم وكما قال سبحانه عنه: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص: ٥٧].

فهم بذلك نسوا الله ونسوا أنه هو الحافظ وحده، فكفروا بنعمته فأين ذهبت عقولهم، وانسلخت أحلامهم حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق، والشقاء على السعادة، وحيث كانوا أظلم الخلق[٣]، «فهم غافلون عن

---

(١) انظر الطبري: ٢١/ ١٤.

(٢) انظر غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٢٠/ ٥٦.

(٣) تفسير ابن سعدى: ٦/ ١٠٧.

الاستدلال وأن من رزقهم وأمنهم فيما مضى حال كفرهم يرزقهم لو أسلموا ويمنع الكفار عنهم في إسلامهم»[1].

وإن الكثير في هذا الزمان أمثالهم يشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه، يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تألب الخصوم عليهم، يخافون على اقتصادهم وكراسيهم وملكهم وجاههم؟، وما تلك إلا أوهام كأوهام قريش.

فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ربع قرن».

---

(١) تفسير القرطبي: ٧/ ٣٠٠.

الفصل الرابع

أهل الكتاب في السورة

المقصود بهم اليهود والنصارى[1]، ولم يرد ذكر لهم في السورة إلا قليل، فمما ورد عنهم أنهم ممن فتنوا من الأمم السابقة كغيرهم لغموم قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣].

وكما تقدم في حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه، وفيه: (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصده ذلك عن دينه)[2] الحديث...

ومما ورد عنهم في السورة قوله جل وعلا: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وقد اختلف العلماء في نسخ الآية فقال قتادة[3] ومقاتل[4]: «صارت منسوخة بقوله: ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾[5].

وعن ابن زيد[6] أنها ليست منسوخة[7].

---

(١) انظر جامع البيان عن تأويل القرآن: ١/١٢.

(٢) تقدم الحديث بتمامه في ص: ١٦٤.

(٣) تقدم في ص: ٢٧١.

(٤) هو: مقاتل بن سليمان البلخي، أبو الحسن كبير المفسرين، مجمع على تركه، ت سنة نيف ١٥٠ هـ. سير أعلام النبلاء: ٧/ ٢٠١. انظر ص ١٣١ من هذا البحث.

(٥) معالم التنزيل: ٣/ ٤٧٠، وانظر جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢/٢١.

(٦) هو جابر بن زيد، تقدم في ص: ٣٢٢.

(٧) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢/٢١.

قال ابن جرير[1]: «لا معنى لقول من قال: نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال وزعم أنها منسوخة لأنه لا خبر بذلك يقطع العذر، ولا دلالة على صحته من فطرة أو عقل. . ولا يجوز أن يحكم على حكم الله في كتابه بأنه منسوخ إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل»[2].

والأمر بالقتال لا ينافي المجادلة لأن الحكمان لم يتنافضا، كاستقبال بيت المقدس والكعبة ـ فلا يمكن الجمع.

بل هنا يمكن الجمع فيجادل أولاً فإن ظلم قوتل بالجهاد «ومعلوم أن كلاً منهما ينفع حيث لا يقع الآخر وأن استعمالهما جميعاً أبلغ في إظهار الهدى ودين الحق»[3].

ومما يؤيد ذلك أنه لا يتبين الظالم منهم في الغالب إلا بعد دعوته ومجادلته وإسماعه الحق، فإن الرسول ﷺ جادل أهل الكتاب ودعاهم إلى الإسلام كما تقدم[4]، فتبين المعاند والمكابر منهم.

والآية فيها أمر للمؤمنين أن يقولوا الحق الذي أوجبه الله عليهم، وعلى جميع الخلق ليرضوا به الله وتقوم به الحجة على المخالفين، فإن هذا من الجدال بالتي هي أحسن وهي أن تقول كلاماً حقاً يلزمك ويلزم المنازع لك أن يقوله فإن وافقك وإلا ظهر عناده وظلمه»[5].

ومن قبل منهم فإنه يستمر معه في الجدال بالتي هي أحسن سواء آمنوا أو رضوا بأحكام الإسلام، ولو لم يؤمنوا فقيل إن الذين يجادلون بالتي هي أحسن هم المؤمنون بمحمد ﷺ كعبدالله بن سلام وسائر من آمن بمحمد ﷺ، وجدال هؤلاء بالموافقة فيما حدثوا من أخبار أهل الكتاب»[6].

وقيل إنهم من رضي بأحكام الإسلام ولو لم يسلم ـ فدفع الجزية ولم

---

(١) تقدمت ترجمته في ص: ٤٩.
(٢) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢١/٣.
(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ١/٦٦.
(٤) تقدم في ص: ٣٠١.
(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٢/٤٣.
(٦) فتح القدير: ٤/٢٠٥.

يحارب، قال ابن جرير: «إن الله تعالى ذكره، أذن للمؤمنين بجدال ظلمة أهل الكتاب بغير الذي هو أحسن بقوله ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ فمعلوم إذا كان قد أذن لهم في جدالهم أن الذين لم يؤذن لهم في جدالهم إلا بالتي هي أحسن، غير الذين أذن لهم بذلك فيهم وأنهم غير المؤمن لأن المؤمن منهم غير جائز جداله ءلاي في غير الحق لأنه إذا جاء بغير الحق، فقد صار في معنى الظلمة في الذي خالف فيه الحق، فإذا كان ذلك كذلك تبين أن لا معنى لقول من قال: عني بقوله ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب أهل الإيمان منهم﴾[1] أهـ.

والذي يظهر لي أن المجادلة تشمل كل من جاء بما يخالف الإسلام وقصده طلب الحق لا التعنت سواء آمن أو لم يؤمن وجدالهم بالتي هي أحسن: بالجميل من القول والدعاء إلى الله سبحانه بأياته والتنبيه على حججه «وأن يكون على بصيرة وعلى قاعدة مرضية مع حسن خلق ولطف ولين كلام ودعوة إلى الحق وتحسينه ورد الباطل وتهجينه بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون لقصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق»[2].

ومن المجادلة بالتي هي أحسن ما بينه الله عز وجل في آخر الآية بقوله: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ففي الآية بيان لأهل الكتاب أننا وإياهم متفقون على الإيمان بالله وبرسله وكتبه، أما ما يخبرون به فأننا نتوقف فيه كما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية فيفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾[3]).

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢١/ ٣.

(٢) انظر تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن: ٦/ ٩٢.

(٣) صحيح البخاري: ٥/ ١٥٠ تفسير سورة البقرة باب قولوا آمنا بالله.
جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢١/ ٣.
معالم التنزيل: ٣/ ٤٧٠، ابن كثير: ٣/ ٦٦٣.

وهذا من المجادلة الحسنة حيث أنه لا يرد عليهم بالتعنت وأن ما حدثونا به وليس موجوداً في كتابنا نؤمن به إيماناً مجملاً كما أمرنا الله عز وجل.

قال السعدي[1] رحمه الله في تفسير الآية: «ولا تكن مناظرتكم إياهم على وجه يحصل به القدح في شيء من الكتب الإلهية أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم من حق وباطل، فهذا ظلم وخروج عن الواجب وآداب النظر»[2] أهـ.

وأهل الكتاب بما أنزل عليهم يدعون أن عندهم علم وأنهم نزل عليهم كما أنزل على محمد ﷺ، لذلك كان موقف الرسول ﷺ والمؤمنون الإيمان بما أنزل عليهم جملة، فهم يؤمنون بالتوراة والإنجيل عموماً كما في الآية السابقة، وبعموم جميع الكتب المنزلة من عند الله لأن الإيمان بالكتب أحد أركان الإيمان الستة كما تقدم[3].

ولكن هل ما يوجد بأيدي أهل الكتاب هو ما أنزل من عند الله حقيقة، أم أنه محرف ومبدل؟، والحقيقة أن غالبه محرف ومبدل.

قال ابن كثير: «ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل وما أقل الصدق فيه ثم ما أقل فائدة كثير منه لو كان صحيحاً»[4] أهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا)[5]، وفي اللفظ: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [العنكبوت: ٤٦].

---

(١) تقدم في ص: ٢٧٤.
(٢) تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن: ٦/ ٩٤.
(٣) تقدم بيان ذلك في ص: ١٣٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٦٣.
(٥) صحيح البخاري: ٥/ ١٥٠ تفسير سورة البقرة، باب: قولوا آمنا بالله، جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢١/ ٣.

ومما ورد عنهم[1] في السورة أن بعضهم آمن بمحمد كما قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٤٧﴾ [العنكبوت: ٤٧] فقيل إن الذين أوتوا الكتاب هم الأنبياء.

وقيل هم الذين آمنوا بهم في وقتهم لأن الإيمان برسول إيماناً صحيحاً يقتضي الإيمان بجميع الرسل.

وعلى هذا فقوله ﴿ومن هؤلاء﴾ أي أهل الكتاب الموجودين في عهد الرسول ﷺ.

وقيل المقصود بـ ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ وهم أهل الكتاب الذين رمنوا به ﷺ لما بعث فيهم.

وخصوا بأنهم ﴿أهل الكتاب﴾ لأنهم هم الذين تلوه حق تلاوته..

وقوله ﴿ومن هؤلاء﴾ المقصود بهم من آمن من العرب.

وقد آمن بالرسول ﷺ كثير من العرب.

ومن أهل الكتاب كعبدالله بن سلام، وسلمان الفارسي، وأصحبه النجاشي، ونصارى نجاران وغيرهم.

قال القرطبي[2] رحمه الله: «ومن هؤلاء الذين بين ظهرانيك اليوم من يؤمن به كعبدالله بن سلام ومن آمن برسوله من بني إسرائيل»[3].

«فالذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أخبار العلماء الأذكياء[4] آمنوا به مثل سلمان الفارسي، وعبدالله بن سلام، وغيرهما.

لذلك من المناسب أن أسوق قصة إسلام عبدالله بن سلام لما فيها من الدلالة على دعوة الرسول لليهود وحرصه ﷺ على هدايتهم، وإيمان الذي يريد الحق وعناد الجاحدين المكابرين.

---

(١) صحيح البخاري: ٥/ ١٦٠ الاعتصام، باب: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، والتوحيد: ٨/ ٢١٣.
(٢) تقدم في ص: ٢٧٩.
(٣) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢١/ ٢.
(٤) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٦٤.

قال عبدالله بن سلام عن نفسه: «لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف[1] له فكنت مسراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة ابنة الحارث تحتي جالسة، فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرتُ، فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري: خيبك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادماً ما زدت، قال: فقلت لها: أي عمه هو والله أخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بعث بما بعث به، قال: فقالت: أي ابن أخي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة، قال: فقلت لها: نعم، قال، فقالت: فذاك إذا، قال: ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا، قال: وكتمت إسلامي من يهود، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله: إ يهود قوم بهت[2] وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك وتغيبني عنهم ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني، وعابوني، قال: فأدخلني رسول الله ﷺ ببعض بيوته، فدخلوا عليه، فكلموه وسألوه، ثم قال لهم: (أي رجل الحصين[3] ابن سلام فيكم؟)، قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وخبرنا، وعالمنا، قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم، وقلت لهم: يا معشر يهود: اتقوا الله وأقبلوا ما جاءكم به، فوالله أنكم لتعلمون أنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ وأؤمن به. وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت، ثم وقعوا بي، قال: فقلت لرسول الله ﷺ: ألم أخبرك يا رسول الله أنهم قوم بهت، أهل غدر وكذب وفجور!!، قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي وأسلمت عمتي خالدة بنت الحارث، فحسن إسلامها[4].

---

(١) التوكف: التوقع والانتظار. لسان العرب: ٩/ ٣٦٤، وكف. غريب الحديث للهروي: ٢/ ٣٧٩.

(٢) البهت: الكذب، وهو جمع بهوت من بناء المبالغة في البهت مثل صبور، وصبر، ثم يسكن تخفيفاً. لسان العرب: ٢/ ١٣ بهت.

(٣) هكذا في السيرة، أما الروايات الأخرى فهي: (أي رجل عبدالله بن سلام فيكم).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ١٦٣ بهذا اللفظ، وبنحوه في صحيح البخاري: ٤/ ١٠٣، الأنبياء، ومناقب الأنصار: ٤/ ٢٦٨ باب ٥١، وانظر: ٥/ ١٤٨، مسند أحمد: ٣/ ١٠٨، ٢٧١.

وكما في وفد النصارى الذين قدموا من الحبشة كما ذكر ذلك ابن إسحاق[١] فقال: «ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعفة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ثم استجابوا لله وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتبهم من أمره»[٢].

فهذان النصان وغيرهما[٣]، دليل على صدق الرسول ﷺ عند أهل الكتاب حيث آمن به بعضهم ولكن بعضهم ظلم وجحد فأعرض عن الحق، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

والذين ظلموا في الآية قيل إنهم كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ وبقي على كفره، وهذا باعتبار أن الجدال بالتي هي أحسن خاص بالمؤمنين منهم[٤]، وهذا يكون ظالم لنفسه.

والذي يظهر أن المقصود أنهم الذين ظلموا أهل الإيمان بالله ورسوله ﷺ بنصب الحرب لهم وإنكار الجزية[٥]، ومن ظلمهم قولهم «إن مع الله إله أو له ولد أو له شريك أو يد الله مغلولة أو الله فقير، أو آذوا محمد ﷺ»[٦].

ومن ظلمهم: «بقاءهم على المعاندة بعد ظهور الحجة»[٧].

وقد لا يتبين ظلمهم إلا بعد جدالهم وإسماعهم الحق ثم نكوصهم عنه وعداوة أهله وعدم الخضوع لهم.

---

(١) تقدم في ص: ٢٩٢.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/٣٢.
(٣) انظر زاد المعاد: ٣/٦٢٩.
(٤) انظر فتح القدير: ٤/٢٠٥.
(٥) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢١/٢.
(٦) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢١/٢، ونقله عن قتادة ومجاهد.
(٧) انظر أحكام القرآن لابن العربي: ٣/١٤٨٨.

فيظهر من مجادلتهم أنه لا إرادة لهم في الحق وإنما يجادلون على وجه المشاغبة والمغالبة فهؤلاء لا فائدة في مجادلتهم لأن المقصود منها ضائع»[1].

«فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم»[2]، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

قال جابر رضي الله عنه: «أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف»[3]، وكما فعل ﷺ في بني قريظة والنضير وغيرهم.

ومع ظلمهم وعنادهم فإن الله سبحانه دعاهم إلى الإيمان وأقام عليهم الحجة ليعلموا أن الأمر ليس مجرد دعوة فقط إن أجبتم وإلا فأنتم وشأنكم، وإنما يترتب على هذا حساب وعقاب وجنة ونار ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ [المائدة: ١٩].

ولأجل أن لا تنطوي شبههم على الجهال منهم ومن يأتي من بعدهم ويدعي أنه من أهل الكتاب فمن الحجج التي أقامها الله عليهم ما يعرفونه من صفة الرسول ﷺ أنه أمي، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

قال مجاهد[4]: «كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن النبي ت لا يخط بيمينه ولا يقرأ كتاباً فنزلت هذه الآية»[5].

فالله سبحانه دعاهم للإيمان بالرسول، بما يعرفون جنسه من الأنبياء الذين كانوا

---

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦/ ٩٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٦٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦٦٣.
(٤) تقدم في ص: ٢٠٣.
(٥) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢١/ ٥، الدر المنثور: ٥/ ١٤٨.

قبله ﷺ، وقد تقدمت قصصهم. وكذلك جنس الكتاب الذي أنزل إليه، قال تعالى: ﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب﴾ أي كما أنزلنا على من قبلك يا محمد من الرسل»[1].

قال ابن تيمية: «بل طريق معرفة الأنبياء وكطريق معرفة نوع من الآدميين خصهم الله بخصائص يعرف ذلك من أخبارهم واستقراء أحوالهم كما يعرف الأطباء والفقهاء ولهذا إنما يقرر الرب تعالى في القرآن أمر النبوة وإثبات جنسها بما وقع في العالم من قصة نوح وقومه، وهود وقومه، وصالح وقومه، وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وغيرهم فيذكر وجود هؤلاء وأن قوماً صدقوهم وقوماً كذبوهم»[2] أهـ.

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أسئلة اليهود له ﷺ وقولهم أنه لا يعلم هذا إلا نبي واعترافهم أنه لم يعلمه أحد حيث جاء المشركون إلى أهل الكتاب يسألونهم عن شأنه، ثم قال: «فهذا من أخل المدينة ومن قريش قومه يبين أن قومه المشركين وأهل الكتاب كانوا متفقين على أنه لم يتعلم شيئاً من ذلك من البشر، إذ لو جوزوا ذلك لم يحصل مقصودهم بذلك، ولم يجز أن يقولوا: «لا يعلمها إلا نبي»[3] أهـ.

فحجتهم بأنه تعلمه من ساحر أو من أهل الكتاب باطلة بما يعرفونه هم عن رسول الله ﷺ مما يجدونه في كتبهم فارتيابهم وشكهم باطل لا دليل عليه.

وبين الله سبحانه أن عدم إيمانهم بالرسول إنما هو جحود، قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

قال البغوي: «وذلك أن اليهود وأهل مكة عرفوا أن محمد نبي والقرآن حق فجحدوا»، وقال قتادة: «الجحود إنما يكون بعد المعرفة»[4].

واختلف في أهل العلم، فعن ابن عباس والحسن البصري أنهم أصحاب محمد ﷺ والمؤمنون به يحفظونه ويقرأونه»[5] أي القرآن.

---

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن: ٢١/١.
(٢) النبوات لابن تيمية: ١٣.
(٣) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح: ٤/ ٦٣.
(٤) معالم التنزيل: ٣/ ٤٧١.
(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ٣/ ٦٦٥.

وعن ابن عباس وقتادة والضحاك «بل هو» أي محمد ﷺ.

والذين أوتوا العلم من أهل الكتاب يجدونه مكتوباً عندهم في كتبهم بهذه الصفة أمياً لا يقرأ ولا يكتب»[1].

وهذا الذي رجحه ابن جرير.

وعلى كل القولين فإن أهل الكتاب يعرفون محمداً بما وصف لهم في كتبهم من أنه أمي وغير ذلك من صفاته، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن الحجج التي أقامها الله عليهم ما يجدونه في كتبهم من البشارة بمحمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: «قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ محمد رسول الله عبدي ورسولي، سميته المتوكل ليس فظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة بل يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله[2] فيفتح بها أعينا عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً».

ومن ذلك تذكيرهم بما كانوا يستفتحون على الذين كفروا بمحمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢١/ ٥ ـ ٦.

(٢) الجامع الصحيح للإمام البخاري، باب كراهة الصخب بالأسواق، من كتاب البيوع: ٣/ ٨٣، وانظر تفسير سورة الفتح في صححي البخاري: ٦/ ٤٤، باب إنا إرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، مسند أحمد: ٢/ ١٧٤.

عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ [البقرة: ٨٩].

والقرآن مملوء بدعوتهم للإيمان بمحمد ﷺ وما أنزل معه، ولكن مما تقدم يتبين أنهم أهل جحود وحسد وطُلباً للرياسة وليس جهلاً منهم.

يقول ابن تيمية: «ولهذا كان من نازع من أهل الكتاب في نبوة محمد ﷺ أما أن يكون لجهله بما جاء به وهو الغالب على عامتهم، أو لعناده وهو حال طلاب الرياسة بالدين منهم»(١).

ولا أدل على أن قصد بعضهم العناد والحسد ما تقدم في قصة إسلام عبدالله بن سلام وكذلك ما ورد عن صفية بنت حيي ابن أخطب أنها قالت: «كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء، في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهويني قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلى واحد منهما مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب أهو هو؟، قال: نعم، قال: أتعرفه وتثبته، قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟، قال: عداوته والله ما بقيت»(٢).

وقد استمر أهل الكتاب في ظلمهم وعنادهم ومحاولة تشكيك المسلمين في دينهم وذلك واضح من استعراض تاريخهم.

فهم يقولون أن الله ثالث ثلاثة..

وبعض أهل الكتاب وخاصة النصارى يعتقدون أن عيسى ابن الله، وأنه إله وإنسان، فهو إله من جهة أبيه، وإنسان من جهة أمه، وأن اليهود قتلوا إنسانيته، وأن الألوهية بعدما دخل جسد إنسانيته القبر، نزلت إلى جهنم، وأخرجت منها آدم، ونوحاً، وإبراهيم، وجميع الأنبياء، وأنهم كلهم كانوا فيها من أجل خطيئة

---

(١) النبوات: ٢٤.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ٢/ ١٦٥.

أبيهم آدم في الأكل من الشجرة، وأن جميع هؤلاء الأنبياء صعدوا إلى السماء في صحبة إلهية عيسى بعد اجتماع لاهوته بناسوته، وهذا الاعتقاد في غاية الكفر والحمق والفساد، فنعوذ بالله مما ابتلاهم به»[1].

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [المائدة: ١٧].

فمن كفرهم وتبديلهم قولهم نحن أبناء الله وأحبائه.

وقد رد الله عليهم قولهم هذا، قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [المائدة: ١٨] ومن كفرهم قولهم ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ: «انتبه لم تنام يا رب، استيقظ من رقدتك»[2].

فأين هم من قوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقولهم إن الله تعالى قال لشموائيل النبي عليه السلام: «نيحامتي كي هملاخي أن شاو المليخ على يسراييل».

تفسيره: «ندمت إذ وليتك (شاؤول) ملكاً على بني إسرائيل، وقولهم: «وأذوناي نيجام كي هميليخ إني شااول على يسراييل».

وتفسيره: «والله ندم على تمليكه شاؤول على إسرائيل»[3].

---

(١) تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب: ١٢٧.
(٢) إفحام اليهود: ١٣٠.
(٣) إفحام اليهود: ١٣٤.

واعتقادهم أن نوحاً النبي عليه السلام لما خرج من السفينة بدأ ببناء مذبح لله تعالى وقرب عليه قرابين، ويتلو ذلك. «ويارح أذوناي اث دييح هنيجو وح ولومر آذوناي ال لبولواسيف عوذ لقليل اث حا إذا ماعا عبررها إذا م كي ييعير ليب ها اذام راع منعور أو ولو اوسيف مود لهلكوث اث كل حاي كا اتير عاسيشي».

وتفسيره: «فاستنشق الله رائحة القثار، فقال الله تعالى في ذاته: لن أعاود لعنة الأرض بسبب الناس لأن فاطر البشر مطبوع على الرداءة، ولن أعاود إهلاك جميع الحيوان كما صنعت»[1].

فأي كفر أعظم من هذا؟؟.

من مهازلهم أنهم يزعمون أن المسيح أعطاهم الخبز، وقال لهم هذا لحمي فكلوه، وأعطاهم الخمر وقال لهم هذا دمي فاشربوه[2] وهم في احتفالهم بالعشاء الرباني المقدس يأكلون الخبز، ويشربون الخمر، ليقولوا أنهم أكلوا لحم ربهم وشربوا دمه»[3].

وقد استمر ظلمهم وعنادهم وذلك لاعتراف كبرائهم بالدين الحق ولكن حب الجاه والرياسة أعماهم عن ذلك وهذا ما حصل لأسلافهم، كذلك من رجع منهم إلى الحق بهتوه، ونابذوه، كما تقدم في قصة إسلام عبدالله بن سلام ـ وكما حصل للميورقي[4] حينما أسلم، فمما حدث له في قصة إسلامه أنه سمع خلافاً بين طلبة العلم في قول الله عز وجل على لسان عيسى عليه السلام في الإنجيل: «إنه يأتي من بعده نبي اسمه (البارقليط) فأخبر شيخه بما حدث، واختلافهم في اسم البارقليط، فقال: «إن هذا الاسم الشريف لا يعلمه إلا الراسخون في العلم وأنتم لم يحصل لكم من العلم إلا القليل». فألح عليه إلحاحاً شديداً حتى يخبره، فبكى الشيخ وخاف عليه من عامة النصارى أن يقتلوه، وعاهده أن لا يخبر أحداً، فأخبره أن البارقليط المبشر به هو محمد، وقال: «إن دينه هو الحق وملته هي الملة البيضاء

(١) إفحام اليهود: ١٣٤.

(٢) راجع يوحنا ص: ٦: ف ٥٨.

(٣) معاول الهدم والتدمير في النصرانية والتبشير: ٧٨.

(٤) هو عبدالله بن عبدالله الترجمان ـ واسمه قبل إسلامه «انسلم تورميدا» ولد في ميورقا سنة ٧٥٦ هـ تقريباً، ت سنة ٨٣٢ هـ. اشتغل بالترجمة وترقى في الوظائف في دولة بني حفص بتونس «تحفة الأريب ص ٢٣» مقدمة المحقق.

المذكورة في الإنجيل» فقال له: يا سيدي وما تقول في دين هؤلاء النصارى؟، فقال له: يا ولدي لو أن النصارى أقاموا على دين عيسى الأول لكانوا على دين الله، لأن عيسى وجميع الأنبياء دينهم دين الله، ولكن بدلوا وكفروا.

فقال له: يا سيدي وكيف الخلاص من هذا الأمر، فقال: يا ولدي بالدخول في دين الإسلام، قلت له: وهل ينجو الداخل منه، قال له: نعم، ينجو في الدنيا والآخرة، فقال له: يا سيدي أن العاقل لا يختار لنفسه إلا أفضل ما يعلم فإذا علمت فضل دين الإسلام فما يمنعك منه؟، فقال: يا ولدي أن الله تعالى لم يطلعني على حقيقة ما أخبرتك به من فضل الإسلام وشرف نبي أهل الإسلام إلا بعد كبر سني ووهن جسمي، ولا عذر لنا فيه بل هو حجة الله علينا قائمة، ولو هداني الله لذلك وأنا في سنك لتركت كل شيء ودخلت في دين الحق، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، وأنت ترى ما أنا فيه عند النصارى، من رفعة الجاه والعز والترف وكثرة عرض الدنيا، ولو أني ظهر على شيء من الميل إلى دين الإسلام لقتلتني العامة في أسرع وقت، وهب أني نجوت منهم، وخلصت إلى المسلمين فأقول لهم إني جئتكم مسلماً، فيقولون لي: قد نفعت نفسك بنفسك بالدخول في دين الحق فلا تمن علينا بدخولك في دين خلصت به نفسك من عذاب الله، فأبقى بينهم شيخاً كبيراً فقيراً ابن تسعين سنة، لا أفقه لسانهم، ولا يعرفون حقي فأموت بينهم جوعاً. . .».

فهذه الأسباب التي ذكرها هي في الحقيقة من تلبيس الشيطان وليست بأشد من عذاب الله على فرض حصولها وإلا فإن المسلمون يكرمون الداخل في الإسلام ويواسونه، وهذا ما حصل للميورقي. وبعد ذلك سافر الميورقي إلى بلاد المسلمين التي سافر إليها، فلما شهد شهادة الحق صلبوا على وجوههم، وقالوا ما حمله على هذا إلا حب التزويج فإن القسيس لا يتزوج وحزنوا لذلك»[1].

وقد استمر ظلمهم وعنادهم فهم يتحينون الفرص للغدر بالمسلمين وما تلك الإرساليات التبشيرية في البلاد الإسلامية قبل الاستعمار وبعده[2] إلا من هذا الظلم

---

(١) القصة بكاملها في: (تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب) ص: ٦٦.

(٢) انظر التبشير والاستعمار للفروخ والخالدي.
وانظر التبشير النصراني في جنوب سودان وادي النيل.

والعناد، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقد مهدوا لذلك ما كتبوه في أدبهم وقصصهم التي نشرت بعد صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، ما يحكي عندهم بطولة الصليبيين، ولكن نستخلص منها وحشيتهم وظلمهم الفادح فمن ذلك أن الملك ريتشارد قلب الأسد كان مريضاً ذات يوم وطلب من حاشيته أن يحضروا له طعاماً من لحم الخنزير، ولما لم يكن لحم الخنزير معروفاً في بلاد المسلمين بل وأن أكله محرم في الإسلام، وكان الملك يلح على ذلك، فقد قام رئيس حرس الملك بذبح طفل من أطفال المسلمين ممتلىء الجسم وقدمه للملك على أنه لحم خنزير.

وفي الأدب الفرنسي قصة بعنوان: «حملة الملك ريتشارد» وفيها أن الملك في إحدى غزواته أمر جنوده بقتل جميع أسرى المسلمين من رجال وأطفال ونساء ووضع رؤوس القتلى على موائد الطعام»[1].

وهم ينشرون ذلك على أنه قمة البطولة والشجاعة، فأي دناءة وخسة أشد من هذا، والفتك بالضعيف، مع اختلاق تلك الأكاذيب والحكايات لتشويه الإسلام والمسلمين وءلا فمن المعروف ما حصل لريتشارد من الهزيمة والفشل وما حصل في صفوفه من خلافات أذهبت ريحهم سدى وما زال هجومهم مستمراً وكتاباتهم تنبني على حقدهم الدفين، فهم يعتبرون الإسلام في كتاباتهم كأنه شيء متأخر ومنحط ليس له حضارة ورقي، وتقدم، وأن تحدثوا عن حضارته فيعتبرونها اندثرت وأفل نجمها.

وقد ظهر عندهم أدب الرحلات، وذلك بتسجيل رحلاتهم إلى الشرق للحج أو التجارة، أو القبور والأماكن المقدسة، والذين يكتبون هذا الأدب هم من الدبلوماسيين، والمبشرين، والتجار، والجنود، والأطباء، والتجار، وكانت كتاباتهم من أهم الأسباب الرئيسية في نجاح الاستعمار، حيث ركزوا في تلك الكتابات عن الدولة العثمانية، وأن الخليفة العثماني جبار دكتاتوري وما إلى ذلك

(١) الاستشراق والمستشرقون، وجهة نظر، ص ١٦٥ عن دائرة المعارف البريطانية.

من الأوصاف، ومن ذلك كتاب «هل» والذي اسمه عرض عن الحالة الراهنة للأمبراطورية العثمانية (١١٢١ هـ ـ ١٧٠٩ م) وكتاب ريتشارد بيكوك المسمي: «وصف الشرق».

وعندما انتهت الخلافة العثمانية، ظهر أدب الرحلات للاستخدام في أغراض الجاسوسية لتيسير مهمة الاستعمار، والقضاء على الحركات الداخلية التي تقاوم الاستعمار.

. ومن هذه الكتب كتاب «بورتن» واسمه «قصة شخصية للحج إلى المدينة ومكة» ١٢٧٢ هـ.

وكتابات «فلبي» التي منها «قلب الجزيرة» ١٣٤١ هـ.

و «جزيرة العرب الوهابية» ١٣٤٧ هـ.

و «حاج في الجزيرة العربية» ١٣٦٦ هـ.

ومن الكتب التي تدل على الجاسوسية كتاب: «لورانس العرب» الذي اسمه «أعمدة المحكمة السبعة» ١٣٥٤ هـ[1].

وغير ذلك من كتاباتهم عن الإسلام لا أنه ظاهرة حضارية وإنما لتحقيق أغراض تنبي عن وثبة استعمارية وتبشيرية مدمرة للإسلام والمسلمين.

ومن ظلمهم ما ظهر عندهم من حركات هدامة بأسماء جمعيات ذات طابع خاص انتشرت في بلاد المسلمين، وذلك مثل: الماسونية، والبهائية، والروتاري، وشهود يهوه، والجمعيات الروحية، والدونمة القاديانية، وغيرها من الجماعات.

وقد تقدم أن هذه من صور النفاق في هذا العصر وهي خطط يهودية لمحو الإسلام.

فمثلاً في أندية الروتاري ينشرون بطرق ملتوية أفكاراً هدامة: كسفور المرأة، واختلاطها، وإنشاء الملاهي، والشركات السينمائية، واختيار ملكات الجمال، والرحلات المختلطة، ومما يلاحظ في أندية الروتاري تختار في بيوت فخمة ومواقع يقطنها القادة والمفكرين ورجال الاقتصاد، وقريبة من الأماكن الحيوية

---

(١) انظر الاستشراق والمستشرقون، وجهة نظر، ص ١٧١.

كالدفاع والبريد والهاتف، ويبذل في حفلاتها أموالاً طائلة مجهولة المصدر»[1].

ومن ظلمهم في هذا الوقت عدم دخولهم الإسلام لقيام الحجة عليهم كما هو واضح من اعتراف كبارهم في هذا الزمان بأنه لن يقف في طريقهم غير الإسلام.

ومن ذلك قول جلادستون ـ رئيس الوزراء البريطاني سابقاً ـ: «ما دام هذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولن تكون نفسها هي في أمان».

وقال جورج براون سنة ١٩٤٤ م: «لقد كنا نخاف شعوباً مختلفة، ولكننا بعد الاختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف، بيد أن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام وفي قدرته على التوسع، وقوته في الإخضاع، وحيويته في الانتشار، أنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبي»[2].

لذلك حاولوا التشكيك في عقائد المسلمين، وبث الأفكار الخبيثة بينهم التي تمحوا عقيدة المسلمين وتسهل مهمة الاستعمار للاستيلاء على خيراتهم، ومن ذلك ما كتبه القسيس مندوب الإنكليز في البحرين ـ إبان الاستعمار ـ إلى أمير البحرين في القرن الثالث عشر الهجري ـ وذلك أنه كتب كتاباً فيه شبهات نصرانية يزعم فيها تصحيح الملة المسيحية ـ ودفعه إلى أمير البحرين ـ فقيض الله له من يرد عليه من علماء المسلمين وهو الشيخ ابن معمر[3]، مما أثار استغراب ذلك القسيس حيث خاب ظنه بأن المسلمين جهلة لا يعرفون هذه الأمور[4].

ومن ذلك ما يبثونه في إذاعاتهم من الشبه والانحرافات التي يدعون أنها هي الخلاص.

وما يشاهد ويسمع اليوم من خبث اليهود، فهم كما قال تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ

---

(١) انظر الإسلام والحركات الهدامة ص ١١٣.

(٢) وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي: ٤٥.

(٣) هو: عبد العزيز بن حمد بن ناصر بن عثمان بن معمر، ولد في الدرعية سنة ١٢٠٣ هـ، برز في علوم كثيرة منها منحة القريب المجيب، واختصار نظم ابن عبد القوي، هاجر إلى البحري حين حارب إبراهيم باشا الدرعية وكان له أشعار رائعة في رثاء الدرعية، ومكاتبات بينه وبين مشايخ الدعوة حينما كانوا بمصر، ت ١٢٤٤ هـ، بالبحرين رحمه الله.
مشاهير علماء نجد وغيرهم ص: ٢١٩.

(٤) منحة القريب المجيب «ترجمة المؤلف» ص ٥.

﴿... أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢].

فقد احتلوا ديار المسلمين وقتلوا رجالهم واستباحوا أعراضهم، وهذا من أعظم الظلم، ولا جدال معهم إلا بالسيف، وإقامة علم الجهاد حتى يسلموا أو يرضخوا لأحكام الإسلام.

قال ابن معمر: «والله أيد رسوله وأتباعه بالحجج الصحيحة العلمية، والبراهين القاطعة العقلية، والنقلية، بما لم يبق بعده للمخالف إلا محض العناد، وحينئذ فالدواء الشافي من هذا الداء سيف الجهاد»[1] أهـ.

فما يحصل من مناقشة لهم من بعض العلماء إنما هو لبيان هذه الحجج لما قد يكون بينهم من جهلة لو عرفوا الحق لاتبعوه، ولئلا يلبسوا على عوام المسلمين وجهلتهم، الذين جهلوا أحكام دينهم وفتنوا بما ينشر للأعداء من ثقافات، هي في الحقيقة تفاهات ما دامت تصد عن سبيل الله...

---

(١) منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب ص ١٣.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد. . .

فقد كان هذا البحث عن الدعوة إلى الله في سورة العنكبوت وما فيها من عبر وعظات، مما يدل على أهمية القرآن في حياة الدعاة إلى الله عز وجل خصوصاً ـ والأمة عموماً إذا تمسكت به قولاً وعملاً ـ ففيه السعادة في الدنيا والآخرة ـ وبلوغ المقاصد في نسر هذا الدين، ففي هذه السورة التي لا تتجاوز سبعون آية فيها من العقائد والعبادات والأخلاق والحكمة ما يشفى، ولا داعي للتفصيل، فإن ذلك قد تقدم في ثنايا البحث، ولكن من أهم الفوائد التي استفدتها من خلال البحث: ـ

١ ـ الوقوف على بعض معاني آيات الله الكريمة وما دلت عليه ـ وأن القرآن هو المنهل الصافي لمعرفة العقيدة والدعوة إليها، وبثها بين الناس تعلماً وعملاً كما كان سلف هذه الأمة لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلمونهن ويعملون بهن.

٢ ـ اطلعت على سيرة المصطفى ﷺ في الدعوة وصبره عليها وكذا الأنبياء قبله، وما بذلوه في سبيل نشر دين الله، وقيامهم بما أوجبه الله عليهم بدون ملل أو تقصير، فعلى الداعية السير على منوالهم ملتزماً كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ.

٣ ـ معرفة أحاديث مشتهرة على ألسنة الناس، وفي ثنايا الكتب، وفقت على صحيحها من سقيمها، وهو ما ينبغي للداعية المسلم الحرص عليه في معرفة الأحاديث الصحيحة والاستشهاد بها ـ فإن فيها الكفاية عن الموضوعات والإسرائيليات التي تشوش على الناس عقائدهم وأفكارهم.

٤ ـ أهمية أساليب الدعوة التي بينها القرآن من الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، فالحكمة مطلوبة لتبيين أحكام هذا الدين للمتعطشين إليه الذين عندهم رغبة وإقبال.

كما أن الموعظة الحسنة مطلوبة للوعظ والتذكير لمن هم في غفلة من

أمرهم، يحتاجون إلى إيقاظ ضمائرهم بالترغيب تارة، والترهيب أخرى.

والقصص والأمثال التي جمعت بين الاثنين ـ واشتمل عليهما كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـ ففيهما الأمثال الكثيرة، والقصص الثابتة الصحيحة ـ التي ينبغي على الدعاة أن يستعملوها ويوضحوها للناس ويضربون لهم الأمثال من واقعهم ـ ويستشهدون بالقصص التي تحدث صحيحة لا لبس فيها ولا غموض، دالة على الحق شادة الانتباه إلى نتيجة مرضية دل عليها كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ.

كما ينبغي للدعاة أن يكون قصدهم الحق وأظهاره لجميع الناس على اختلاف طبقاتهم ودياناتهم، ويدخل في ذلك من أمر الله بجدالهم بالتي هي أحسن بإظهار الحق لهم بدون تعسف أو مراء، فأما أن يذعنوا لأمر الله، أو تقوم عليهم الحجة.

٥ ـ ولقد مر في ثنايا البحث مقامات في سورة العنكبوت مهمة كالفتنة والابتلاء والصبر والشكر والرضا، فما يصبر على البلاء ويشكر على النعماء ويرضى بالقضاء إلا المؤمنون بالله ورسوله وأخصهم الداعون إلى الهدى فينبغي أن يكونوا قدوة ومثلاً أعلى في ذلك.

٦ ـ ومع ما أوضحه الله عز وجل من الدلائل والبراهين في كتبه وعلى لسان رسله عليهم السلام من حق في بيان وجوب الإخلاص لله والمتابعة لشرعه إلا أن هناك من لم يستفد من تلك الأدلة والبراهين ولم يرفع بذلك رأساً، لذا توجه سورة العنكبوت أنه ينبغي على الداعية أن لا ييأس، ولا يطلب النتائج لأول وهلة، وإنما عليه أن يبلغ ما أمر به والتوفيق بيد الله عز وجل.

ومن العجيب أن ترى في الأمة من يقوم بالدعوة وهو بعيد عنها فيبني دعوته على أصول وقواعد فاسدة يخضع النصوص لأجلها، أو يهتم بأمور لا طاقة له بها، ويترك الأولويات التي ينبغي التركيز عليها، لذلك غالباً ما يصاب باليأس حتى لا يستطيع إنكار الأمور البسيطة في مجتمعه.

وأعجب من ذلك أن ترى بين أفراد الأمة الإسلامية من يستغني عن كتاب الله ويعرض عن دينه، طلباً للسعادة والتقدم والرقي، كما يزعم، مغتراً بما يشاهده من تقدم وإنتاج مادي ظناً منه أن دينه هو الذي منعه من ذلك، فأين هو مما حصل للمسلمين الأوائل من صبر وتحمل للأذى في سبيل الله والدعوة إلى دينه، وكيف

يغتر بهؤلاء الكفار وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥].

فأوصى كل من يقوم بالدعوة سواء أفراداً أو جماعات، حكومات أو هيئات أو مؤسسات إسلامية أن يلتزموا بكتاب الله قولاً وعملاً، وأن يفهموه كما فهمه سلف الأمة الذين نزل عليهم، فاستقر في قلوبهم وعملوا بمقتضاه في واقعهم، فملكوا الدنيا وأقاموا العدل بأقل من ربع قرن. . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. . .

فهرس المراجع

ـ أ ـ

١ ـ أبو العتاهية أشعاره وأخباره ت. د. شكري فيصل. ط. دار الملاح، دمشق.

٢ ـ الاتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، ت ٩١١ هـ، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. الثالثة، دار التراث، القاهرة، ١٤٠٥ هـ.

٣ ـ أحكام القرآن لمحمد بن عبدالله المعروف بابن العربي، ت ٥٤٣ هـ، ت. علي محمد البجاوي، ط. عيسى البابي الحلبي، مصر، نشر دار إحياء التراث العربية بمصر.

٤ ـ أخبار العالم الإسلامي، جريدة أسبوعية تصدر عن إدارة الصحافة والنشر، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.

٥ ـ الأدب المفرد للإمام البخاري، ط. أولى، مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان، ١٤٠٦ هـ.

٦ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود) محمد بن محمد العمادي، ت ٩٥١ هـ، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

٧ ـ إرواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل، لمحمد ناصر الدين الألباني، ط. الأولى، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، ١٣٠٠ هـ.

٨ ـ أسباب النزول، علي بن أحمد الواحدي، ت ٤٦٨ هـ، السيد أحمد عاطف الصقر، ط. الثالثة، ١٤٠٧ هـ، نشر مؤسسة علوم القرآن، دمشق، بيروت، ودار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة.

٩ ـ الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت ٧٢٨ هـ، د. محمد رشاد سالم ط. الأولى، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٣ هـ.

١٠ ـ الاستشراق والمستشرقون، وجهة نظر، د. عدنان محمد وزان، ط. رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ضمن سلسلة دعوة الحق، السنة الثالثة العدد ٢٤.

١١ ـ الإسلام والحركات الهدامة، معالي عبد الحميد حمودة، ط. رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، ضمن سلسلة دعوة الحق، السنة الثالثة، عدد ٢٥.
١٢ ـ أسد الغابة في معرفة أخبار الصحابة، علي بن محمد الجزري (ابن الأثير)، ت ٦٣٠ هـ، ط. دار الفكر.
١٣ ـ أسس البلاغة لجار الله محمود بن عمر الزمخشري، ت ٥٣٨ هـ، ت عبد الرحيم محمود، ط. دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٢ هـ.
١٤ ـ أسس الدعوة وآداب الدعاة لمحمد السيد الوكيل، ط. مطابع الأحبار، نشر دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة.
١٥ ـ أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجاً، د. عبد الغني محمد سعد بركة، ط. دار غريب، القاهرة، نشر مكتبة وهبة، القاهرة.
١٦ ـ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢ هـ، ت علي محمد البجاوي، ط. دار النهضة، مصر القاهرة.
١٧ ـ أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت.
١٨ ـ أعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين للإمام محمد بن طولون الدمشقي، ت ٩٥٣ هـ، ت. محمود الأرناؤوط، ط. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣ هـ، نشر الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت.
١٩ ـ أعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، ت ٧٥١ هـ، ت. محمد محي الدين عبد الحميد، ط. مؤسسة جواد، لبنان.
٢٠ ـ الأعلام، لخير الدين الزركلي، ط. السادسة، ١٩٨٤ م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
٢١ ـ إغاثة اللهفان لابن القيم، ت ٧٥١ هـ، ت. محمد حامد الفقي، ط. دار الفكر.
٢٢ ـ إفحام اليهود وقصة إسلام السمؤول للإمام السمؤال بن يحيى المغربي، ت ٥٧٠ هـ، ت. د. محمد عبدالله الشرقاوي، ط. الثانية، ١٤٠٧ هـ. المطابع الأهلية للأوفست، الرياض، نشر إدارة البحوث والإفتاء، الرياض.
٢٣ ـ أمثال الحديث (كتاب الأمثال في الحديث النبوي، لأبي الشيخ الأصبهاني، ت ٣٦٩ هـ، ت. د. عبد العلي عبد الحميد، ط. الأولى، ١٤٠٢ هـ، الدار السلفية بومباي، الهند،

٢٤ ـ أمثال الحديث ـ للرامهرمزي: الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الفارسي، ت ٣٦٠ هـ تقريباً، ت. د. عبد العلي عبد الحميد، ط. الدار السلفية، بومباي، الهند.

٢٥ ـ الأصول الثلاثة للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ت ١٢٠٦ هـ، انظر حاشية الأصول الثلاثة.

٢٦ ـ الاعتقاد على مذهب أهل السنة والجماعة، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ت ٤٥٨ هـ، تصحيح أحمد محمد مرسي، ط. المطبعة العربية، باكستان، نشر أحاديث أكاديمي ـ باكستان.

٢٧ ـ الإيمان، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت ٧٢٨ هـ، ط. الثالثة، ١٤٠١ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق.

٢٨ ـ الإيمان لابن منده، ت ٣٩٥ هـ، ت. علي بن محمد ناصر فقيهي، ط. الأولى، الجامعة الإسلامية بالمدينة، ١٤٠٧ هـ.

٢٩ ـ الإيمان، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ت ٢٢٤، ت. محمد ناصر الدين الألباني، ضمن (مجموع) من كنوز السنة ـ رسائل أربع ـ هو الثانية، ط. دار مصر للطباعة، نشر دار الأرقم، الكويت.

٣٠ ـ الإيمان، لمحمد بن يحيى بن أبي عمر العدني، ت ٢٤٣ هـ، ت. حمد بن حمدي الجابري الحربي، رسالة ماجستير، من شعبة الفقه بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، ١٤٠٤ هـ.

ـ ب ـ

٣١ ـ بدائع الفوائد، للإمام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ، ط. بساط، بيروت، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣١ ـ بدائع الفوائد، للإمام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ، ط. بساط، بيروت، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٢ ـ بذل المجهود في حل أبي داود للشيخ خليل أحمد السهارنفوري، ت ١٣٤٦ هـ، ط. شركة الطباعة العربية السعودية المحدودة، الرياض، دار اللواء، الرياض.

٣٣ ـ بيان فضل علم السلف على الخلف، للحافظ عبد الرحمن بن الحسن (ابن رجب الحنبلي) ت ٧٩٥ هـ، ضمن ثلاث رسائل له. ت. محمد ابن ناصر العجمي،

ط. الأولى، ١٤٠٧ هـ، ط. دار السياسة، الكويت، نشر الدار السلفية، الكويت.
٣٤ ـ بيان المختصر شرح المختصر، لابن الحاجب، تأليف محمود بن عبد الرحمن بن أحمد الأصفهاني، ت ٧٤٩ هـ، ت. محمد مظهر بقا، ط. الأولى، ١٤٠٦ هـ، دار المدني، جدة، نشر المركز العلمي، جامعة أم القرى، مكة.
٣٥ ـ البحر المحيط، لمحمد بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي، ت ٧٥٤ هـ، نشر وطبع مطابع النصر الحديثة، الرياض.
٣٦ ـ البداية والنخاية للحافظ إسماعيل بن كثير، ت ٧٧٤، ط. الثالثة، ١٩٨٠ م، مكتبة المعارف، بيروت.
٣٧ ـ البرهان في أصول الفقه لأبي المعالي عبد الملك بن عبدالله الجويني، ت ٤٧٨ هـ، ت. د. عبد العظيم الديب، ط. الثانية، ١٤٠٠ هـ، توزيع در الأنصار، القاهرة.
٣٨ ـ البرهان في علوم القرآن، لمحمد بن عبدالله الزركشي، ت ٧٩٤ هـ، ت. محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة.

ـ ت ـ

٣٩ ـ تاريخ بغداد، أحمد بن علي الخطيب البغدادي، ت ٤٦٣ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٠ ـ تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله، ت ٥٧١ هـ، ت. سكينة الشهابي وآخرون، ط. دار الفكر، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق.
٤١ ـ تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، لأبي محمد عبدالله الترجمان الميورقي، ت ٨٣٢ هـ، ت. عمر وفيق الداعوق، ط. الأولى، ١٤٠٨ هـ، دار البشائر الإسلامية، بيروت.
٤٢ ـ تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، ليوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المزي، ت ٧٤٢ هـ، تصحيح عبد الصمد شرف الدين. ط. الأولى، طبع وزارة المعارف لحكومة الهند، والدار القيمة، الهند.
٤٣ ـ التاريخ الكبير، للإمام البخاري، ت ٢٥٦ هـ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان.
٤٤ ـ التحفة العراقية في الأعمال القلبية، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت ٧٢٨ هـ،

٥٦ ـ التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي، ط. مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٩٧ هـ،
٥٧ ـ تلقيح الفهوم في تنقيح صيغ العموم، للحافظ خليل بن كيكلدي العلائي، ت ٧٦١ هـ، ت. د. عبدالله بن محمد بن إسحق آل الشيخ. ط. أولى، ١٤٠٣ هـ.
٥٨ ـ التمهيد في أصول الفقه، تأليف محفوظ بن أحمد بن الحسن أبو الخطابي الكلوذاني الحنبلي، ت ٥١٠ هـ، ت. د. مفيد محمد أبو عمشة ط. الأولى، ١٤٠٦ هـ، دار المدني، جدة.
٥٩ ـ تهذيب السنن، سنن أبي داود، للإمام ابن القيم، ت ٧٥١ هـ، ت. محمد حامد الفقي، مطبوع مع مختصر أبي داود، للمنذري، ومعالم السنن للخطابي، مطبة السنة المحمدية، القاهرة.
٦٠ ـ التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، لأبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، ت ٣١١ هـ، ت. د. عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، ط. الأولى ١٤٠٨ هـ، مطابع الفرزدق، الرياض، نشر دار الرشيد، الرياض.
٦١ ـ تيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب، ت ١٢٣٣ هـ، ط. الثالثة، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق.
٦٢ ـ تيسير الكريم الرحمن في تفسر كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ت ١٣٧٦ هـ، ت. محمد زهري النجار. ط. مطابع الدجوي، القاهرة، نشر المؤسسة السعودية، الرياض.

ـ ث ـ

٦٣ ـ ثلاث كلمات في الإخلاص والإحسان والالتزام بشريعة الإسلام، للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد، ط. مطابع الجامعة الإسلامية، بالمدينة النبوية، ١٤٠٨ هـ، نشر مركز شؤون الدعوة بالجامعة.

ـ ج ـ

٦٤ ـ جامع بيان العلم وفله لابن عبد البر النميري، القرطبي، ت ٤٦٣، الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت.
٦٥ ـ جامع البيان عن تأويل القرآن (تفسير الطبري) لمحمد بن جرير الطبري، ت ٣١٠ هـ، ط. الثالثة، ١٣٨٨ هـ، مصطفى البابي الحلبي ـ مصر.

٦٦ ـ جامع الرسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت ٧٢٨ هـ، ت. د. محمد رشاد سالم، ط. الثانية، ١٤٠٥ هـ، مطبعة المدني مصر.

٦٧ ـ الجامع الصحيح للإمام البخاري، ت ٢٥٦ هـ، المكتبة الإسلامية باستنبول، ١٩٨١ م، توزيع مكتبة العلم بالسعودية.

٦٨ ـ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري، القرطبي، ت ٦٧١ هـ، دار إحيار التراث العربي. بيروت.

٦٩ ـ الجامع لشعب الإيمان، لأبي بكر البيهقي، ت ٤٥٨ هـ، ط. الأولى المطبعة العزيزية شاه علي بنده حيدرآباد الهند، ١٣٩٣هـ.

٧٠ ـ الجرح والتعديل، للإمام عبد الرحمن بن أبي حاتم (الرازي) ت ٣٢٧ هـ، ط. الألألى، ١٣٧١هـ، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الهند، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧١ ـ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت ٧٢٨ هـ، مطابع المجد التجارية.

٧٢ ـ الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، للإمام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

ـ ح ـ

٧٣ ـ حاشية الأصول الثلاثة بقلم عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي، مجموع ثلاث رسائل الأربعين النووية ـ الموعظة النظمية، ط. ١٤٠٤ هـ، دار عكاظ، جدة.

٧٤ ـ الحسنة والسيئة لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت ٧٢٨ هـ، ت. محمد عثمان الخشت، ط. الأولى، ١٤٠٥ هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

٧٥ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، ت ٤٣٠ هـ، ط. الثالثة، ١٤٠٠ هـ، مؤسسة جواد للطباعة والتصوير، بيروت، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

٧٦ ـ خلق أفعال العباد للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ت ٢٥٦ هـ، ط. الأولى، ١٤٠٤ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

— د —

٧٧ ـ درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت ٧٢٨ هـ، ت. دكتور محمد رشاد سالم، ط. الأولى، ١٣٩٩ هـ، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٧٨ ـ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لأحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد ابن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢ هـ.

٧٩ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، ت ٩١١ هـ، ط. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٨٠ ـ دعوة الرسل إلى الله، لمحمد بن أحمد العدوي، ط. مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٥٤ هـ.

٨١ ـ الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، لمحمد الراوي، ط. مطبعة الحرية، بيروت، الدار العربية للطباعة والمشر، بيروت.

٨٢ ـ دلائل النبوة لأبي كبر جعفر بن محمد الفريابي، ت ٣٠١ هـ، ت. أم عبدالله بنت محروس العسلي، ط. مطابع دار طيبة، الرياض.

٨٣ ـ الديباج المذهب في معرفة ىعيان علماء المذهب، لابن فرحون المالكي، ت ٧٩٩ هـ، ت. د. محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، مطبعة المدني.

— ذ —

٨٤ ـ ذم الكلام وأهله لأبي إسماعيل عبدالله بن محمد بن علي الأنصاري (الهروي)، ت ٤٨١ هـ، مخطوط بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية رقم (٥٧٨) وهو مصور عن دار الكتب الظاهرية بدمشق.

٨٥ ـ ذم الهوى ـ لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، ت ٥٩٧ هـ، تصحيح أحمد عبد السلام عطا، ط. الأولى، ١٤٠٧ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

— ر —

٨٦ ـ رد الإمام الدارمي عثمان بن سعيد ـ علي بشر المريسي العنيد، توفي الدارمي سنة

٢٨٢ هـ، تصحيح وتعليق محمد حامد الفقي، ط. الأولى ١٣٥٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٧ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي، البغدادي، ت ١٢٧٠ هـ، ط. الثانية، المركز الإسلامي للطباعة والنشر، مصر، مكتبة دار التراث، القاهرة.

٨٨ ـ الروح لأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ، ط. ١٣٩٩ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

ـ ز ـ

٨٩ ـ زاد المسير في علم التفسير، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي، ت ٥٩٧هـ، ط. الأولى، ١٣٨٤ هـ، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت.

٩٠ ـ زاد المعاد في هدى خير العباد، للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ، ت. عبد القادر، وشعيب الأرناؤوط، ط. الثامنة، ١٤٠٥ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت.

٩١ ـ زاد المهاجر إلى ربه للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ، تقديم د. محمد جميل غازي، ط. ١٤٠٦ هـ، دار المدني، جدة، مطبعة المدني، القاهرة.

٩٢ ـ الزهد للإمام وكيع بن الجراح، ت ١٩٧ هـ، ت. عبد الرحمن عبد الجبار الفريواني، ط. الأولى، ١٤٠٤ هـ، مكتبة الدار ـ المدينة.

٩٣ ـ الزهد والورع والعبادة، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت ٧٢٨ هـ، ت. حماد سلامة، ط. الأولى، ١٤٠٧ هـ، مكتبة المنار، الزرقاء الأردن.

ـ س ـ

٩٤ ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ط. الثالثة ١٤٠٣ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت. ـ دمشق.

٩٥ ـ سنن أبي داود، للإمام الحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي، ت ٢٧٥ هـ، تعليق عبيد الدعاس، وعادل السيد، ط. الأولى، ١٣٨٨ هـ، ط. دار الحديث، سوريا.

٩٦ ـ سنن ابن ماجة، أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، ت ٢٧٥ هـ، ت. محمد فؤاد عبد الباقي، ط. دار الفكر.

٩٧ ـ سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، ت ٢٧٩ هـ، ت. أحمد محمد شاكر، ط. الثانية، ١٣٩٨ هـ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

٩٨ ـ سنن الدارقطني، للإمام علي بن عمر الدارقطني، ت ٣٨٥ هـ، ط. الثانية، ١٤٠٣ هـ، عالم الكتب، بيروت.

٩٩ ـ سنن الدارمي، للإمام أبو محمد عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي، ت ٢٥٥ هـ، ت. السيد عبدالله هاشم يماني، المدني، ط. ١٤٠٤ هـ، حديث أكاديمي، نشاط آباد، فيصل آباد، باكستان.

١٠٠ ـ سنن النسائي، للإمام أحمد بن شعيب بن علي بن بحر النسائي، ت ٣٠٣ هـ، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، حاشية الإمام السندي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٠١ ـ السنن الكبرى للإمام أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، ت ٤٥٨ هـ، ط. دار الفكر بيروت.

١٠٢ ـ سير أعلان النبلاء، لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت ٧٤٨ هـ، ت. شعيب الأرناؤوط، وحسين الأسد، ط. الأولى، ١٤٠١ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

١٠٣ ـ سير السلف الصالح، لإسماعيل بن محمد بن الفضل اليتمي الأصفهاني، ت ٥٣٥ هـ، مصور عن دار العلوم لندوة العلماء بلكناو ـ الهند، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، رقم ١٤٧١ تراجم مكروفلم.

١٠٤ ـ السيرة النبوية لابن هشام، ت ٢١٨ هـ، رواها عن ابن إسحاق، ت ١٥٣ هـ، ت. مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، ط. دار القلم، بيروت.

ـ ش ـ

١٠٥ ـ شأن الدعاء لأبي سليمان حمد بن محمد الخطابي، ت ١٣٨٨ هـ، ت. أحمد يوسف الدقاق، ط. الأولى، ١٤٠٤ هـ، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت.

١٠٦ ـ شجرة النور في طبقات المالكية، تأليف محمد بن محمد مخلوف، ت ١٣٦٠ هـ، ط. دار الكتاب العربي، بيروت.

١٠٧ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحي بن العماد الحنبلي، ت ١٠٨٩ هـ، ط. الأولى، ١٣٩٩، ط. دار الفكر، بيروت.
١٠٨ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للإمام هبة الله بن الحسين بن منصور الطبري اللالكائي، ت ٤١٨ هـ، د. أحمد سعد حمدان، ط. شركة العبيكان، الرياض، نشر دار طيبة، الرياض.
١٠٥ ـ شرح الطحاوية، للعلامة ابن أبي العز الحنفي، ت ٧٩٢ هـ، عن جماعة من العلماء، تخريج محمد ناصر الدين الألباني، ط. الخامسة، ١٣٩٩ هـ، المكتب الإسلامي، دمشق.
١١٠ ـ الشريعة للإمام أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، ت ٣٦٠ هـ، ت. محمد حامد الفقي، نشر: أنصار السنة المحمدية، لاهور.
١١١ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ، تصحيح محمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي، ط. الأولى، ١٣٢٣ هـ، المكتبة الحلبية (محمد أمين الخانجي وشركاه) مصر.
١١٢ ـ الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض بن موسى اليحصبي، ت ٥٤٤ هـ، المكتبة التجارية الكبرى، توزيع دار الفكر، بيروت.

ـ ص ـ

١١٣ ـ صفوة المفاهيم والآثار للشيخ عبد الرحمن بن محمد الدوسري، ت ١٣٩٨، ط. الثانية، ١٤٠٤ هـ، شركة العبيكان للطباعة والنشر، الرياض.
١١٤ ـ الصارم المنكي في الرد على السبكي، للإمام محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي، المقدسي، ت ٧٤٤ هـ، ت. إسماعيل بن محمد الأنصاري، ط. الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٣ هـ.
١١٥ ـ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري ، ت ٣٩٣ هـ، أو ٣٩٨ هـ، ت. أحمد عبد الغفور عطار، ط. الثانية ١٤٠٢ هـ، القاهرة.
١١٦ ـ الصحيح المسند من أسباب النزول للشيخ مقبل بن هادي الوادعي، ط. ١٤٠ هـ، مؤسسة جواد بيروت، نشر مكتبة المعارف، الرياض.

١١٧ ـ الطبقات الكبري، لمحمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، ت ٢٣٠ هـ، ط. ١٤٠٥ هـ، دار صادر، بيروت.
١١٨ ـ طريق الهجرتين وباب السعادتين للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

ـ ع ـ

١١٩ ـ عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، للإمام الحافظ ابن العربي المالكي، ت ٥٤٣ هـ، دار الوحي المحمدي ـ القاهرة.
١٢٠ ـ عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين للإمام ابن عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ، تصحيح نعيم زرزور، ط. مطابع يوسف بيضون، بيروت، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.
١٢١ ـ العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت ٧٢٨ هـ، ط. ١٣٩٨ هـ، مطبعة المدني، القاهرة.

ـ غ ـ

١٢٢ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تأليف الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري، ت ٧٢٨ هـ، ت. إبراهيم عطوة عوض، ط. الأولى، ١٣٨١ هـ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.
١٢٣ ـ غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، ت ٢٢٤ هـ، ط. الأولى، ١٤٠٦ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٢٤ ـ غريب الحديث للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي، ت ٢٨٥ هـ، ت. د. سليمان بن إبراهيم بن محمد الفايد، ط. الأولى، ١٤٠٥ هـ، دار المدني، جدة، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة،

ـ ف ـ

١٢٥ ـ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢ هـ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، تصحيح سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

١٢٦ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، ت ١٢٥٠ هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٢٧ ـ فتح المجيد، شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ، ت ١٢٨٥ هـ، تصحيح الشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز، ط. السابعة، ١٣٩٩ هـ، نشر المكتبة السلفية، المدينة النبوية.

١٢٨ ـ فضل الدعوة إلى الله وحكمها وأخلاق القائمين عليها، لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز، ط ١، مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، نشر مركز شؤون الدعوة بالجامعة.

١٢٩ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير، لمحمد عبد الرؤوف المناوي، ت ١٠٣١ هـ، ط. الثانية، ١٣٩١ هـ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

١٣٠ ـ في ظلال القرآن، بقلم سيد قطب، ت ١٣٨٧ هـ، ط. الهامسة ١٣٩٧ هـ، دار الشروق، بيروت، القاهرة.

١٣١ ـ الفائق في غريب الحديث، للعلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ت ٥٣٨ هـ، ت. محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ط. الثانية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر.

١٣٢ ـ الفوائد للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ، ط. الأولى، ١٤٠٠ هـ، المكتبة القيمة، مصر، السودان.

١٣٣ ـ الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلم البيان، للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ، ط. في مصر، ودار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، مكتبة المعارف، الرياض.

ـ ق ـ

١٣٤ ـ قصص الأنبياء للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير، ت ٧٧٤ هـ، ت. عبد القادر أحمد عطا، ط. الثانية، ١٤٠٢ هـ، نشر المكتبة الإسلامية، بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٣٥ ـ قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لأبي محمد عز الدين بن عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، ت ٦٦٠ هـ، ط. الأولى ١٣٥٣ هـ، المكتبة الحسينية المصرية، القاهرة.

١٣٦ ـ القاموس المحيط لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي الشيرازي، ت ٨١٧ هـ، عالم الكتب، بيروت.
١٣٧ ـ القصص القرآني إيحاؤه ونفحاته، د. فضل حسن عباس، ط. الأولى، ١٤٠٧ هـ، دار الفرقان، الأردن.
١٣٨ ـ القواعد المثلي في صفات الله وأسمائه الحسنى للشيخ محمدبن صالح العثيمين، ط. الثانية، ١٤٠٨ هـ، الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، نشر مركز شؤون الدعوة بالجامعة، رقم ٨٩.

ـ ك ـ

١٣٩ ـ الكشاف لجار الله محمود بن عمر الزمخشري، ت ٥٣٨ هـ، دار المعرفة، بيروت.
١٤٠ ـ الكنى والأسماء لأبي بشر: محمد بن أحمد بن حماد الدولابي، ت ٣١٠ هـ، ط. الأولى ١٣٢٢ هـ، بمطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند، ط. الثانية، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣ هـ، بيروت.
١٤١ ـ الكواشف الجلية عن معاني الواسطية، للشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان، ط. الثانية، ١٣٩٠ هـ، مطبعة السعادة، القاهرة.

ـ ل ـ

١٤٢ ـ لسان العرب، للعلامة محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، ت ٧١١ هـ، ط. الأولى، ١٣٠٠ هـ، مصور، دار صادر، بيروت.
١٤٣ ـ لوامع الأنوار البهية، للسفاريني.

ـ م ـ

١٤٤ ـ مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع خليل القطان، ط. الثامنة، ١٤٠١ هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، الشركة المتحدة للتوزيع.
١٤٥ ـ مجلة كليتي الشريعة وأصول الدين بالقصيم، العدد الثاني، السنة الثانية، ١٤٠١ هـ ـ ١٤٠٢ هـ.
١٤٦ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي، ت ٨٠٧ هـ،

ط. الثانية، ١٤٠٢ هـ، مطبعة العلوم، لبنان، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

١٤٧ ـ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ت ٧٢٨ هـ، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد، ط. ١٤٠٤ هـ، إدارة الساحة العسكرية القاهرة، مكتبة النهضة الحديثة، مكة.

١٤٨ ـ محاضرات الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، عام ١٣٩٧ هـ، مؤسسة مكة للطباعة، نشر الجامعة.

١٤٩ ـ مختصر منهاج القاصدين للإمام أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، ت ٦٨٩ هـ، تعليق شعيب، وعبد القادر الأرناؤوط، ط ١٣٩٨ هـ، مكتبة دار البيان، دمشق، مؤسسة علوم القرآن، بيروت ودمشق.

١٥٠ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب (ابن قيم الجوزية)، ت ٧٥١ هـ، ط. الأولى ١٤٠٣ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، مكتبة المعارف، الرياض.

١٥١ ـ مرشد الدعاة للشيخ محمد نمر الخطيب، ط. الأولى، ١٤٠١ هـ، مؤسسة جواد، بيروت، دار المعرفة، بيروت.

١٥٢ ـ مساوىء الأخلاق، ومذمومها وطرائق مكروهها، لأبي بكر: محمد بن جعفر بن محمد بن سهل السامري، ت ٣٢٧ هـ، مخطوط بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، رقم ـ ٤٦٣ ـ وهو مصور عن المكتبة الأزهرية بالقاهرة.

١٥٣ ـ مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، تصنيف أبي يعقوب بن شيبة بن الصلت، ت ٢٩٢ هـ، ت. كمال يوسف الحوت، ط. الأولى، ١٤٠٥ هـ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.

١٥٤ ـ مسند أبي داود الطيالسي، ت ٢٠٤ هـ، ط. الأولى، ١٣٢١ هـ، دائرة المعارف النظامية، الهند.

١٥٥ ـ مسند عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، تخريج أبي أمية محمد بن إبراهيم الطرطوسي، ت ٢٧٣ هـ، ت. أحمد راتب عرموش، ط. الأولى، ١٣٩٣ هـ، دار النفائس، بيروت.

١٥٦ ـ مشاهير علماء نجد وغيرهم، للشيخ عبد الرحمن بن عبد المطلب بن عبدالله آل الشيخ، ط. الثانية، ١٣٩٤ هـ، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر.

١٥٧ ـ مشكاة المصابيح، تأليف محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، ت ٧٤١ هـ، ت.

محمد ناصر الدين الألباني، ط. الثالثة، ١٤٠٥ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق.

١٥٨ ـ مشكل الآثار للطحاوي، أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزدي المصري الحنفي، ت ٣٢١ هـ، ط. الأولى، ١٣٣٣ هـ، مجلس دائرة المعارف النظامية، الهند.

١٥٩ ـ مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، لإبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي، ت ٨٨٥ هـ، ت. د. عبد السميع محمد أحمد حسنين، ط. الأولى، ١٤٠٨ هـ، مكتبة المعارف، الرياض.

١٦٠ ـ معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي، ت ١٣٧٧ هـ، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية، الرياض.

١٦١ ـ معالم التنزيل (تفسر البغوي) الحسين بن مسعود الفراء، البغوي الشافعي، ت ٥١٦ هـ، ت. خالد عبد الرحمن العلي، ومروان سوار، ط. الأولى، ١٤٠٦ هـ، دار المعرفة، بيروت.

١٦٢ ـ معالم الدعوة في القصص القرآني، لعبد الوهاب بن لطف الديلمي، ط. الأولى، ١٤٠٦ هـ، دار المجتمع، جدة، الخبر.

١٦٣ ـ معالم السنن للخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي، ت ٣٨٨ هـ، انظر (تهذيب السنن).

١٦٤ ـ معجم البلدان، لياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي. ت ٦٢٦ هـ، ط. دار صادر، بيروت، ١٤٠٤ هـ.

١٦٥ ـ معجم مقاييس اللغة، للحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت ٣٩٥ هـ، ت. عبد السلام هارون، ط. الثانية، ١٤٠٢ هـ، الخانجي، مصر.

١٦٦ ـ مفتاح دار السعادة ومنشور دار العلم والولاية، للإمام أبو عبدالله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ، مكتبة الرياض، الرياض.

١٦٧ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، ت ٣٣٠ هـ، ت. محمد محي الدين عبد الحميد، ط. الثانية، ١٣٨٩ هـ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مطبعة السعادة.

١٦٨ ـ مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، للإمام عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن الجوزي، ت ٥٩٧ هـ، ت. د. السيد الجميلي، ط. الأولى، ١٤٠٥ هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

١٦٩ ـ من أسرار ترتيب القرآن الكريم، لجلال الدين السيوطي، ت ٩١١ هـ، ت. عبد القادر عطا، ط. الثانية، ١٣٩٨ هـ، دار النصر القاهرة، نشر دار الاعتصام.

١٧٠ ـ مناهج الجدل في القرون الكريم، د. زاهر عواض الألمعي، ط. الثانية، ١٤٠٠ هـ، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.

١٧١ ـ مناهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان للدكتور/ علي بن محمد ناصر فقيهي، ط. الأولى، ١٤٠٥ هـ.

١٧٢ ـ منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب، لابن معمر عبد العزيز بن محمد بن ناصر بن عثمان بن معمر، ت ١٢٤٤ هـ، ط. الثانية، دار ثقيف، الطائف، ١٣٩٨ هـ.

١٧٣ ـ موطأ الإمام مالك بن أنس، ت ١٧٩ هـ، ت. محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٧٤ ـ المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث، للإمام محمد بن أبي بكر بن أبي عيسى المدني، الأصفهاني، ت ٥٨١ هـ، ت. عبد الكريم العزباوي، ط. الأولى، ١٤٠٦ هـ، دار المدني، جدة، نشر مركز البحث العلمي، جامعة أم القرى، مكة.

١٧٥ ـ المحكم والمحيط الأعظم في اللغة لعلي بن إسماعيل بن سيدة، ت ٤٥٨ هـ، ت. عبد الستار أحمد فرح، ط. الأولى، ١٣٧٧ هـ، مصطفى البابي الحلبي، بمصر.

١٧٦ ـ المستدرك على الصحيحين، لأبي عبدالله الحاكم النيسابوري، ت ١٤٣ هـ، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

١٧٧ ـ المسند للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ت ٢٤١ هـ، ط. الخامسة، ١٤٠٥ هـ، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، وكذلك المحقق، ت. أحمد محمد شاكر، ط. الرابعة، دار المعارف بمصر، ١٣٧٣ هـ.

١٧٨ ـ المزهر في علوم اللغة وأنواعها، لعبد الرحمن جلال الدين السيوطي، ت ٩١١ هـ، شرحه أحمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٧٩ ـ المصباح المنير، لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، ت ٧٧٠ هـ، ت. عبد العظيم الشناوي، ط. دار المعارف.

١٨٠ ـ المصنف في الاحاديث والاثار، للحافظ أبي بكر بن أبي شيبة، ت ٢٣٥ هـ، ت. عبد الخالق الأفغاني، ط. الثانية، ١٣٩٩ هـ، الدار السلفية، الهند.
١٨١ ـ المعجم الكبير للطبراني.
١٨٢ ـ المغازي للواقدي: محمد بن عمر بن واقد، ت ٢٠٧ هـ، ت. د. مارسون جونس، ط. الثالثة، ١٤٠٤ هـ، عالم الكتب، بيروت.
١٨٣ ـ المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد والراغب الأصفهاني، ت ٥٠٢ هـ، دار المعرفة، بيروت.
١٨٤ ـ الملل والنحل، لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، ت ٥٤٨ هـ، ت. محمد سيد كيلاني، ط. ١٣٩٦ هـ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.
١٨٥ ـ المنتخب للحافظ عبد بن حميد، ت ٢٤٩ هـ، ت. مصطفى بن العدوي شلباية، ط. الأولى، ١٤٠٥ هـ، دار الأرقم، الكويت.

ـ ن ـ

١٨٦ ـ نصب الراية لأحاديث الهداية، لعبدالله بن يوسف الحنفي الزيلعي، ت ٥٧٦ هـ، ط. الثانية، المجلس العلمي ـ جوهانس برغ، باكستان، الهند، المكتب الإسلامي، بيروت.
١٨٧ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، ت ١٢٥٠ هـ، ت. طه عبد الرؤوف سعد، ومصطفى محمد الهواري، مؤسسة روز اليوسف، نشر مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
١٨٨ ـ النبوات لشيخ الإسلام ابن تيمية، ت ٧٢٨ هـ، ط ١٣٤٦ هـ، دار الفكر.
١٨٩ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لجمال الدين يوسف بن تغري بردى الأتابكي، ت ٨٧٤ هـ، مصور عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

ـ هـ ـ

١٩٠ ـ هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، ت ٧٥١ هـ، ط. ١٣٩٦ هـ، مؤسسة مكة للطباعة والأعلام، توزيع الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية.

١٩١ ـ هداية المرشدين إلى الطرق الوعظ والخطابة، للشيخ علي محفوظ، ت ١٣٦١ هـ، ط. التاسعة، ١٣٩٩ هـ، دار النصر للطباعة الإسلامية، القاهرة، دار الاعتصام.

١٩٢ ـ وحي الله حقائقه وخصائصه في الكتاب والسنة، د. حسن ضياء الدين عتر، سلسلة دعوة الحق، السنة الثالثة، ١٤٠٤ هـ، عدد ٢٨، تصدر عن رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، مطبعة الرابطة، مكة.

١٩٣ ـ وسائل مقاومة الغزو الفكري للعالم الإسلامي، د. حسان محمد حسان، ط. رابطة العالم الإسلامي، مكة ضمن سلسلة دعوة الحق، السنة الأولى، العدد (٥).

١٩٤ ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأحمد بن محمد بن أبي بكر ابن خلكان، ت ٦٨١ هـ، ت. د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

ـ ي ـ

١٩٥ ـ يهود الدنمة، د. محمد عمر، دراسات تاريخية.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

تجد في هذا الكتاب :

١ ـ بيان أن القرآن والسنة هما المنهل الصافي للعقيدة السليمة .
٢ ـ أساليب الدعوة من الحكمة . والموعظة الحسنة . والمجادلة بالتي هي أحسن .
٣ ـ بيان مقامات مهمة للمسلم ـ كالفتنة والابتلاء ـ والصبر والشكر والرضاء .
٤ ـ وجوب الإخلاص والمتابعة إلا أن هناك من يطبع الله على قلبه ويعرض عن ذلك . مع أن الله دعاه ـ وتلطف له ـ وبين له الحق في كتبه وعلى ألسنة رسله .
٥ ـ بيان قصص بعض النبيين ، وما حصل لهم ولأتباعهم من الفوز ـ والفلاح ـ وما حصل لمن خالفهم من الهلاك والخسران .

رقم الايداع : ١٧/١٩١٠
ردمـــك : ٤-٠٧-٦٤٤-٩٩٦٠